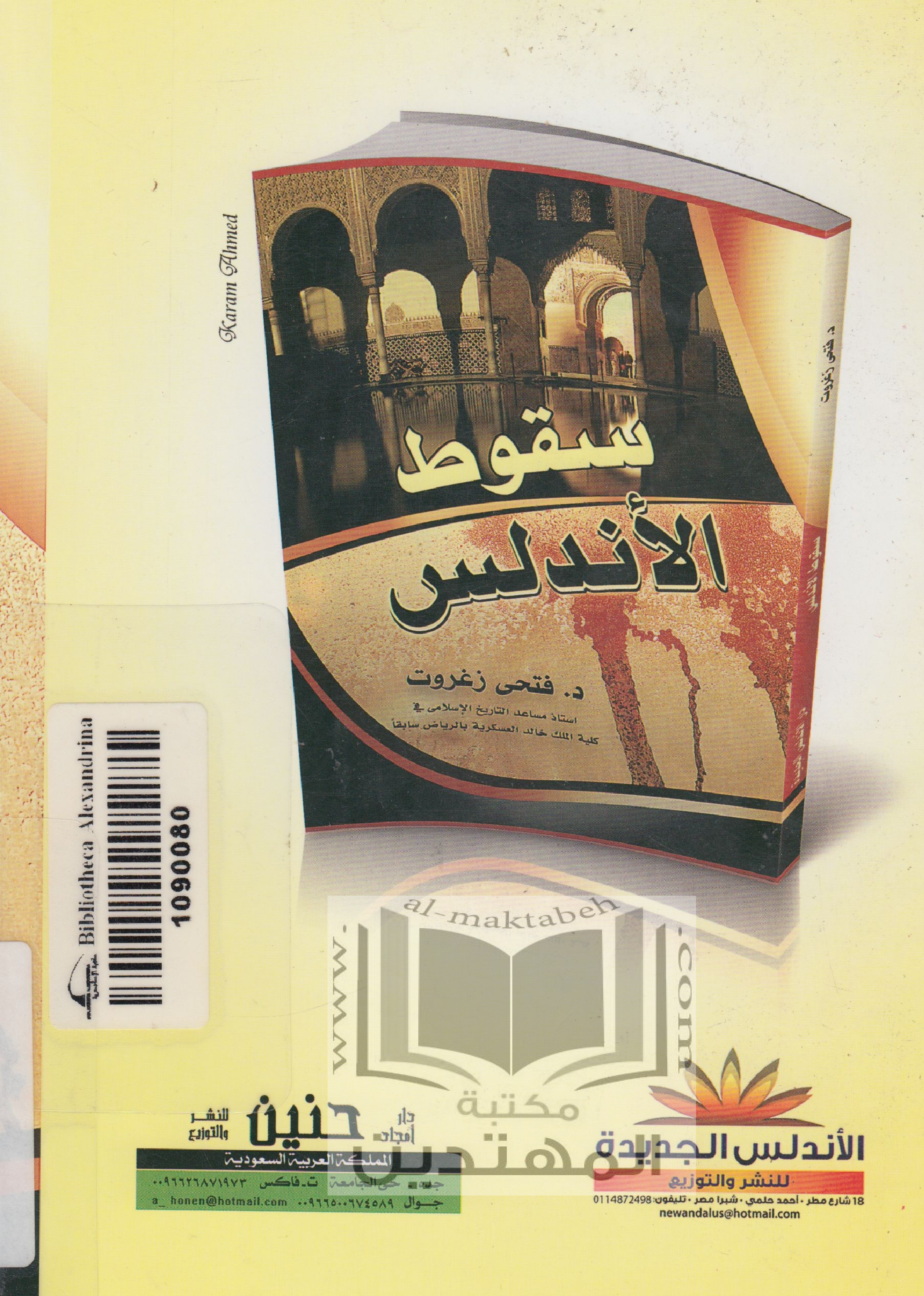
سقوط الأندلس

د. فتحى زغروت


استاذ مساعد التاريخ الإسلامى في
كلية الملك خالد العسكرية بالرياض سابقاً



دار أمجاد حنين للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
ت. فاكس ٠٠٩٦٦٢٦٨٧١٩٧٣
جوال ٠٠٩٦٦٥٠٠٦٧٤٥٨٩
a_honen@hotmail.com

الأندلس الجديدة
للنشر والتوزيع
18 شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - تليفون: 0114872498
newandalus@hotmail.com


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



سقوط الأندلس

د. فتحي زغروت

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٤١٦٢/٢٠١٠

الترقيم الدولى: I.S.B.N.
978-977-456-336-9



18 شارع مطر - أحمد حلمي - شبرا مصر - التليفون: 0101068135
newandalus@hotmail.com



﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

صدق الله العظيم

تمهيد

على إحدى التلال المشرفة على مدينة غرناطة وفى اليوم الثانى من يناير سنة ١٤٩٢م أخذ الملك عبد الله الصغير يبكى على ملكه بعدما سلم مفاتيح قصر الحمراء إلى ملك قشتالة وانزوى بعيدا عن أمه وأخذ يبكى وراء ربوة ظانًا أن أمه لم تلحظه، فصاحت به أمه: «أجل فلتبك كالنساء ملكا مضاعا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال». ويمثل هذا اليوم فى ذاكرة الأمة المسلمة ذكرى سقوط الأندلس، أما المكان الذى بكى فيه ذلك الملك الصغير فما زال يمثل فى ذاكرة الأسبان مزاراً للسياح حتى يومنا هذا وقد أطلق عليه الأسبان «زفرة العربى الأخيرة».

وإنها فى الحقيقة ليست زفرة واحدة ولم تكن هى الزفرة الأخيرة فما زال المسلمون تتتابعهم الزفرة تلو الزفرة، والحسرة تلو الحسرة على ضياع ذلك الملك العربى الإسلامى الذى استمر فى شبه جزيرة الأندلس ما يقارب ثمانية قرون.

وأعتقد أن السقوط الحقيقى للأندلس لم يكن فى هذا التاريخ المذكور وإنما سبق ذلك سقوطان هزا كيان المسلمين فى الأندلس هزاً عنيفًا، ولكن على ما يبدو أن المسلمين وملوكهم كانوا غارقين فى متعهم وشهواتهم فلم يتعظوا ولم يأخذوا العبرة من التاريخ ولم يدركوا السنن والقوانين الكونية التى تحكم حركات المجتمع والتى ينبغى أن نتدبرها ونتأملها لما فيها من عظة وعبرة بالغة. فما هما السقوطان؟ كان السقوط الأول حينما دب الضعف والانحلال بزوال الخلافة الأموية فى الأندلس إذ سقطت أولى المدن الكبرى وهى طليطلة فى أيدى الأسبان سنة ١٠٥٨م، وفى الوقت الذى تمزقت فيه وحدة المسلمين فى الأندلس كان النصارى يوحدون صفوفهم ويجمعون طاقاتهم فى حربهم المقدسة لاسترداد الأرض من أيدى المسلمين، ومنذ ذلك التاريخ أخذت المدن الإسلامية الكبرى تتساقط واحدة تلو الأخرى وسقطت قرطبة عام ١٢٣٦م ثم أشبيلية عام ١٢٤٨م ثم مرسية عام ١٢٦٦م.

أما السقوط الثانى فكان سقوط دولة الموحدين إثر هزيمتهم فى موقعة العقاب إذ لم تقم للأندلس بعدها قائمة، فسرعان ما مالت الدولة إلى الضعف والتفكك واندلاع الثورات فى المغرب والأندلس، وانتشرت حركات الاستقلال التى استقل أصحابها ببعض بلدان دولة الموحدين مثل بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص مما أدى إلى ضعف الأندلس، ومن ثم نشط ملوك الغرب المسيحى وازدادت رغبتهم فى استرداد مدن شبه الجزيرة الأندلسية وأخذت تتساقط واحدة وراء الأخرى حتى تجمع المسلمون فى ولاية واحدة هى ولاية غرناطة فى جنوب الأندلس والتى كان وقوعها إيذانًا بانتهاء دولة المسلمين فى الأندلس.

وتأتى ذكرى هذا السقوط ويمر على ذاكرتنا مر الكرام فلا نرى له صدى نحسه فى أنفسنا أو ندركه بعقولنا وتجاربنا، ولكن على ما يبدو أن تلك الذكرى التاريخية لم تجد صداها فى النفوس وذلك لغيبة الوعى الكامل بأهمية التاريخ. فكيف يتأتى لنا فهم أحداثه ووعيها وعيًا صحيحًا ونحن غائبون عن التاريخ أو مغيبون بسبب توجيه الذاكرة العربية بأيد آثمة فينبغى أن نقرأ تاريخ الإسلام فى الأندلس حتى ندرك أسباب سقوط دولة الإسلام فى تلك البلاد وندرك أبعادها ومراميها إدراكًا سليمًا ثم نتفادى تجربة الأندلس الأليمة لأن شبح سقوط الدول ما زال ماثلا أمام أعيننا اليوم نتجرع مراراته بعد سقوط بغداد وأفغانستان.

إن النظرة المنهجية المفيدة لتاريخ المغرب والأندلس باعتبارهما الجناح الغربى للأمة الإسلامية تقتضى منا أن نربط بين حركتى التاريخ فى المشرق والمغرب الإسلاميين باعتبار أن كلا منهما يكمل الآخر ويساعده، فكم من أحداث فى الشرق الإسلامى كان لها صدى فى الغرب الإسلامى والعكس صحيح. ومن الخطأ الشنيع أن يدرس تاريخ أمتنا الإسلامية مجزأ أو مفرقًا، ولو تم ذلك ما استطعنا الوقوف على العلل والأسباب ولغمضت علينا المقاصد والأهداف. لذا ينبغى ربط حركة التاريخ فى المغرب والأندلس بحركة التاريخ فى المشرق الإسلامى ولإدراك أهمية هذا الربط نأخذ مثالاً يدل على ذلك. فهناك بعض الدول التى

قامت في المغرب والأندلس كدولة الأمويين فى قـرطبة بالأندلس ودولة الفاطميين بالشمال الأفريقى ودولة الأدارسة فى مدينة فاس ودولة بنى رستم فى الجزائر. إلى غير ذلك من دول أقيمت فى المغرب والأندلس أصـحابها عناصر عربية هربت من المشرق الإسلامى حيث لم تجد ضالتـها ولم تستطع التكيف بأفكارهم ومبادئهم مع شعوب المشرق فهجرته إلى المغرب والأندلس لأن شعوب تلك المنطقة كانوا حديثى عهد بالإسـلام كما كانوا على الفطرة والسذاجة آنذاك. من هنا نجـد أصحاب هذه الحركات الهاربة من المشرق قـد عرفوا جيدا كيف يلعبون على وتر العصـبية القبلية والذى كان لعـبتهم المفضلة فى المـشرق. فهربوا بهـا إلى المغرب والأندلس وأثاروا العصبية بين البـتر والبرانس وتحركت لسببها قبائل المغـرب الكبرى من زناته وكتامه وصنهاجـة وغيرها لمساندة دولة تقـام كدولة الفاطميـين ودولة المرابطين والموحدين ودولة الأدارسة وغير ذلك من دول أقـيمت أو دول انهارت بسبب العصبـية القبلية فى المغرب والأندلس.

وهناك مثل آخر هو فـتح القسطنطينية على يد محمد الفـاتح سنة ١٤٥٣م فقد كان له الوقع الكبـير على شـعوب أوروبا مما جعل السلطة الدينـية البابوية تسـتنفر الهمم لرد دولة العـثمانيين الإسـلامية وإيقاف زحـفها وفك حصـارها الذى أحاط بأجزاء كثيرة من أوروبا، فقامت الحركة الصليبية فى الغرب الأوروبى للوقوف ضد الزحف الإسـلامى الذى جـاء لهم من الـشـرق، وبدأ الدوران العكسـى وظهـر الاصطدام واضحًا حـول الحوض الغربى للبحر الأبيض المتـوسط وظهيره الأرضى الممتـد إلى أبعاد ضـاربة حتى حـدود الصحـراء والسودان الغـربى، فكلمـا تقدم العـثمـانيون مـتوغلين فـى شرق أوروبا مـهيـمنين على البلقـان ودوله كالبـوسنة والهرسك وكوسوفا كان النصارى من الأسبان والقشتاليين وغيرهم فى غرب أوروبا يتقدمون من الغرب الأوروبى نحو الجنوب ليـصلوا إلى مدن الشمال الأفريقى ويتم استيـلاؤهم على أهم مدنه مثل مليلة وسبتـة ووهران وبجاية، فكل هذه المدن تعد خطوطًا أماميـة لحماية جنوب غرب أوروبا ومراكز تموين ينفـذ منها المدد الإسلامى إلى مسلمى الأندلس، ومن ثـم عزم النصارى على قطع الشـرايين التى كانت تمد

المسلمين بالجيوش والعدد العسكرية فى الأندلس حتى ينحصر المسلمون فى الداخل ويسهل القضاء عليهم، فلا غرو أن نرى المسلمين يتجمعون قسرًا فى ولاية واحدة وهى غرناطة فى انتظار المصير المحتوم الذى اقترب موعده.

ومن هذا المنطلق فإن الكلام عن الغرب الإسلامى لا يمكن فهمه إلا إذا تتبعنا أحداث الشرق الإسلامى، وهذا ما يفسره لنا توغل الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى من ناحية وعلى الأندلس وشمال أفريقيا والغرب الإسلامى من ناحية أخرى كل ذلك فى وقت واحد.

إذن فإن العلاقة بين المشرق الإسلامى ومغربه لها أهمية بالغة لفهم أحداث تاريخ تلك الأمة الذى ما زالت تكتنفه الفجوات التى تباعد بين أبناء أمتنا الواحدة، فكيف هذا والعالم كله يتقارب ويتكتل فى كتل سياسية واقتصادية يتلاحم فيها أبناء الكتلة الواحدة ليحققوا هويتهم ويرفعوا من شأن أممهم على نحو ما نراه اليوم من تقارب بلدان الاتحاد الأوروبى. كما أن الاستعمار الحديث لم ينظر تلك النظرة الإقليمية الضيقة فهو يأتى إلى المنطقة ليتحكم فيها كوحدة سياسية متصلة بلدانها، فهم ينظرون إلى العالم العربى والإسلامى من منظور جديد أطلقوا عليه «الشرق الأوسط الجديد» حتى يذوب العالم العربى كجنس فى غيرهم، ويقل الوازع الدينى الإسلامى فى نفوس المسلمين وتصبح المنطقة كلها وقد انتزعت منها الهوية العربية الإسلامية.

وإذا جاز لنا أن نقرأ التاريخ الأندلسى فينبغى أن نقرأه كوحدة تاريخية متماسكة ومتساندة مع تاريخ المشرق الإسلامى حينئذ تذوب الجفوة بين مسلمى المشرق ومسلمى الغرب، ويتم التواصل مع شعوبنا العربية الإسلامية والتى نحن اليوم فى أمس الحاجة لذلك التواصل للوقوف صفًا واحدًا أمام العدو الذى يتربص بنا الدوائر.

لقد جد النصارى أيما جد لاسترداد أرض الأندلس وتوحدوا فى حملات صليبية جمعت بين فرسان وملوك دول غرب أوروبا من أجل استرداد الأرض

يقودهم فى ذلك ألفونســو السادس ملك قشتالة، وقد بدأت حـملة الاسترداد على الأندلس من الشـــمــال إلى الجنوب على شـكل طرد جـمـاعى لـسكان المدن من المسلمين ومصادرة أمـلاكهم، فكلما سقطت مدينة هجرها المسلمون مـتجهين نحو الممالك الجنوبية للأندلس والمحاذية لشمال أفـريقيا. ولكن الملاحظ من جهة أخرى أن قادة النصارى القـائمين بعملية الاسترداد قـد غيروا خطتهم للمرة الثـانية عندما وصلت جيـوشهم إلى مملكة غرناطة وهى المملكة الوحـيدة التى استعـصت عليهم فترة من الـزمن، لذا نراهم يبدؤون الهجوم من الجنوب والسـبب فى ذلك أنهم قد وصلتهم الأخـبار عن وصـول المدّ الإسلامى من الجنوب أى من بر عـدوة المغرب وذلك لنجدة المسلمين فى غرناطة وكانت نتيجة هجومهم هذه المرة من الجنوب إلى الشمال أن سقطت مدينة مالقة قبل غرناطة بنحو خمس سنوات.

وكانت مـحنة المسلمين بعد سقـوط غرناطة محنة قاسـية حقاً إذ أجـبروا على التنصير قسرًا ولاقوا فى سبيل ذلك الذل والهوان والتعذيب البشع. ويشير الدكتور مصطفى أحمد حموش فى بحثه القيم بدائرة تخطيط المدن بـالعين عما كتبه السفير الأمريكى «إيـرفينج» الذى كان يتـردد على المخطوطات العربـية بأسبـانيا ليـعرف الحقائق التاريخية من مصـادرها الأصلية، فقد راعه ما لحق بالمسلمين من هوان فى مدينة مالقة بعدما استولى عليها الصليبيون، فقد وصف هذا الأمر بقوله: «فبعد أن استتب الأمر للملك القشـتالى اقتيد المسلمون إلى حظيرة الحيـوانات بجوار القصبة محاطة بأسـوار عالية ليقـضوا فيها أيامـهم فى انتظار بيعهم فى سـوق النخاسة أو توزيعهم كعبيد وأيامى، ولعل المشهد الذى وصفـه ذلك السفير للمسلمين الواقعين تحت رحمة الأسـبان من شيوخ ونسـاء وفتيات جـميلات أغلبهن ينـحدر من أسر عربيـة نبيلة، ولكن النصارى لم يرعـوا لذلك حرمة وسـاقوهم فى شوارع مـالقة مثقلين بالسلاسل والأغلال أو يرسفون فى القـيود متجهين إلى الزريبة التى أعدت لإيوائهم، وكانت الـنساء المسلمات تلطمن خـدودهن وتضربن صـدورهن ويرفعن عيـونهن إلى السـماء فى حـسرة وألم. وبعـد قتل الكثـير من الرجـال المقاومـين

أصحاب القوة والجلد من فتيان المدينة أو من الذين جاءوا للجهاد من جهات أخرى أخذ الكثيرون منهم عبيدا يعملون فى خدمة الكنائس أو خدمة الأساطيل فى التجديف والنظافة، كما وزعت الفتيات المسلمات خمسون منهن إلى الملكة شقيقة الملك فرديناند وثلاثون فتاة أخرى هدية إلى ملكة البرتغال وباقى الفتيات وزعن هدايا إلى نساء البلاط وإلى بعض الأسر النبيلة، ولم يذكر الكاتب حالات الاغتصاب الجماعية التى رافقت غزو المدن الأخرى والتى كانت تدفع كثيرا من المسلمات أن ترمى أنفسهن فى الآبار أو ينتحرن.

إن ما حل بالموريسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم النهائى سنة ١٦٠٩م يعد أشنع وأفظع مأساة إنسانية عرفها التاريخ البشرى، ومع هذا فإن نوعية المعلومات التى كنا نعرفها فيما سبق من ذكر محاولات الاستغاثة أو النجدة كانت معلومات ارتجالية تغلب عليها العاطفة والحماسة وذلك مثل سيرة الرندى وطلب الاستغاثة أو النجدة من بنى مرين أو غيرهم ولكن الحقيقة أن قضية الموريسكيين أعمق من ذلك بكثير، فهى تتعرض لإشكاليات تاريخية ينبغى تغطيتها تاريخيًا كعملية التصفية الجسدية والنفسية التى قام بها نصارى قشتالة والاقتلاع الحضارى لمجتمع إسلامى قائم له قواعده وقوانينه الثابتة وتشريعاته ونظمه المستمدة من جوهر الإسلام والقرآن الكريم، فكيف آل مصير هذا المجتمع إلى الفناء المطلق والقضاء عليه تمامًا فى الأندلس، وذلك نتيجة ما فرضته عليه محاكم التفتيش الأسبانية وسياسته التعصبية التى حاربت أبسط مظاهر التبعية للدين الإسلامى.

ومن هذا المنطلق فإن قضية الموريسكيين تحتاج إلى مزيد من الدراسات البحثية لتسلط الأضواء على بعض الجوانب المهمة فى المجتمع الموريسكى مثل دور الفقهاء فى تلك المحنة، ودور المرأة الموريسكية الباسلة وكيف صانت أسرتها من التشتت والضياع، وتحملت هى فى سبيل ذلك القتل والحرق والدفن حية، وكذلك من الأمور الجديرة بالدراسة تحريم استعمال الألقاب العربية وتعميم الألقاب المسيحية مكانها على كل المسلمين وإجبارهم على عدم ختن أبنائهم وكذلك عمليات

الاستيلاء التى كانت تتم على أملاك الموريسكيين وأموالهم، ومن الجوانب الجديرة بالدراسة أيضا كيف كان يتعلم هؤلاء الموريسكيون وما اللغات التى كانوا يتكلمونها ويعرفونها حيث اتضح أنهم ابتكروا لغة تجمع بين اللغة القشتالية والعربية، وقد ألفوا بها مؤلفات فقهية وأدبية تحتاج من الباحثين التنقيب عنها، وكذلك الحديث عن المهن التى امتهنها هؤلاء البؤساء وحالتهم الاجتماعية، كما يحتاج الأمر إلى أن نكشف عن عملية الاستيلاء على أملاك الأحداث والتى ضمت إلى أملاك الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك ينبغي دراسة عمليات الاستيلاب الثقافى والتغريب وطبيعة المجادلة الدينية والفكرية من خلال توفر النصوص الألخيمادانية واللاتينية، وكذلك لا ننسى فى دراستنا عمليات التهجير الجماعى والطرد النهائى والظروف القاسية التى صاحبت ذلك سواء تم ذلك التهجير عن طريق فرنسا أو البندقية أو بالنقل على سفن مسيحية ثم التجائهم أخيرا إلى بعض بلاد المغرب العربى وأراضى الدولة العثمانية التى فتحت أبواب بلدانها لموجات الهجرة.

هذه هى بعض الاهتمامات فى قضية الموريسكيين التى ينبغى أن يحوم حولها البحث التاريخى وإذا كنا قد تغافلنا فيما سبق عن دراسة هذه الجوانب فإن دراستها اليوم تكتسب أهمية كبرى وخاصة أن الجامعات الغربية والأمريكية قد عكفت على دراسة قضايا الموريسكيين دراسة منهجية حيث استنطقوا الوثائق البرتغالية والعربية المبثوثة اليوم فى مكتبات تركيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلاد الشمال الأفريقى.

وتؤكد أغلب الوثائق والمستندات التى درست أن الأسبان لم يحترموا روح المعاهدة التى وقعوها مع الطرف العربى عند تسليم مدينة غرناطة بل سرعان ما تنكروا لها وبدأوا بإصدار قوانين تقضى باسترداد ليس المدينة ومن فيها فقط بل أيضا باسترداد روحى وحضارى لجميع سكان المملكة وعلى وجه الخصوص العرب المسلمين، وبدأت محاكم التفتيش تصدر القوائم المفصلة لكل المظاهر التى تنبئ عن اتباع الدين المحمدى كما كانوا يقولون، وطلبت من كل المواطنين الأسبان مراقبة هؤلاء الموريسكيين والإخبار لمحاكمة المدنيين، ومن هنا فتحت الباب واسعا

للوشاية والحقد والانتقام من هؤلاء المسلمين البؤساء، وأول مظاهر المعاناة فى هذا المجتمع هى معاناة رجال العلم والفقهاء الذين غيروا أسماءهم إلى أسماء مسيحية وغيرت أسماء النساء بأسماء مسيحيات أيضا فى محاولة ماكرة من محاكم التفتيش بهدف قتل الانتماء للضمير الإسلامى، فقد قررت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم الثقافية واعتبرت الكنيسة أن الذى لا يدلى بمعلومات عمن يتبع الدين الإسلامى يعد عدو عقيدة الكنيسة وقد أقرت الكنيسة أن الموريسكيين يمثلون السم والحشرات الطفيلية والنبتة السيئة فى حقل كنيسة أسبانيا.

وتؤكد الدراسات المنصفة للموريسكيين أنهم كانوا رجالا مهرة وفنيين فى العديد من المهن مثل صناعة الحرير والذهب والفضة والنقش على اللوح والبناء والفلاحة وزراعة البرتقال والحوامض وقصب السكر ومختلف الأشجار المثمرة كالتوت والحناء. وقد تضررت الحياة الاقتصادية من جراء الأساليب التعسفية للموريسكيين حيث تركوا تلك المهن وأصبحت شاغرة مما سبب كسادًا كبيرًا، وقد فرضت عليهم مهن أشق وتحولت أعداد كبيرة منهم إلى عبيد أو حمالين والنساء عملن غسالات وخادمات وهذا أمر طبيعى نتيجة للقرارات الصادرة آنذاك لأنه لا حق للموريسكيين فى امتلاك محلات عمومية ولا يكونون أصحاب مزارع وصيادلة وأطباء وجراحين ومضمدين.

وإنه لمن دواعى الفخر والإعجاب تمسك الموريسكيين بدينهم الإسلامى والحرص عليه على الرغم من التعميد القسرى لكل المسلمين، وعلى الرغم من مراقبة المخالفين ومراقبة المواطنين الأسبان على الرغم من كل هذا فإنه لم يمنع الموريسكيين من الوفاء لدينهم ولغاتهم وعاداتهم، ومن أمثلة هؤلاء «فرنسسكوا باراد علياس» الذى رفض اليمين بالصليب الذى قدمه إليه المفتشون بعد ست سنوات سجن وتعذيب فلم يغير رأيه في معتقده وكذلك «خوان الكسمات» قبل أن يحرق أعلن علانية انتماءه إلى الإسلام وأنه سيموت شهيدا، وأعتقد أنه بالفعل قد مات شهيدا عليه رحمة الله لأنهم كانوا غير مقتنعين بالدين المسيحى الكاثوليكى

وفضلوا الموت حرقًا على أن يقبلوا دينًا يفرض عليهم بالحديد والنار، وهذا الموريسكى الذى لم يتجاوز عمره التاسعة عشر سنة والذى كان يحضر حفلات الزواج لإتقانه العربية وكان يتفوه لوالدته بكلمات بذيئة كلما تقدمت إلى القداس وقد انتبهت محاكم التفتيش إلى أهمية هذه الظاهرة فسعت بكل الوسائل أن تحدث الشقاق والخلاف فى صلب العائلة نفسها بأن فرقت بين الابن ووالده والأخت وأخيها ووالدتها، وسعت إلى تفكيك عرى العلاقات العائلية ومنع الزواج فيما بينهم وإدخال العناصر الأجنبية لضرب العصبية الدينية والعرقية.

وتتصل بالموريسكيين قضية تاريخية تعد من أهم القضايا فى التاريخ الإسلامى وهى قضية علاقة هؤلاء الموريسكيين بالدولة العثمانية، فهل كان السلاطين العثمانيون بعيدين عن أزمة مسلمى غرناطة وهل أحجموا عن مساعدتهم وإغاثتهم من بطش النصارى الأسبان. إن هذه القضية لابد من تسليط الضوء عليها لأن الوثائق الرسمية تثبت أن السلاطين الأتراك كانت لهم علاقات مع مسلمى أسبانيا لأن الأتراك آنذاك كانوا قوة عسكرية كبرى تتمتع بهيمنتها على البحار وعلى بلدان أوروبا الشرقية التى توجت بالاستيلاء على القسطنطينية، وفى اعتقادى أن العثمانيين قد مدوا يد المساعدة إلى الأندلسيين فقد أرسل الموريسكيون أكثر من رسالة إلى السلطان العثمانى يطلبون فيها الغوث ومد يد العون والمساعدة. والمتتبع لتاريخ هذه القضية سيجد تضامنًا كبيرًا واتصالات تمت بين السلاطين العثمانيين وبين بعض ملوك أوروبا لنقل مسلمى أسبانيا وانتشالهم من الأندلس.

فلا عجب إذا قلنا إنه كان للعثمانيين اليد البيضاء فى تنظيم حملات الهجرات الجماعية للمسلمين ونقلها إلى مختلف أقاليم السلطنة العثمانية، وقد امتدت تلك الهجرات من سقوط غرناطة أو من قبلها بقليل إلى عام ١٦١٤م، وهو تاريخ إعلان إنهاء محاكم التفتيش وزوال أزمة الموريسكيين وانتهاء حركة التنصير القسرى، وقد لعبت الجزائر التى كانت أول عاصمة رسمية للحكم العثمانى فى الشمال الأفريقى دورًا رائعًا فى خدمة مسلمى غرناطة، وكان هذا بفضل القائدين البحريين «عروج» و«خير الدين بربا روسا».

إن فضل العثمانيين فى هذا المجال لا يجحد فيرجع إليهم الفضل فى توزع الجاليات الأندلسية المهاجرة فى بلدان الشمال الأفريقى حيث شهد ذلك الساحل حركة تعمير واسعة تمثلت فى نشأة مدن جديدة وإحياء مدن مندثرة وتوسيع كثير من المدن، وبذلك سهل العثمانيون الإقامة للمهاجرين جماعات، ولعل استقرار الجماعات الأندلسية المهاجرة على هذا الشريط الساحلى للبحر المتوسط فى الشمال الأفريقى يعود تفسيره إلى المجهود الذى بذلته السلطة العثمانية فى البحر، وقد راود هؤلاء الأندلسيين الذين أقاموا فى هذا الشريط حلم العودة إلى ديارهم فى الأندلس التى لا يفرقها عنهم سوى ذلك المضيق الضيق، فلا عجب أن نسمع عن عائلات أندلسية كانت تحتفظ بمفاتيح بيوتها بالأندلس آملين أن يأتى يوم العودة فيرحلون من الجزائر إلى مقر حلمهم الذى يراودهم.

وإذا كان لنا من عبرة ودرس يمكن أن نعيه من سرد هذا التاريخ فليكن فى تلك الثغرة المرتبطة بالدولة العثمانية، فقد بدت الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر الميلادى قوة عسكرية لا يستهان بها هابها الشرق والغرب على السواء ولكن على ما يبدو أن هذه القوة الإسلامية لم يتم استغلالها الاستغلال الأمثل من ناحية، كما حاول اليهود والغرب المسيحى أن يسئ إليها من ناحية أخرى، فكان يمكن استخدامها فى إحياء روح الأمة الإسلامية المتهالكة آنذاك ولكن الهوة العميقة التى كانت تفصل مشرق الإسلام عن مغربه كانت هى السبب فى تلك الثغرة التى مازلنا نعانى منها حتى اليوم وليتصفح القارئ تاريخ الدولة العثمانية فستدهشه تلك القوة المروعة حقا والتى زحفت من المشرق الإسلامى إلى دول أوروبا الشرقية مارة بدول البلقان ومتوجة بفتح القسطنطينية والتى بات الغرب الأوروبى يتوجس خوفًا من تلك القوى الباطشة التى دفعتهم إلى أن يتجمعوا فى صعيد صليبى واحد للوقوف ضد القوة الإسلامية الفتية الممثلة آنذاك فى قوة الدولة العثمانية.

والحقيقة الأخرى التى يمكن الإشارة إليها بكل أسف على الرغم من الاعتراف بفضل العثمانيين وخدماتهم الجليلة تجاه المقدسات الإسلامية والوقوف لصد الصليبيين، أقول إن سياسة التتريك التى اتبعتها الدولة التركية هى الأخرى كانت سببًا رئيسًا وأساسيًا فى التباعد بين الدولة العثمانية من جهة وبين الشعوب الواقعة

تحت سيطرتها من جهة أخرى، وخاصة الشعوب العربية والإسلامية. فهذه السياسة تفوح منها روائح التعصب الجنسى والطائفى التى باعدت بين الترك والعرب وملأت القلوب نفورًا وحساسية من سطوة القومية الطورانية، أضف إلى ذلك إلغاءهم للغة العربية ومحاولة وضع اللاتينية مكانها. . كل هذه الأساسيات قد أضعفت هى الأخرى من روح الولاء الذى ينبغى أن يربط شعوب الأمة المسلمة، مما جعل بعض مستشرقى اليهود ينعتون الحكم الإسلامى العثمانى للعالم العربى بنزعة استعمارية، فلا غرو أن تطالعنا العناوين «الاستعمار التركى للعالم العربى»، «مساوئ الاحتلال العثمانى» إلى غير ذلك من عناوين تثير الكراهية والبغضاء بين العرب والعثمانيين فكلهم إخوة فى رابطة العقيدة.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد وصلت بجهازها العسكرى إلى منعة عسكرية فقد حققت استراتيجية الردع إزاء الدول التى تسول لها نفسها الاعتداء على حدود الدولة الإسلامية التركية عملا بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] وهذا أمر بلا شك يحمد لهذه الدولة الفتية بل هو يعد من أهم المقاصد التى تحرص عليها الدول. ولكن على ما يبدو أن هذا الاهتمام العسكرى الزائد قد أدى إلى أن يتناسى المسئولون الجوانب الأخرى اللازمة لتطور الدولة ودفع عجلتها إلى الأمام فقد أدى الاهتمام العسكرى الذى امتص كل شيء إلى توقف عجلة العلم والمعرفة، فقد ملكت تلك الدولة من أسباب القوة العسكرية والبحرية والبرية خبرات حربية لا مثيل لها فى صناعة الأسلحة وإقامة التحصينات الدفاعية ما جعلها قوة فريدة متميزة ولكن المفارقة العجيبة أنهم أهملوا البحث العلمى فى مختلف ميادينه حتى البحث الدينى، فقد سادت حركات التصوف الشاذة والخرافات والأساطير فى الحياة الدينية عند أغلب مسلمى تركيا آنذاك، وعلى ما يبدو أن العالم الإسلامى كله قد اتسم بهذه السمة، فبدأ هذا العالم يصل إلى درجة من الانحطاط العلمى والحضارى، واكتفى العلماء بالشروح وإضافة الحواشي والتقليد، وفى الوقت الذى انحدر فيه العالم الإسلامى كان العالم الأوروبى يأخذ بأسباب العلم والمعرفة وقد اتسعت

ميادين بحوثه فى شتى الاتجاهات حتى وصلت اليوم إلى درجة رائعة من الحضارة والعلم والتقنية جعلتهم يختالون بها على الأمم، واعتبروا حضارتهم تلك هى الحضارة الأخيرة التى سوف ينتهى عندها التاريخ ولا حضارة بعدها.

والعجيب أن بعض مفكرى الغرب قد وصل به التيه والإعجاب بحضارته الغربية فابتكر فكرة صراع الحضارات. وهذا مصطلح خاطئ فى ذاته لأن الثقافات والحضارات لا تتصارع بل ينتفع بعضها من بعض عن طريق التأثير والتأثر، وما قصد «هنتجنتون» صاحب نظرية صراع الحضارات بهذا المصطلح إلا أن يشين إلى الدين الإسلامى الحنيف وحضارته الغراء ليظهر الدين بمظهر الجمود وعدم الصلاحية للقرن الحادى والعشرين، ومن ثم فهو السبب فى تخلف الحضارة الإسلامية على حد زعمه.

فلا غرو أن نجد دعوة اليوم إلى تهويد حضارة الأندلس الإسلامية التى دامت ثمانية قرون حيث يدعى مستشرقوهم أن الحضارة الأندلسية من صنع اليهود فقد كان منهم الوزراء والأطباء والعلماء إلى غير ذلك من رجال يهود ساهموا بجانب المسلمين فى صنع الحضارة الأندلسية.

ومن العجيب فى هذا الصدد أيضًا أن أسبانيا التى عملت إبان محاكم التفتيش على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين تعود اليوم لتعتبر فترة الحضارة الإسلامية فى أسبانيا هى فترة من التاريخ القومى الأسبانى، فهل لهذا التنازع الأسبانى ما يبرره اليوم؟

وهكذا فإن الدروس والعبر من التاريخ مازال بابها مفتوحا أمام الإنسان المسلم يجدها فى تجاربه وفى نجاحاته وفى انتكاساته التى عانى منها منذ انتكاسة الأندلس.

المؤلف

الدكتور فتحى زغروت

٢٠١٠/١٠/١٠

الفصل الأول:

موجز لتاريخ الأندلس من القوة حتى الضعف

(عصر النشأة والتكوين)

أولاً: عصر الولاة من ٩٢-١٣٨هـ

ثانيًا: عصر الإمارة الأموية ١٣٨-٣١٦هـ

ثالثًا: عصر القوة «فترة الخلافة» ٣١٦-٤٢٢هـ



عصر النشأة والتكوين

إن مأساة الأندلس فى التاريخ الإسلامى تعد من النوازل الكبرى التى مرت بحياة المسلمين كالمآسى التى مرت وما زالت تمر فى تاريخنا وما أشبهها بمأساة المسلمين اليوم فى أفغانستان وأريتريا والفلبين والعراق وفلسطين. وهذه المآسى من السنن الكونية التى ينبغى أن يقف عندها المسلم ليأخذ العظة والعبرة، يقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ويقول فى آية أخرى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢] فالسنن الكونية تمر فى حياة الناس وقلما يعتبر معتبر.

إن بلاد الأندلس جنة الله فى أرضه دخلها الإسلام واستقر بها المسلمون ثمانية قرون متوالية، أقاموا فيها حضارة إسلامية فريدة امتد نورها إلى شعوب جنوب غرب أوروبا ومن ثم امتد إلى باقى شعوب القارة الأوروبية.

ومما يؤسف له أن ينتهى تاريخها هذه النهاية المؤلمة إذ طرد المسلمون منها شر طردة، ومن بقى منهم أكره على اعتناق المسيحية ونبذ الإسلام وكانت أية إشارة تدل على احتفاظه بدينه من لغة أو ملبس أو عادات وتقاليد إلى غير ذلك تقذف به لمحاكم التفتيش لتعذيبه ثم قتله.

إن تلك الحياة التى عاشها مسلمو غرناطة تحت نير ملك قشتالة لحياة كلها حزن وأسى وخيبة أمل ورجاء إذ افتقد المسلمون مملكتهم ولم يعد لهم وطن يحميهم وينعمون فيه بالأمن والطمأنينة منذ أن سلم الملك عبد الله الصغير مفاتيح مملكة غرناطة لملك قشتالة. وإنه لصغير حقًا؛ صغير فى همته وإرادته، وتروى المراجع أنه أخذ يبكى على ضياع مملكته وملك آبائه وضياع أمر المسلمين فقالت له أمه: ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال.

وكان السقوط هذه المرة هو سقوط لغـرناطة آخر معقل للإسلام إذ غادرها ذلك الملك ذليلاً صغـيرًا تاركًا أهلها المسلمـين لرحمة الأسبان الذين لم تعـرف الرحمة يومًا إلى قلوبهم سـبيلاً، وهكذا يسـدل الستار على الإسـلام فى الأندلس بعد أن قضى بها ثمانية قرون فكيف تم ذلك؟

ولكى نتعـرف على ذلك التاريخ ونقف على حقائق تلك الفـترة المؤلمة لابد أن نستعرض فى عجالة تاريخ الأندلس وأن نتتبعـه بمنهجية أفقية بدءًا من مظاهر القوة حتى مظاهر الضعف.





أولا: عصر الولاة من «٩٢-١٣٨هـ»

انطلقت الفتوحات من الجزيرة العربية وامتدت شرقًا وغربًا تدعو الناس إلى دين الله، وقد بلغت الفتوحات مداها إبان عصر الدولة الأموية فى القرن الأول الهجرى فقد واصلت جيوش المسلمين زحفها نحو الشمال الأفريقى حتى وصلت إلى المغرب العربى بقيادة القائد العربى المسلم موسى بن نصير الذى خاض بفرسه مياه البحر قائلا: والله لو أعلم أن وراءك أرضًا لخضتك مجاهدًا فى سبيل الله، وعندما تبين له أرض شبه الجزيرة الإيبيرية «أسبانيا» التى كانت تحت حكم ملوك القوط أرسل إليهم أحد قواده وهو طارق بن زياد الذى عبر المضيق المسمى اليوم باسمه فى رجب ٩٢هـ- ٧١١م وانتشر بجنوده من أقصى الجنوب زحفًا إلى الشمال يقاوم عناد القوط، وأراد الله أن يكتب للمسلمين النصر واستقر الأمر لهم فى هذه البلاد وضمت إلى المغرب وأصبح والى المغرب يحكم مصر والأندلس وهذا العصر هو ما يعرف بعصر الولاة.

وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين واليًا قاموا بالأمر تباعًا بالأندلس خلال تلك الفترة التى لا تبلغ نصف القرن وقد اتسمت تلك الفترة بالاضطراب وعدم الاستقرار، فالحكم الإسلامى كان لا يزال فى طور البدء لتلك البلاد ولم يكن قد أصاب حظا من الاستقرار المطمئن بعد. ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية التى تلوذ بها جماعات فارة متربصة، كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها فيما وراء البرانس، وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق فى تلك الفترة من حياتهم، فالعرب قد تفردوا بالسهول الخصبة وجعلوا منهم الولاة وغيرهم من حكام الأقاليم، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية وحرموا من الولاية ومن رياسات أخرى، وقد جاء العرب بأنفسهم إلى الأندلس بعصبياتهم القديمة بين عدنان

وقحطان، من هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والأسبان والفرنجة أولا وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانيًا. ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر. وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس فى تلك الفترة من أهل الحرب والحكم فى الجزيرة العربية.

وبدأت حقبة جديدة لتاريخ أسبانيا إذ رحب الأسبان بالمسلمين ليتخلصوا من الظلم والعسف الذى حل بهم من ملوك القوط السابقين، ومن هنا نرى تشبث الأسبان بدخول الجيش المسلم وترحيب أكثرهم بالإسلام لما وجدوا فيه من عدل وإنصاف وحق، ولما وجدوا فى قادته من أسوة حسنة. ولم تمض فترة قصيرة إلا وكان المسلمون يسيطرون على معظم البلاد الأسبانية واخترقوا جبال البرانس إلى جنوب فرنسا ولم يوقفهم إلا هزيمتهم فى معركة بلاط الشهداء مع شارل مارتل ملك الإفرنج. وبهذا توقف الزحف الإسلامى إلى قلب أوروبا بعد هذه الهزيمة المنكرة والتى استشهد فيها القائد المسلم عبد الرحمن الغافقى. وعلى مر السنين دخل الكثير من الأسبان فى الإسلام كما قلنا، وكثر التزاوج بين الفاتحين والأسبان ونشأ عن ذلك ظاهرة التوالد متمثلة فى ذلك الجيل الذى امتزجت دماؤه بدماء الأصول والذى ارتقى الكثير منهم فى مناصب الدولة العالية وصاروا يشكلون ظاهرة للإبداع الفكرى والحضارى عبر العصور أمثال ابن حزم فى الأندلس. كما نشأت تركيبة اجتماعية وعرقية خاصة فى الأندلس كانت سببًا فى نشوء الفتن والاضطرابات والتى يؤججها الفخر بالأنساب ما بين عرب قيسية ويمنية وبين العرب والأسبان وبين الأسبان بقسميهم المسلم والمسيحى، لقد كانت هذه التركيبة الاجتماعية والعرقية هى الوتر الحساس الذى كان يلعب عليه بعض المهاجرين من الشرق أو المطرودين من زعامات لم تجد حظها بين مسلمى الشرق فهاجروا إلى الأندلس وقد تمكنوا من قيام دويلات بها مثل الأباضية والصنهاجيين والفاطميين والأدارسة إلى غير ذلك من جماعات كان لها نصيب وافر فى التاريخ الاجتماعى للأندلس وانتهى بذلك حكم عصر الولاة.

قائمة بأسماء هؤلاء الولاة

	اسم الوالى	بداية الحكم	مدة الحكم
١	عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذو الحجة ٩٥هـ	سنة وسبعة أشهر
٢	أيوب اللخمى	رجب ٩٧هـ	ستة أشهر
٣	الحر الثقفى	ذو الحجة ٩٧هـ	سنتان وثمانية أشهر
٤	السمح بن مالك الخولانى	رمضان ١٠٠هـ	سنتان وشهران
٥	عبد الرحمن الغافقى الولاية الأولى	ذو الحجة ١٠٢هـ	شهران
٦	عنبسة الكلبى	صفر ١٠٣هـ	أربع سنوات ونصف
٧	عذرى الفهرى	شعبان ١٠٧هـ	شهران
٨	يحيى الكلبى	شوال ١٠٧هـ	سنتان ونصف
٩	حذيفة القيسى	ربيع الأول ١١٠هـ	ستة أشهر
١٠	عثمان الخثعى	شعبان ١١٠هـ	خمسة أشهر
١١	الهيثم الكلابى	المحرم ١١١هـ	عشرة أشهر
١٢	محمد الأشجعى	ذو الحجة ١١١هـ	شهران
١٣	عبد الرحمن الغافقى الولاية الثانية	صفر ١١٢هـ	سنتان وثمانية أشهر
١٤	عبد الملك الفهرى الولاية الأولى	شوال ١١٤هـ	سنتان
١٥	عقبة السلولى	شوال ١١٦هـ	خمس سنوات
١٦	عبد الملك الفهرى الولاية الثانية	صفر ١٢٣هـ	سنة وشهر
١٧	بلج بن بشر	المحرم ١٢٤هـ	١١ شهراً
١٨	ثعلبة العاملى	ذو القعدة ١٢٤هـ	عشرة أشهر
١٩	أبو الخطار الكلبى	رجب ١٢٥هـ	ثلاث سنوات
٢٠	ثوابة الجذامى	رجب ١٢٨هـ	ستة أشهر
٢١	عبد الرحمن اللخمى	المحرم ١٢٩هـ	ثلاثة أشهر
٢٢	يوسف الفهرى	ربيع الآخر	تسع سنوات وتسعة أشهر

أهم إنجازات عصر الولاة:

١- وضع حد للعصبية القبلية:

تميز هذا العهد بمحاولة نشر الدعوة الإسلامية وترسيخ قيم الإسلام ودعائمه بالأندلس، وقد تجلى هذا الهدف واضحا أمام أغلب هؤلاء الولاة الذين حرصوا على تسيير الحملات تلو الحملات إلى بلاد المسيحيين جنوب فرنسا وغيرها لنشر الإسلام، ومما يؤسف له أن الكثير من الجهود المادية والمعنوية قد ضاعت فى تلك الفترة المبكرة من عهد الولاة وشغلتها العصبية القبلية والحمية الجاهلية بين العرب أنفسهم ما بين مضرى ويمنى وكلبى وقحطانى إلى غير ذلك من عصبية قبلية لأمة الإسلام، وفى عهد الهيثم الوالى الحادى عشر للأندلس بدأت خصومة القيسية واليمنية والتى كان لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام فى الأندلس خاصة. ولكن الأمير عبد الرحمن الداخل فيما بعد استطاع أن يضع لهذه العصبية حدًا وأذابها فى المجتمع الأندلسى إذابة تامة.

٢- قادة جاهدوا من أجل نشر الإسلام:

لقد اتضح للمجتمع الأندلسى الجديد ثبات الإسلام فى نفوس أبنائه الذين دفعهم للجهاد عن بلدهم الحبيب ضد هجمات النصارى الأسبان وحكام فرنسا الذين كانوا يهدفون إلى طرد المسلمين واسترداد الأرض ولكن الأرض ثبتت فى أيدى المسلمين وقلوب المواطنين وتفتحت قلوبهم هداية للدين الجديد الذى عمل قادة المسلمين على انتشاره بين الناس بالقدوة والمثل الأعلى، وكان هذا هو الطريق الأسلم لنشر الإسلام فقد انتشر بالكلمة النيرة والحجة المقنعة لا بقوة السلاح كما يدعى البعض، وإن لم يكن كذلك لسرعان ما خرج أهل الأندلس الجدد من الإسلام ولكن هذا لم يحدث مطلقا.

وشهدت فترة حكم الولاة إرسال الغزوات فيما وراء جبال ألبرت وكان على رأس هذه الحملات «الحر بن مالك» حيث غزا جنوب غالة حتى أرابونه، وظل يغير على أهل هذه النواحى حتى اضطروا إلى طلب الصلح ثم جاء من بعده السمح بن مالك الذى وصل بجيوشه إلى طرسونة وعلى يديه نشطت حركة



الفتوح فيما وراء ألبرتات، وامتد نشاطه حتى روع أهل أقطانية وقد استشهد السمح مع من استشهد فى هذه الواقعة سنة ١٠٢هـ ولم تستطع فلول الجيش الإسلامى العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن أبو عبد الله الغافقى حيث اختاروه رئيسا عليهم وجمع شتات العسكر وتقهقر بهم حتى عاد إلى الأندلس.

ثم تولى بعد ذلك شئون الأندلس عنبسة بن سحيم الذى عجل بالنهوض للغزو فى غالة فغزا غالة وقرقشونة وشدد عليهما حتى نزل المحاصرون على شروطه فنزلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وردوا أسرى المسلمين وتعهدوا بدفع الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين فى حرب أعدائهم جنبًا إلى جنب(١).

ثم واصل عنبسة سيره وصعد مع النهر ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتون ونهبها وأحرقها ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس قريبًا من جنوب فرنسا، وقد ذكرت المراجع أن إيبون حاكم سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم.

ولعلك تلاحظ هنا أن هذه الحملة التى قام بها عنبسة لم تكن حملة بالمعنى العسكرى السليم بل هى غارة بعيدة المدى كما كان يفعل المسلمون الأوائل فى حملاتهم العسكرية، فكانوا لا يتقدمون إلى الأمام إلا بعد أن يقيموا معسكرات أو حاميات يقيم فيها بعض الجند لحراسة هذه الشعوب وضمان عدم ردتهم مرة أخرى، فكان ينبغى لنا أن نتذكر حملة عقبة بن نافع الكبرى حتى يتضح لنا أنه كان ينبغى على عنبسة أن يعمل على استقرار أمره فى ليون وأن يحافظ على ما وقع تحت يديه بإقامة معسكرات دائمة يرابط فيها الجيش للحماية والأمن وللحفاظ على ما بيده من مدن قد تم فتحها، فلو فعل ذلك لتمكن من فتح جنوب فرنسا كله بل لوصل إلى شمالها ولاستقرت معه البلاد المفتوحة.

وقد وقع فى نفس الخطأ أيضا عبد الرحمن الغافقى فى معركة بلاط الشهداء فقد كانت الحماسة الدينية والرغبة الجارفة للقتال فى سبيل الله هما الدافعين للجند

(١) انظر فجر الأندلس. الدكتور. حسين مؤنس. طبعة دار الرشاد ص٢١٠.

في هذه المعركة، وقد هزم المسلمون فيهـا هزيمة منكرة وعرفت هذه المعركة بمعركة بلاط الشهداء ومعناها «قصر الشهـداء» لأن المعركة كانت إلى جوار قصر أو حصن كبير، فقد قام عبد الرحمن الغافقى بغـارة كبرى كما فعل سابقه حتى تمت الهزيمة وكانت هزيمة مروعة حقا سنة ١١٤هـ.

وإن كانت هذه المعركة مأساة للمسلمين فإنها أشد بأسًا للنصارى الذين قالوا عن تلك المعركة أنها أنقذت حضارة غـرب أوروبا أو المسيحية من الإسلام ووضعت حدا لسيادة الشرق على الغرب، والواقع أن كل هذا الكلام الذى صدر منهم يعد من قبيل المبالغات ولا يقبلها الحكم التاريخى، فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين فى هذه المعركـة حكامًا عادلين، إنما حكمـوها بالعنف والقسوة والعناد وقـد شاء الله أن يحرمهم مـن نور الإسلام وهديه. ولك أن تتخيل أيهـا القارئ لو استقـرت الجيوش الإسلامية فى تلك البلاد ونـشرت الإسلام فيها لتغيرت أحـوالها وساد الإسلام غرب أوروبا وجنوبهـا، ولكان القرآن الكريم يدرس الآن فى جـامعـة أكسفـورد كمـا قال إدوارد جيبون. ولم يكن انهزام المسلمين فيها إنقـاذا للمسيحية كما يدعون، وإذا كان المسلمـون لم يتابعوا الزحف إلـى تلك البلاد فليس ذلك خـوفًا من قوة المسـيحـيين آنذاك؛ فالمسلمون قوم مجاهدون، الموت أحب إليهم من الحياة، والهزائم لا تعنى فى حسـابهم شـيئًا؛ فـهم لا يعـرفون الهـزيمة ولم تمنعـهم من العودة إلى تلك الـبلاد والإصرار على الفتح كما هو ظاهر فى تاريخ المسلمين، إنما الذى أوقفهم عن الزحف إلى هذه الجهة هو ما شجر بينهم من خلاف بسبب اللعب على أوتار العصبية القبلية.

٣- ظهور نزعة حضارية يغذيها الإسلام:

وقد يظن البعض بعـد هذا العرض من الفتوحات أن العرب قـد خلقوا للحرب والجهاد فقط بل هم أيضًا صانعو الحـضارات التى يغذيها الإسلام ويرفع من شأنها ويدفعهم إليها دفعا، فما من بلد دخله الإسلام إلا شهد تلك الحضارة فالسمح بن مالك الخولانى هو الوالى الرابـع على الأندلس والذى اختاره عمر بن عـبد العزيز واليا عليـها عـام ١٠٠هـ وأمره أن يقيم الحق وأن يتـبع العدل وأن يرعى مـصالح المسلمين، فنراه ينطلق بعض الشىء نحو التطور الحـضارى فينظم البلاد حتى تكون



مستقلة عن الشمال الأفريقى خاضعة للخلافة الأموية مباشرة، فقسم الأندلس تقسيمًا إداريًا حيث قسمها إلى كور ومدن وأقاليم، ويقال إن عمر رحمه الله هو الذى أمره ببناء القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبن حيث لا يجد له صخرا، ويصف الإدريسى تلك القنطرة التى علت القناطر فخرًا وعظمة فى بنائها وإتقانها وعدد أقواسها سبع عشرة قوسًا بين القوس والقوس خمسون شبرًا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرًا وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرًا ولها ستائر من كل جهة تستر العامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشى إلى وجه الماء فى أيام جفاف الماء ثلاثون ذراعا، وكان السيل يصل الماء منها إلى حلوقها وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجافية للرخام، وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء فى كل بيت منها أربع مطاحن ولها أهمية حيث تصل جنوب الأندلس بقرطبة والشمال الأفريقى(١).

هذا هو تاريخ المسلمين أينما حلوا.. نهضة وعمران وطواحين وسدود وجسور ومساجد، وإن القلب ليعتصر هماً حينما نقارن ذلك بما يفعله الغازون من الصليبيين فى العصور الوسطى أو الغازون منهم فى العصر الحديث، فهم يدمرون كل مظهر حضارى أو تراثى للأمم المغلوبة على أمرها والتى وقعت تحت وطأتها.

وعلى الرغم من تلك النهضة العمرانية إذا قيست بفترة الولاة والتى تقدر بستة وأربعين عاما والتى حكم فيها اثنان وعشرون واليًا فإن ذلك ليدل على عدم الاستقرار السياسى للحكام آنذاك فقد كانت وراءه العصبية القبلية والتعصب الطائفى الذى غالبًا ما كان يتسبب فى عزل الولاة بسرعة، فإن أمثال تلك الفترات لن تشهد حضارة أو تميزًا بخلاف بعض فترات الحكم التى طال فيها بعض الولاة وقد أمكنهم ذلك من التنظيم الإدارى وإقامة بعض المنشآت الحضارية والمعمارية كما قلنا سابقا.



(١) الأندلس. التاريخ المصور. طارق سويدان ص٦٢.

ثانياً: عصر الإمارة الأموية فى الأندلس

أ- بداية عصر الإمارة (١٣٨-٣٠٦هـ):

يمتد هذا العصر من عهد عبد الرحمن الداخل والذى يعد استمرارا لدولة بنى أمية حتى إعلان الخلافة فى عهد عبد الرحمن الناصر نحو قرن من الزمان كانت الأندلس فيه مستقلة سياسيًا غير خاضعة للخلافة العباسية إلا أنها ظلت مرتبطة بالمشرق ثقافيًا وأدبيًا وحضاريًا، فقد تمكن عبد الرحمن الداخل من تأليف القبائل اليمنية التى كانت ناقمة على هيمنة القبائل القيسية، وبمساعدة البربر استطاع أن يخضع الأندلس لسيطرته وأن يبايعه أهل الأندلس أميرا عليها. وقد اتخذ من قرطبة عاصمة له وبدأ ببناء وتوسيع مسجدها الشهير، وصارت محط أنظار العلماء ومهد الحضارة؛ استمرت السلالة الأموية فى حكم الأندلس حيث استطاع أمراء الأندلس من الأمويين الحفاظ على الإمارة من كيد الطامعين فيها أو من عبث المتظاهرين عليها، وقد ازدهرت الأندلس فى عصرهم ازدهارًا عظيمًا ملموسًا، وكان لعبد الرحمن الداخل بعض الأوليات فى الحكم صارت سببًا فى استقرار الأندلس حيث قضى أغلب سنى حكمه تقريبًا فى كفاح داخلى وجهاد خارجى، فقلل من شأن الارستقراطية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدثه نفسه بالثورة أو التمرد، وحاول أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية فى الأندلس ضد مسيحيى الأسبان والفرنج وذلك بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء المتربصين بالدولة.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحكم التى عانتها الأندلس من قبل، وقد شهدت هذه الفترة أيضا بعض الحروب وأعمال العنف، ولكنها كانت فى سبيل الاستقرار السياسى الذى خلف تقدمًا وأمنًا.



وكان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية حتى ذابت جميعًا فى بوتقة اجتماعية واحدة، ومن ثم نرى اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها فى عهد الخليفة الناصر، وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم بعده من أبنائه إذ كسر شوكة الارستقراطية العربية وعمل على كسر عصبية القبائل الكريهة وطارد الزعماء المناوئين للحكم أولا باستخدام كثير من الموالى والعرب حتى استقامت له طبقات المجتمع. كما ظهر فى تلك الفترة طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسى، تلك الطبقة هى طبقة المولدين إذ كثرت تلك الطبقة بمضى الزمن واستمرار الدخول فى الدين الجديد، ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأكثرية المسلمة حينئذ وصبغ الحياة الأسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة.

وقد شهدت تلك الفترة أيضا « فترة تأسيس الإمارة الأموية هذا التقدم الحضارى الذى خطت نحوه الأندلس مثل أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها عبد الرحمن الداخل وأبناؤه من بعده. وهكذا أصبح المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة مجتمعًا مستقرًا نسبيًا، فهو يحيى حياة أكثر أمنًا فى ظل حكومة قوية مدعمة أكثر وحدة فى حمى نظام حارب القبلية والعصبية، وفتح الطريق للحياة الأندلسية الحقة، ثم فتح المجتمع الأندلسى إبان تلك الفترة عينيه على بواكير حضارة أراد الأمويون أن يعيدوا بها فى الأندلس حضارة فقدوها فى المشرق.

ب- فترة صراع الإمارة (٢٠٦-٣٠٠هـ):

حكم هذه الفترة من تاريخ الأندلس أربعة من أمراء بنى أمية الأندلسيين هم عبد الرحمن الأوسط ثم ابنه محمد ثم حفيداه: المنذر وعبد الله بن محمد، وتبدأ هذه الفترة من سنة «٢٠٦-٣٠٠هـ»، «٨٢٢-٩١٢م».

وأهم ما تمتاز به تلك الفترة هو الصراع فى سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة التى تعرضت لعدد من الأحداث يأتى بعضها من الخارج وقد يأتى بعضها الآخر من الداخل، ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة فى سنيها التى

حكم فيها عبد الرحمن الأوسط، وقد كانت أوقات ازدهار حقيقى ولكن الإمارة شقيت فى سنيها الأخيرة وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد حتى أوشكت فى عهده على السقوط، وقد شهدت بعض الثورات المحلية وبعض الفتن الداخلية بين المضرية واليمنية واعتداء بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ولكن كانت حكومة قرطبة قوية وجيشها قوياً استطاعت تأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن الداخلية واستطاعت تلك الجيوش القوية أيضا فى عهد عبد الرحمن الأوسط أن تصد تقدم النورمان(١).

وفى عهد الأمير محمد شهدت البلاد حركة ثورية كلفت الإمارة الأندلسية الكثير من الجهد والرجال والأموال، وظلت شوكة فى جانب الحكومة حتى أوائل الفترة التالية وهى لا تفتأ تقاوم تلك الثورة وثائرها عمر بن حفصون الذى اعتصم بجبل بوبشتر وتجمعت حوله الثوار يقاومون الحكومة الأندلسية.

وقد شهدت البلاد فى عهد الأمير عبد الله ظهور حركتين خطرتين هددتا وحدة الأندلس وحكومتها القرطبية.

الحركة الأولى: وهى الحركة العنصرية التى كانت بين تكتل العرب تحت زعامة إبراهيم بن حجاج وهو من عرب أشبيلية ووقوفهم فى وجه المولدين الذين يتكتلون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف فى وجه العرب، وقد كانت أشبيلية وغرناطة من أكبر مراكز هذه الحركة.

أما الحركة الثانية: فهى حركة انفصال حاول بها بعض المغامرين الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس مستغلا الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ(٢).

كما شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة حركات إصلاح وعوامل تقدم فى عهد عبد الرحمن الأوسط دفعت بالأندلس مراحل عظيمة فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى وقد ساعد على ذلك:

---

(١) انظر هجوم النورمان على الأندلس فى البيان المغرب ج٢ ص١٣٠ وما بعدها، وابن خلدون ج٤ ص١٢٩.
(٢) انظر المقتبس لابن حيان ص٩ وما بعدها.

- الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط.
- تحمس الأمير الأموى أيضا للإصلاح وميله إلى النهوض بالأندلس لينافس بها خلافة العباسيين بالمشرق.
- ازدهار اقتصاديات البلاد إذ زاد دخل الأندلس إلى درجة الرخاء[١].

وقد كان من أهم عوامل التقدم فى عهد عبد الرحمن الأوسط قدوم زرياب الموسيقى من المشرق الإسلامى إلى الأندلس، وقد أحدث فى مجتمعها انقلابًا هائلاً بما أدخله من عادات جديدة وبما أشاعه من تقاليد راقية، وقد كان له دور عظيم فى إشاعة الفن والموسيقى والغناء فى الأندلس، فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم تلك الفنون وكان يأخذ تلاميذه بمنهجه الدقيق لتعليم الموسيقى والغناء المشرقيين، واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعها وشخصيتها المميزتين لها، وقد صاحب الغناء والموسيقى انتشار مستحدثات اجتماعية وفنية شاعت فى المجتمع الأندلسى على يدى زرياب منها حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة كما ظهر التورط فى اللهو والمجون وقد ساعد على ذلك تحسن الأحوال الاقتصادية وتحرر بعض الأمراء وانتشار الكروم والترخص فى صناعة الأنبذة وشربها مع كثرة شراء الفاتنات المشرقيات أو الأسبانيات ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة.

وقد تميزت هذه الفترة باتساع ثقافى كان من أسبابه:

- تعلق بعض الأمراء بالعلم والمعرفة ومشاركاتهم فى ميادين الثقافة، فقد كان عبد الرحمن الأوسط محبًا لقراءة كتب الطب والفلسفة كما كان مقربًا للعلماء مؤثرًا للباحثين باعثًا فى طلب الكتب حيث كانت تجلب له من الأمصار، وقد ذكرت بعض المراجع أنه أرسل عباس بن ناصح إلى المشرق ليبحث له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة[٢].

---

(١) انظر هذه الإصلاحات نفح الطيب للمقرى ج١ ص١٦٢، ١٦٣. والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص١٣٦.
(٢) انظر نفح الطيب للمقرى ج١ ص١٦٢. والمغرب لابن سعيد ص٤٥.

كما كان الأمير عبد الله رغم سوء الأحوال السياسية فى عهده محبا للعلم مشاركا فى الاشتغال به، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين، وقد قال ابن حيان عنه: «إنه كان متصرفا فى الفنون متحققا منها، عالما بلسان العرب بصيرا بلغاتها وأيامها حافظا للغريب والأخبار».

- وكان من أسباب الاتساع الثقافي أيضا ما حمله بعض المشارقة إلى الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم إبان زيارتهم للمشرق، ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية للأندلس فى تلك الفترة إبراهيم بن أحمد الشيبانى المعروف بأبى اليسر الرياضى حيث التقى بجلة من العلماء أخذوا عنهم العلم والأدب ثم ارتحل إلى المغرب فسكن القيروان ووفد أيضا على الأندلس فى عهد الأمير محمد[١].

كما كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه فى تلك الفترة محمد بن عبد السلام بن ثعلبة، وقد دخل البصرة وأخذ عن علمائها ثم اتجه إلى قرطبة، وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين شعر الجاهلية. وكان من نتائج هذا الاتساع الثقافى ظهور كثير من علماء الأندلس فى شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية، وكذلك ظهور طلائع الأندلسيين فى العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية. كما ظهر فى تلك الفترة أول مؤرخ أندلسى وهو عبد الملك بن حبيب الذى درس فى ألبيرة وقرطبة ثم رحل إلى المشرق وتردد على علمائه ثم عاد بعد ذلك إلى بلاده ولقب بعالم الأندلس[٢].

وكان من مظاهر هذا الاتساع الثقافى فى تلك الفترة ظهور أوائل أطباء الأندلس مثل أحمد بن إياس وحمدين بن أبان وكذلك ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين، كما ظهر فى تلك الفترة العالم الطيار عباس بن فرناس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس، وأول مخترع للآلة المعروفة بالميقات وهى ساعة مائية لمعرفة الأوقات كما يعد الرائد الأول الذى حاول الطيران إذ صنع جناحين وركبهما على جانبيه ثم طار بهما حينًا وكانت تلك التجربة الأولى فى عالم الطيران.

---

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج٢ ص١١٥.

(٢) الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٢٦.

ثالثًا: عصر القوة «فترة الخلافة»

«٣١٦- ٤٢٢هـ»

تعد هذه الفترة من أزهى فترات الحكم فى الأندلس وهى تبدأ منذ أن اتخذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله سنة «٣١٦هـ- ٩٢٩م» وتنتهى بسقوط آخر أموى فى قرطبة وقيام ابن جهور بالأمر سنة «٤٢٢هـ- ١٠٣١م»[١].

وقد يرى بعض المؤرخين أن فترة الخلافة الحقيقية فى الأندلس تتمثل فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقط. على أى حال فقد شهدت تلك الفترة قوة النفوذ وهيبة الحكم وكان ذلك بفضل ذلك الرجل العظيم عبد الرحمن الناصر أو الثالث -كما يقولون- إذ حول نظام الحكم فى الأندلس من إمارة إلى خلافة إسلامية استمرت طوال عصره وعصر ابنه الحكم الثانى من بعده والذى نهج نهج أبيه فى تدعيم أسس الخلافة وتقوية دعائمها.

لقد تولى عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة «٣٠٠هـ- ٩١٢م» فى ظروف قاسية إذ كانت البلاد نهبًا للطامحين والطامعين من عرب وبربر وأسبان، وقد عانى الأمير عبد الله من هؤلاء الثائرين عليه حتى أصبح الكثير من أقاليمها مستقلا عن الإمارة حتى أوشكت الإمارة أن تضيع منهم. ولكن الله قد قيض لهذه الإمارة شابًا قويًا هو الأمير عبد الرحمن الناصر إذ تولاها والظروف قاسية وكان آنذاك قد جاوز الاثنين والعشرين عاما والتزم سياسة الحزم والقوة والتضحية، وتغلب على الأخطار التى تحيط به بكل جرأة وشجاعة فأخضع الثائرين لسلطانه وعادت أغلب الأقاليم تحت إمرة هذا الشاب الأموى القوى[٢].

(١) الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٨١.

(٢) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٣٤ وما بعدها. وكتاب العبر لابن خلدون ج٤ ص١٣٧ وما بعدها.

هذا على الصعيد الداخلى فى الأندلس حيث تم له الأمر تمامًا وقضى على كل الثائرين والمناوئين لحكمه.

أما عن علاقات الخليفة عبد الرحمن الناصر الخارجية فقد كان يواجهه خطران كبيران كان لابد أن يتغلب عليهما وهما:

الخطر الأول: وهو خطر المسيحيين الأسبان فى الشمال إذ قويت شوكة هؤلاء المسيحيين وتكونت لهم ممالك شمال المملكة تهاجم الدولة الإسلامية، وهى مملكة ليون ومملكة نافارا وهما يمثلان خطورة شديدة على دولة الخلافة الفتية التى يقودها الخليفة عبد الرحمن الناصر.

الخطر الثاني: وقد كان جنوب الأندلس حيث ظهرت الدولة الفاطمية الناشئة ومكنت لنفسها في الشمال الأفريقي واستطاعت أن تقيم دولة قوية عاصمتها القيروان، وهى دولة تواجه دولة الأمويين فى الأندلس وتعمل على محو آثارها فى الشمال الأفريقي بأكمله، فقامت بطرد العناصر الموالية لعبد الرحمن الناصر، وانتشرت جيوشها تؤمن الحدود الشمالية للدولة وجابت أساطيلها البحر المتوسط شرقه وغربه ثم بدأ يتطلع الفاطميون للسيطرة على بلاد الأندلس.

ولكن هذا الفتى الخليفة الأموى الذى اتسمت سياسته الخارجية بالحكمة والرزانة وحسن المعاملة استطاع أن يتعامل مع هذه القضية بحكمة، فقام أولا بمواجهة المسيحيين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين عن ملكه فجرد لها حملات أخفق فى بعضها ونجح فى بعضها الآخر وحقق انتصارات عظيمة حيث كان يقود المعارك بنفسه فكبر فى عين أعدائه وهابته الأعداء حتى وقعوا معه معاهدات تعهد له بعضهم بدفع الجزية، وأقام علاقات محبة وود مع بعضها الآخر إذ استعان به بعض النصارى على تولى عرش مملكته كما فعل سانشو ملك ليون[1].

ويعد هذا الخطر السابق ذكره من أصعب الأخطار التى واجهتها الخلافة الأندلسية الناشئة، فكان عليه أن يواجه الشيعة الفاطميين الذين طمعوا فى بلاده

(١) انظر الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٨٤.



ويكل وسائل المواجهة وعلى كل المستويات: السياسية والحربية والمذهبية والاقتصادية والثقافية، وقد استعد الناصر لهذه المواجهة الشاملة التى ظلت خمسين عاما على وجه التقريب واجه فيها الناصر أربعة من الخلفاء الفاطميين هم الخليفة المهدى والقائم بأمر الله والمنصور ثم المعز لدين الله الفاطمى. وصارت القضية على المستويين الإقليمى والدولى قضية صراع بين أهل السنة والجماعة فى قرطبة بالأندلس وعلى رأسهم الخليفة عبد الرحمن الناصر السنى المالكى المذهب بينما كان على الطرف الآخر فى الشمال الأفريقى بمدينة القيروان الخلافة الشيعية الإسماعيلية التى يدين بها «بنو عبيد» والذين أطلقوا على أنفسهم «الفاطميين» وقد حاولوا تشييع الأندلس حتى يكون تابعا لخلافتهم الشيعية.

ولعل الخطوة التى خطاها عبد الرحمن الناصر فى تحويل الإمارة إلى خلافة كانت هى خطوة المحك التى ساعدت على اشتداد الصراع بين الطرفين، فقد رأى الخليفة الناصر ضعف الخلافة العباسية بالعراق فى أيام المقتدر، وأحس بخطر الشيعة بالقيروان فى الجهة المقابلة له فسارع إلى تحويل الإمارة إلى خلافة وتلقب بالناصر لدين الله وذلك لتكتسب عاصمته هيبة الحكم وقوة النفوذ فى المنطقة(1).

وقد حاول كل من الطرفين نهج سياسة التحالف القبلى واستقطاب بعض العناصر التى تعمل له، فاستقطب الناصر بنى خرز وبنى العافية الذين صارا حليفين له فى الشمال الأفريقى يعملان ضد الفاطميين بينما قام الفاطميون بدعم الثورات ضد الأمويين فى الأندلس مثل ثورة بن حفصون وثورة الداعى أبى الخير، كما اتجه كل من الطرفين لتدعيم سياسته الخارجية ضد الآخر على الصعيد العربى والدولى، فاتجه الفاطميون نحو مصر بوابة المشرق الإسلامى يدعون للقضية الفاطمية ويستميلون الحجازيين ليصلوا لرعاية الحرمين الشريفين، لذلك نرى الأمويين يلاحقون الفاطميين فى هذا المجال باستمالة حكام مصر وتنشيط المقاومة المالكية والطعن فى نسب الفاطميين.

(1) انظر بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى. تحقيق روحية عبد الرحمن السويفى ص٢١.

كما اتجه الطرفان المتصارعان لاستقطاب الروم بجانب كل منهما، وكان لهذا التصرف أثر سيئ على القضية الإسلامية آنذاك حيث توقفت حركة الجهاد البحرى للمسلمين سواء من جانب الأمويين أو الفاطميين كما سقطت جزيرة أقريطش فى أيدى الروم.

وحاول الطرفان دعم سياسته ببناء الجيوش والأساطيل، فكان لكل من الطرفين أسطول ضخم لحراسة الحدود من جهة والسطو على شواطئ الآخر من جهة أخرى دون أن نسمع بتوجه أسطول أحدهما إلى الروم ولو مرة واحدة.

وقد شهد الطرفان إقامة اقتصاد قوى فى المغرب والأندلس حيث كانت العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الشعبين فى الأسواق الكبرى علاقات نشطة ساهمت في نمو الاقتصاد الأموى والفاطمي كما شهدت ازدهارًا لبعض الأسواق الكبرى فى المنطقة كسوق القيروان وفاس والمرية وغيرها من أسواق.

كما شاهدت هذه الفترة صراع الطرفين على المستوى الرسمى والحكومى للسيطرة على مناطق تسويق الذهب بدءًا من مراكز استخراجه بالسودان الغربى مثل ذهب غانا وذهب يرسنى وسجلماسة، كما حاول كل من الطرفين السيطرة على الطرق الكبرى فى المنطقة كالطرق التجارية البرية فى الصحراء والطرق البحرية والموانى وذلك فى المغرب الأقصى وحول مضيق جبل طارق وموانئ الساحل الأندلسى.

وقد شهدت هذه الفترة أيضا وثبة ثقافية رائعة لدى الطرفين المتصارعين حيث ظهر التأثير والتأثر والاحتكاك المباشر فى شتى العلوم الدينية والكونية والمادية، كما كان هناك نوع من التبادل فى المؤلفات بشتى أنواعها وكذلك تبادل فى الزيارات بين رجالات المذهب السنى والشيعى.

وقد استطاع الفاطميون النجاح فى تسريب التشيع ذلك بعض الشىء إلى الأندلس إذ تشيع بعض الأدباء والفقهاء ولكن كان على نطاق ضيق حيث قاوم الناصر وأهل السنة والجماعة التشيع فى المغرب ثم اشتدوا فى مقاومته فى الأندلس



بكل وسائل المقاومة وذلك بالمقاطعة الفردية والجماعية وبث الوعى فى جماهير أهل السنة وإقامة المناظرات بين فقهاء السنة والشيعة والتى استفاد منها الكثيرون مثل الحديث عن مفهوم الولاية والتوريث وشارب الخمر وتراويح رمضان إلى غير ذلك من القضايا المختلف عليها بين أهل السنة والشيعة(١).

والحقيقة أن تلك الفترة من الصراع كانت من أخصب الفترات التى مرت بالأندلس إذ ساهم ذلك الصراع فى تنشيط الجوانب الثقافية والفكرية والجمالية، وبدأ الأندلس يشعر بشخصيته وهويته وبقوميته فينافس المغرب نداً لند وينافس المشرق حينا آخر، وترى هذه المنافسة الرائعة فى كتب الأدب وقصائد الشعر وكتب المؤرخين التى تتعرض لهذه الفترة من حياة الأندلس، ولا غرو فى ذلك إذ حاول كل خليفة أن يشجع الشعراء الكبار ويستقطب العدد الأكبر من العلماء المتخصصين فى مختلف المجالات العلمية والأدبية ليزين بهم بلاطه ويضفى على عاصمته البهاء والعظمة والإجلال.

ويبدو أن تلقب الخليفة الناصر بلقب الخلافة هو الذى أشعل الصراع وأثار سخيمة الفاطميين الذين نظروا إلى حكومة الأمويين فى الأندلس على أنها إمارة يسهل التغلب عليها ثم ضمها إلى الدولة الفاطمية الناشئة ولكن خاب ظنهم بتلقب عبد الرحمن الناصر بلقب الخلافة ليصير فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات متصارعة على الحكم كل منها تدعى أنها تعمل لصالح الإسلام والمسلمين.

وقد حاول بعض المصلحين التوسط لدى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى والخليفة عبد الرحمن الناصر فى محاولة للوفاق وإتمام الصلح بينهما وإحلال الوفاق محل الخصام، وقد سعوا وبذلوا الجهد تلو الجهد ولكن تلك المحاولات وصلت إلى طريق مسدود وباءت بالفشل، وذلك بسبب تمسك كل منهما بأحقية الخلافة وزعامة العالم الإسلامى فكل منهما حرص على كرسى الملك وعلى سرير

(١) انظر هذا الصراع فى كتاب العلاقات بين الأمويين والفاطميين فى الأندلس والشمال الأفريقى لصاحب هذه الأسطر الدكتور فتحى زغروت. دار التوزيع والنشر الإسلامية. القاهرة.

الخلافة وفضل مصلحته الخاصة على مصلحة المسلمين العامة، وهذا يتضح من خلال تصفح بنود الصلح التى وردت فى تلك المحاولة(١).

ثم مات الخليفة الناصر ذلك الرجل العظيم سنة « ٣٥٠هـ- ٩٦١م» وخلفه ابنه الحكم الثانى «المستنصر» الذى سار على نهج أبيه وحافظ على هيبة الخلافة(٢).

وأهم الأعمال التى ظهرت فى عصر الخليفة الحكم والتى كان لها أثرها فى بقاء هيبة الخلافة بعد أبيه محاولة بعض الملوك المسيحيين نقض العهد الذى أبرموه مع الخليفة الناصر ومنهم ملكا ليون ونافارا إذ رفضا تسليم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل، وليس هذا فقط بل أغار ملك قشتالة على حدود الدولة الإسلامية فأمر الخليفة الحكم «المستنصر» قواده بتعبئة الجيوش وقادها بنفسه وأذل ملوك النصارى الخارجين على العهد وأدب أمير قشتالة المعتدى مما اضطره إلى الفرار.

وقد علت سمعة قرطبة فى عصره وهابه النصارى وكانوا يلجأون إليه فى كثير من خصوماتهم إذ وفد على الخليفة الحكم أمير أراجون الذى أعاده إلى عرشه انتقامًا من ملك ليون ثم أعاد الحرب مرة أخرى مع بعض ملوك المسيحيين حتى اضطرهم إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط السلم التى اشترط فيها هدم الحصون القريبة من حدود المسلمين وأن يتعهد ملوك المسيحيين ألا يساعدوا ثوارًا ضده وألا يتحالفوا أو يعودوا لمحاربة الخليفة.

أما الفاطميون فقد قل خطرهم أيام الخليفة الحكم إذ اتجه جل نشاطهم العسكرى والدعوى نحو فتح مصر حيث تم توجيه الدعاة إليها ثم أسسوا القاهرة سنة ٩٦٩م وانتقل إليها المعز لدين الله ٩٧٢م، فانشغلوا بذلك عن الأندلس وقد ترك المعز نائبًا عنه على أفريقيا والمغرب بينما كان الأدارسة مذبذبين، فمرة يرتمون

(١) انظر تلك البنود فى كتاب الدكتور فتحى زغروت «العلاقات بين الأمويين والفاطميين».

(٢) انظر فى ترجمته وأعماله البيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٨ وما بعدها، وابن خلدون كتاب العبر ج٤ ص١٤٤ وما بعدها.



في أحضان المعز ومرة أخرى فى أحضان الأمويين فأرسل الخليفة الحكم جيشًا إلى المغرب سنة ٩٧٢م استطاع أن يحرز نصرًا كبيرًا على الأدارسة وعاد إلى قرطبة ومعه بعض أمراء الأدارسة أسرى، فظلت الأندلس حتى ٣٦٦هـ- ٩٧٧م دولة قوية مهابة شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم. وقد عاش الأندلسيون طوال فترة الخلافة الأموية منذ عهد الناصر إلى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر فى ظلال من الرفاهية نعم بها الجميع حيث استقرت البلاد أعظم استقرار أدى بالأندلسيين إلى التفرغ للعمل المثمر والإبداع الفنى فى شتى مجالات المعرفة ولم لا؟ وقد قضى الناصر على كل الزعامات المناوئة له فى الداخل والخارج وكذلك الزعامات العربية المناصرة للفتنة العنصرية بين العرب وكذلك البربرية التى كانت تثور دائما بسكان الأندلس وتستقل بأجزائها، لقد انتهى كل ذلك، ومن هنا رأينا اتفاق الجميع على الاندماج فى المجتمع الأندلسى الكبير اندماجًا امتزجت معه عناصره واختفت عنصريته «عربية -أسبانية- بربرية» وبرزت صورة واضحة لأمة واحدة مؤتلفة هى أمة الإسلام التى هى خير أمة، وبذلك شاع الاستقرار واستتب الأمن وانتشرت الطمأنينة ونتج عن ذلك وفرة فى الدخل القومى وارتفاع فى مستوى المعيشة ورخاء للدولة والأفراد جميعًا، وقد ذكر المؤرخون أن إيراد الدولة زاد ازديادًا عظيمًا حتى بلغ ما يجبى للأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، كما بلغ ما يجبى فى الأسواق سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار[١]. وقيل أيضا أن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار[٢].

كما عرفت تلك الفترة نهضة عمرانية عظيمة إذ كان الناصر مولعًا بالبناء، محبًا للتشييد، وقد تم فى عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد، وقد وصلت قرطبة فى فترة خلافته إلى ذروة جمالها وأناقتها وعمرانها فازدحمت بالقصور وزينت بالحدائق وجملت بالنافورات الكثيرة وزودت بالحمامات الوثيرة،

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ص١٧٧. والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٥.
(٢) نفح الطيب ص١٧٧.

وقد شيد بهـا أكثر من خمسين ألف قصر لرجـال الدولة وأكثر من مائة ألف بيت للعامة من الناس وأن مساجدها بلغت تسعمائة، وحماماتها سبعمائة حمام[١].

هذا فى وقت كانت أوروبـا تعيش فى عصـر الجهل والتخـلف والمرض فهم لا يعرفون الحـمامات ولا يفهمـون معنى النظافة، وكان من أعظم الأعمـال الإنشائية للناصر هى مدينة الزهراء التى بناها شمال قرطبة وجـعل بها قصراً للخلافة وبيوتًا لرجال الحكومة ومساكن للحرس والجند ومسجدا للصلاة والتعليم.

كما كان قصـر الخلافة فى قرطبة غاية فى الجلال والجمـال ودقة فى الفن، فقد جلب الناصر أعـمدة بنائه ورخامـه وتماثيل زينته ومواد زخـرفته من القـسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا. وكان للخليفة فى قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب لأن قبـته وحيطانه قـد صفحت بهـذا المعدن النفيس، وقـد جعل فى هذا المجلس حـوض أقيـمت عليـه تماثيل من الذهب المرصع وهى فى صـور الأسـد والغزال والتمساح والثعبان.. إلخ[٢].

وقد ينشغل الإنسان بتلك النهضة العمـرانية الرائعة والتى قد تنسيه ربه أحيانا أو قد تنسيـه تعاليم دينه فيتهاون فى عـبادته لله أو ينشغل بالعمران عن خـالقه، فهل كان الخليـفة الناصر من أولئك الناس؟ نعرف هذا من خـلال المحاورات التى دارت بين الناصر وابنه الحكم من ناحية وبينه وبين الفقيه منذر بن سعيد من جهة أخرى، وكان هذا الفقيه قـد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييـد الزهراء حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات، وكان مما انتقد به الخليفة منذر بن سعيد، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٧- ١٢٩] فغـضب الناصر وأقـسم ألا يصلى الجمـعة وراء منذر وكـان قاضى مسجد الزهراء، وشرع يصلى وراء قاضى الجماعـة بمسجد قرطبة. وقد قال الناصر

(١) نفح الطيب ج١ ص٢١٣ وما بعدها، والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٥،٣٤٦.

(٢) انظر نفح الطيب ج١ ص٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٥ وما بعدها.



لابنه فى ذلك: «والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، وأسرف علىّ وأفرط فى تقريعى وتفزيعى. ولم يحسن السياسة بوعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى». فقال الحكم: «فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟» فزجره الناصر وقال: «أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير قصد؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيعًا مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكنه أحرجنى فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى فما أظننا نعاض منه أبدا»[1].

ومن المحاورات الطريفة تلك المحاورة التى دارت بين الناصر ومنذر نفسه، فكان الناصر قد أبدع فى تزيين قبة من الذهب والفضة حتى جعلها تخطف الأبصار، وسأل ذات يوم جلساؤه من الوزراء والحاشية عنها، فأكبروا صنعه وأثنوا عليه ثم دخل عليهم منذر بن سعيد فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره فقال له: «يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان -لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من نفسك هذا التمكين مع ما أتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين» فانفعل الناصر وقال له: «انظر ما تقول وكيف أنزلتنى منزلته» فقال له منذر: «نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] فوجم الخليفة وأطرق ثم قال: «جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين لأجل ذلك، وكثر من أمثالك فالذى قلت هو الحق»[2].

---

(١) انظر هذه المحاورات فى نفح الطيب ج١ ص١٧٥، ١٧٦، ٢٦٦، ٣٦٧.

(٢) المصدر السابق ج١ ص٢٦٨ وزاد فى هذا المصدر «أن الناصر قام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وأمر بنقض سقف القبة».

كمـا شهدت فتـرة الخلافة وثبة ثقـافية وحضـارية رائعة لا مثيل لهـا، كان من مظاهرها ظهور شخـصية الأندلس العلمية والحـضارية وقوتها واستقـلالها إلى حد كبير، وقـد ساعد على هذه النهضة ما تنعم به الأندلس من وحـدة واستقرار وأمن ورخاء وتحضر ورقى. . كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ويساعد على قيام مسـتوى علمى رفيع حيث وهب الله لقرطبة فى هذه الفترة خلـيفتين ما ادخرا جهدًا فى إثراء حياة المسلمين بل بذلا الجهد أقصاه لصنع ثقافة إسلامية تسود البلاد وترفرف على أبنائها بالأمن والطمأنينة، وبذلـك صارت قرطبة مركزا للعلوم والآداب وكثـر الإنتاج العلمى وشاعت المعـرفة بألوانها المختـلفة وشجعـوا علماء المشرق فى الرحـيل إلى الأندلس. وجلبوا الكتب القيمـة من شتى أقاليمـه وحثوا على البـحث والتأليف فى كل الفنون، فنرى الناصـر يحسن اسـتقبـال «أبى على القـالى» الذى وفـد من المشـرق وأسند إليـه تأديب ابنه الحكم كـمـا كـان يعلم الأندلسييـن فى قرطبة[1]. وقد حمـل القالى إلى الأندلس كثيـرا من علم المشرق وأدبه فنقل مجمـوعة ضخمة من دواوين شـعراء الجاهلية والإسلاميـين مثل امرئ القيس وزهير والأعشـى والنابغة والخنساء وابن أبى ربيعة وجمـيل وكثير والأخطل وجرير والفرزدق هذا بالإضـافة إلى الكثير من كتب الأخبـار واللغة التى ترجمت لإثراء الحياة الثقافية الأندلسية خلال تلك الفترة.

أما الخليفة الحكم بن الخليـفة عبد الرحمن الناصر فقد ظهـر ولعه بالكتب وحبه الشديد للعلم والثقـافة والقرب من العلماء مثل أبيه فى حـبه للعلم والعلماء. فلم يجمع أمير من الكتب مثل الذى جمعه ذلك الرجل؛ فقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألـف مجلد حيث كان يحرص على جـمع الكتب ويدفع لها أغلى الأثمان من أجل أن يقتنيهـا فى مكتبته، كما فعل مع أبى الفرج الأصـفهانى حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر فى بغداد.

(١) انظر نفح الطيب ج٢ ص٨٤ ـ ٨٦.

وقد كان الحكم على دراية عظيمة بتأليف الكتب فكان يشجع العلماء على التأليف ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات مثلما اقترح على الخشنى تأليف كتابه «قضاة قرطبة»، كما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه «طبقات النحويين»[1].

بل كان يفسح لبعض المؤلفين مكانا فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد به إليهم من مؤلفات كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتابا فى أشعار خلفاء بنى أمية بالمشرق[2]. وهكذا نهضت الأندلس نهضة علمية فى فترة الخلافة حيث وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع العلم والمعرفة كما قلنا.

وكان من نتائج النهضة الثقافية ظهور الشخصية العلمية فى الأندلس فمثلا فى الميدان اللغوى نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس وذلك بعد قدوم أبى على القالى الذى وفد إلى الأندلس سنة ٣٤٠هـ، والذى ألف كثيرا فى الدراسات اللغوية وأملى على طلبته من الأندلسيين كتابه «الأمالى»، ومن ثم ظهرت بعد ذاك الدراسات اللغوية وبرز عدد من العاملين فيها مثل الزبيدى الذى ألف مختصر كتاب العين، وألف كتاب طبقات النحويين وكتاب الأبنية فى النحو والواضح فى العربية، وممن عرفوا بالدراسات اللغوية أيضا فى تلك الفترة أبو بكر بن القوطية الذى ألف كتاب تصاريف الأفعال وكتاب المقصور والممدود.

وظهر فى الحقل التاريخى كثير من علماء الأندلس فى عصر الخلافة مثل أحمد ابن محمد بن موسى الرازى وكتابه المشهور آنذاك أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم ونكباتهم[3]. ومن مؤرخى هذه الفترة أبو بكر بن القوطية، ومن الكتب المشهورة فى تلك الفترة كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول وهو يتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر. ومن المؤرخين أيضا عريب بن سعد الذى كان يعمل فى ذمة الحكم المستنصر ومن أشهر كتبه «صلة تاريخ الطبرى» وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيبًا أيضا. ومن كتاب التراجم فى تلك الفترة عبد الملك بن عبد

(١) انظر الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٩١.
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق.

البر القرطبى الذى ألف كتابا عن فقهاء قرطبة وابن الفرضى الذى ألف كتابا فى تاريخ العلماء ورواة العلم فى الأندلس، ومن أشهر المترجمين الذين عرفوا فى تلك الفترة أبو عثمان بن عبد البر الكشكيانى ومحمد بن هشام المروانى.

ومن تتمة الأمر فى هذا المجال الثقافى ما قام به الخليفة الحكم المستنصر من تلك الوثبة الثقافية التى تعد من أفضل أنواع الثقافات التى سمعنا بها فى التاريخ، أقول إنصافا لهذا الخليفة المولع بالكتب والمكتبات أن نعطى للقارئ لمحة عن مكتبته فى قرطبة، تلك المكتبة الأموية التى قامت بدور فى نشر العلم والمعرفة فى جنوب غرب أوروبا[١]. وأخيرًا توفى الخليفة الحكم المستنصر الذى تولى الخلافة بعد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر وبموت الخليفة الثانى تولى الخلافة خلفاء ضعاف صغار السن عين عليهم المنصور بن أبى عامر وصيًا وحاجبًا، وقد استأثر بالسلطة، ثم جاء بعده ابنه المظفر وأخذت الخلافة يتصارع عليها العرب من ناحية والبربر من ناحية أخرى والأمويون أصحاب الخلافة من جهة ثالثة حتى أعلن بن جهور سقوط الخلافة فى قرطبة عام ٤٢١هـ وأضحت البلاد نهبا لدويلات صغيرة مستضعفة يضرب بعضها بعضا ويأكل القوى الضعيف وكان عدوهم أقرب إليهم أحيانا من ذويهم وهو ما يطلق عليهم عصر ملوك الطوائف.

سقوط الخلافة الأموية:

لقد كان هذا السقوط شنيعا وهو السقوط الأول الذى أثر على حركة الإسلام والمسلمين فى الأندلس، وهو الذى أدى إلى تمزق وحدة المسلمين وإلى تفسخ الدولة الإسلامية ولكن قد يجول فى ذهن الإنسان تساؤل عجيب: كيف لتلك الدولة القوية ذات الهيبة والمنعة التى أسسها عبد الرحمن الناصر وجعلها موطنا للخلافة الأموية والتى نافست الخلافتين العباسية والفاطمية. أقول: كيف انهارت تلك الدولة وتداعت هكذا بسرعة؟

(١) لعدم الإطالة والخروج عن موضوع البحث يرجع القارئ لقراءة «مكتبة الأمويين الإسلامية فى قرطبة وتأثيرها الفكرى فى شعوب غرب أوروبا» بحث للدكتور فتحى زغروت فى مجلة البحوث الإسلامية التابعة لهيئة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية. العدد ١٧ لسنة ١٤٠٦-١٤٠٧هـ.

نعم لقد حدث ذلك وإن لم تبد علامة من علامات الوهن، فقد تجمعت مثالب كثيرة أدت إلى ذلك السقوط، وإن المتأمل لأسباب السقوط يجدها غالبا ما كانت أسبابا داخلية وإن كنا لا نهمل الأسباب الخارجية فى تصدع الدولة الأموية، ومما لا شك فيه أن تلك الأسباب الداخلية كانت ضاربة بجذورها موغلة فى كيان الدولة ولم تكن وليدة عام أو عامين أو عدة أعوام، وقد كانت القوى الاجتماعية التى استند إليها العامريون غير متماسكة فالأرستقراطية القرطبية كانت منشقة على نفسها مبعثرة الجوانب، ففريق يساند بنى عامر وفريق آخر يظاهر بنى أمية الذين ينظرون بغيظ إلى استئثار العامريين بالسلطة، وكان موقف العامة كما هو الحال بمعزل عن الحكام، وحينما رأوا ذلك تحول موقفهم السلبى إلى موقف إيجابى فابتدأوا يضيقون بالبربر من زناته وصنهاجة الذين استقدمهم العامريون لتجنيدهم فى الجيوش وليغزوا بهم نصارى الشمال، وقد باتت تلك القوة الأخيرة - هى العامة من الناس- تنتظر سنوح فرصة للانقضاض والثورة. إذن كان أول الأسباب هذا التصدع الداخلى فى دولة بنى عامر وهو باختصار شديد أن الكيان السياسى الذى بناه عبد الرحمن الناصر لم يكن قائمًا على أسس رصينة متينة، ولم تكن تلك العناصر متماسكة متراصة رغم قوتها الظاهرة، فإن ذلك المجتمع الأندلسى المكون من أجناس مؤتلفة من أندلسيين أسبان وأندلسيين عرب وبربر وصقالبة.. كل هذه العناصر كانت بلا شك عاملا من عوامل تفكك المجتمع وعدم تماسكه وتاريخ الأندلس شاهد على ذلك.

ومن الأسباب التى ساعدت على تصدع دولة قرطبة وقيام ملوك الطوائف هى تلك النتيجة الطبيعية لتطور المجتمع الأندلسى إذ أن خضوع المدن الأندلسية الكبيرة والحصينة بقرطبة لم يعد ممكنا بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها ارستقراطية محلية مستقرة عميقة الجذور ذات شوكة وقدرة.. كل هذا يجعلنا نقول: لم يعد ممكنا خضوع هذه المدن لقرطبة بعدما وصلت إليه من ازدهار وتقدم كما لم يكن لدى قرطبة من قوة تستطيع بها فرض سلطانها على هذه المدن، فكان من الطبيعى أن تستقل هذه المدن الأخيرة وأن تدير شئونها بنفسها وهذا ما لاحظناه فى ظهور

ملوك الطوائف، فما هم إلا امتداد طبيعي لتنامى نفوذ الارستقراطية المحلية واشتداد ارتباطها بمواطنها وشعورها بإمكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أى سلطة مركزية، وهكذا استأثر بنو عباد بالحكم فى أشبيلية، واستأثر بنو الأفطس بالحكم فى بطليوس وهكذا ظهر على شاكلتهما بنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون فى طليطلة وبنو طاهر فى مرسية، وابتدأ نزاع قوى ومرير تغلب فيه القوى على الضعيف واستعان الضعيف بالأجنبى من النصارى على أخيه القوى وظل هذا النزاع حتى وهنت قوى هؤلاء الحكام من الطوائف.

ثم بدا خطر النصارى فى الشمال وتعاظم خطرهم شيئًا فشيئًا حتى أصبح ملوك الطوائف هؤلاء غير قادرين على الثبات أمام الوضع السياسى الجديد ولكى ندرك أن التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأندلسى كانت سببا فى سقوط دولة الأمويين علينا أن نقف وقفة متأنية للتركيبة العنصرية للمجتمع الأندلسى.

فالعرب والبربر كانا يشكلان الغالبية العظمى لسكان الأندلس أثناء الفتح وبعده إذ كان العرب والبربر هما المصدران الممدان للجيوش الإسلامية فى معارك الفتح الإسلامى لأسبانيا وقد استمرت الهجرة من شمال أفريقيا ومن الشرق العربى إلى شبه الجزيرة الأندلسية دون انقطاع، وإن كان نصيب البربر أكثر بكثير من نصيب العرب. لقد أغرتهم خصوبة البلاد وثراؤها فتركوا بلادهم ليتخذوا من الأندلس مقرا جديدا لهم. والمتتبع لهجرات العرب إبان تلك المحنة يجدها هجرات مستمرة غير منقطعة إذ قدم مع الوالى «الحر بن عبد الرحمن الثقفى» سنة٩٩هـ عدد من الشخصيات العربية الأفريقية ما يقرب من أربعمائة أسرة ثم جاء بلج بن بشر القشيرى على رأس بضعة آلاف من الشخصيات العربية قدرت بحوالى سبعة آلاف.

ثم ازدادت الهجرة بعد عبور عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل سنة ١٣٨هـ سواء من بربر شمال أفريقيا لزيادة جيوشه أو من رجالات المشرق الهاربين من اضطهاد العباسيين، وإلى جانب العرب والبربر كانت هناك عناصر

أخرى من السكان منهم المسالمة وهم سكان البلاد الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام، ومنهم أيضا المولدون الذين نشأوا فى ظل الإسلام وتربوا بتربيته، ومنهم أيضا عناصر سكان الأندلس العجم أو المستعربون، كما كان فى المجتمع الأندلسى قسم كبير من الموالى ظهروا بكثرة فى القرن العاشر كما كان يوجد من ضمن عناصر الأندلس قسم كبير من النصارى واليهود. إن هذه العناصر والفئات التى كونت المجتمع الأندلسى والتى أكسبته سمات خاصة لا توجد فى أى مجتمع آخر وذلك بسبب تعقيدة الوضع وعدم تحقيق الانسجام والتوفيق بين عناصر المجتمع الأندلسى الواحد، وقد ظلت هذه العناصر شوكة مؤرقة لحكام الأندلس وكانت سببًا لاضطرابات دموية ونزاعات مريرة طوال عصر المسلمين فى الأندلس، ولم تهدأ أو تستقر إلا فى القرن الرابع الهجرى -العاشر الميلادى حيث استطاع الخليفة عبد الرحمن الناصر ومن جاء بعده استخدام القوة فى وجه من يبز منها نحو الفتنة.

إن هذا التكوين المعقد قد صدر عنه العديد من المشاكل لم تظهر إلا فى هذا المجتمع، فإذا كان هذا المجتمع يضم بجانب العرب الفاتحين عددًا لا بأس به من غير العرب من بربر ومسالمة ومولدين ويهود ونصارى فإنه من الملاحظ سيادة لغة العرب عما سواها، فهى لغة التفكير ولغة التأليف وهى اللغة الرسمية، كما أن الثقافة التى سادت كانت هى الثقافة الإسلامية المستنيرة بروح الإسلام سواء كانت تلك الثقافة أو الحضارة أو الفن أو العمران أو التنظيم والإدارة والقانون، فنرى اللغة العربية والثقافة الإسلامية والروح الإسلامية واضحة تماما على الرغم من قلة عدد العرب إذا ما قورنت بأعداد البربر.. فما تفسير هذه الظاهرة؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل سوف تتضح عند حديثنا عن التكوين الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الأندلسى والمكانة التى احتلتها الأسر العربية فى هذا التكوين.

لقد كان النظام السياسى الذى ساد هذا المجتمع مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتكوين الاقتصادى، فقد كانت الدولة آنذاك أداة بيد الطبقة المالكة المسيطرة على وسائل

الإنتاج لفرض إرادتها على المجتمع، كما كانت القوانين والأعراف والعادات وسائل بيد الدولة للمحافظة على مصالح الطبقات المسيطرة، فالزراعة فى المجتمع الأندلسى التى كانت وسيلة الحياة الرئيسية، ظهرت فيها طبقتان الأولى وهى طبقة الملاك الذين يمتلكون الأرض وهى أغنى طبقات المجتمع وأكثرها ثراء وتسمى الطبقة الارستقراطية أو الخاصة والقابضة على زمام الحكم والمسيرة لدفة الأمور والموجهة للثقافة والفن.. إلخ، والطبقة الثانية هى طبقة الفلاحين الذين يرتبطون برباط التبعية وإلى جانب هاتين توجد طبقة العبيد التى ترتبط هى أيضا بالملاك برباط التبعية وتستخدم قوتها فى العمل لأسيادها. وما يقال عن الزراعة يقال عن الصناعة والتجارة أيضا فقد ظهرت طبقة من أصحاب الأعمال الذين لم تسمح لهم على وجه العموم وسائل عملهم الحصول على ثروات ضخمة ولكنها مع ذلك تعيش فى مستوى مختلف باختلاف الأشخاص وأعمالهم وباختلاف الظروف العامة إلى جانب هذه الطبقات، وقد وجدت فى المدن الكبيرة أعداد كبيرة من الناس يكسبون العيش بواسطة الأعمال التى تتطلبها الصناعة والتجارة أو بتأجير قوتهم على العمل إلى الطبقات الأخرى لتنفيذ أغراضها ويطلق على هذه الطبقة اسم العامة، وبالإضافة إلى هذه الطبقات توجد طبقة المرتزقة من الجنود الذين يستقدمهم الملوك من داخل البلاد أو من خارجها قوة مسلحة لحفظ الأمن الداخلى وللنزاعات الخارجية، وهذه الطبقة مرتبطة بالطبقة الحاكمة برباط التبعية أيضا، وهذه الطبقات التى ذكرناها تربطهم -على الرغم من اختلاف أعمالهم- روابط مشتركة ومصالح عامة تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض وتصب فى النهاية فى خدمة الطبقة الخاصة الارستقراطية «الأندلسية».

وقد كانت الدولة فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى أداة فى يد الفاتحين للاحتفاظ بالوضع الاقتصادى الجديد الناشئ عن اقتسام الفاتحين الجدد للأرض وقد كانت هذه المهمة يشوبها فى أغلب الأحيان نزاع شديد وقتال عنيف للاستئثار بالحكم، كما لاحظناه فى الحقب الأولى من حقب المسلمين فى الأندلس حيث ظهرت الخلافات القبلية بين القيسية واليمانية أو بين العرب والبربر، انتهت تقريبا بمجئ عبد الرحمن



الداخل حيث سيطر على الحكم من خلال تلك النزاعـات. والمتتبع لتاريخ الأمويين فى الأندلس يتضح له بجلاء ظهور تلك الطبقة الثـرية الخاصة الارستقراطية فكانت هى الطبقة التى بيدهـا النفوذ السياسى والاجتماعى والاقـتصادى، وهى ذات الثراء والملكية الواسعة، ومـا سمعناه عن عبد الرحمن الناصـر فى بناء مدينة الزهراء وما أنفق من أموال طائلة فى بنائهـا وتزيينها ثم ما قام به بنو عامـر من بعده الذين بنوا مدينة الزاهرة. . كل هذه الأحاديث تقدم لنا نموذجا واضـحا ومثالا دالا على المركز المالى والاقتصادى الذى كان يتمـتع به الحكام آنذاك، فغالبا لم تكن هناك أية حدود فاصلة بين بيت المال والخزينة الملكيـة الخاصة. وامتدت تلك الطبقات الارسـتقراطية مع التاريخ وازدادت ثراء فى مـختلف المدن الأندلسيـة، وقد ظهر تأثير الثـراء لهذه الأسر عند انحلال الخلافـة الأموية فى قرطبة وظهور عهـد ملوك الطوائف، فهؤلاء الملوك ما هم إلا أسـر ارستقـراطية تمردت فى مـختلف المدن الأندلسـية، وتطلعت للاستئثار بالنفوذ السياسى فى مناطقها واسـتغلالها لمصالحها الخاصة، فتروى المراجع أن بنى عبـاد الذين حكموا أشبـيلية كانوا قـبل توليتهم الحكم يمـتلكون ثلث كورة أشبيلية، ويذكر ابن الآبار وغيـره أن بنى طاهر الذين تولوا حكم مدينة مرسية كانوا يمتلكون نصف المدينة، أمـا أبو الحزم بن جهـور الذى تولى حكم قرطبة فقـد كان أغنى أهلها وأفحشهم ثراء[١].

ثم عـمل هؤلاء الأمراء وهم المنـفردون بالحكم على زيـادة ثرواتهم بطرق غيـر مشـروعة من أهمها مـصادرة ممتلكات منافسيـهم أو غيرهم من أغنيـاء المدينة بعد اتهامه بشتى التهم، كما فعل القاضى أبو القاسم بن عباد وابنه المعتضد حيث صادر كل منهما أمـوال معظم أغنياء مقاطعتـهما واستحوذا على أمـلاكهم، ثم بعد ذاك أضاف كل مـنهما تلـك الأموال إلى ثروته الخـاصة[٢]. ومن الوسـائل أيضا غـير المشروعة أن يجبر الأمراء المالكين الصغـار على ترك أراضيهم لقاء حمايتهم إياه أو

(١) انظر الذخيـرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسـام الشنترينى ق١ ج٢ص١١٦. وانظر أشبيليـة فى القرن الخامس الهجرى. الدكتور صلاح خالص. دار الثقافة ١٩٦٥م ص٤٠ - ٤٣.

(٢) انظر المصدر السابق ونفس الصفحة.

أن يشتغل لقاء حصة معينة يأخذها من الإنتاج فإن رفضوا فيثقلون كاهلهم بالضرائب الباهظة حتى يعجزوا عن الدفع فيضطروا لترك أراضيهم لرغبة أمير المدينة، أما الطريق الثالث الذى كانت تسلكه الارستقراطية الحاكمة لزيادة ثروتها فهو إثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة أو توسيع رقعة المملكة بالوسائل العسكرية[1].

وقد أدت سيطرة تلك الطبقة الارستقراطية إلى نفوذ مادى ومعنوى كبير تمتعت به هذه الطبقة مما كان له أعمق الأثر فى الحياة الفكرية والأدبية والثقافية للمجتمع وقد مكنها ذلك الصراع من الاعتداء على جيرانها الأقل ثراء والسطو على ممالكهم ثم ضمها إليهم أو الاستعانة بالعدو ألفونسو الثالث ليؤازره فى حربه ضد أخيه المسلم إن لم يقو عليه نظير جزية يدفعها إليه. وهكذا أدت تلك الارستقراطية فى النهاية إلى أن يتباغض ملوك الطوائف وأن يتنازعوا فيما بينهم مما أدى إلى تمزق دولة المسلمين بالأندلس وتفسخها وانحلالها حتى صارت دويلات لا حول لها ولا قوة، كل همها الأكبر أن تصالح أعداءها وتدفع الجزية ليساندوهم فى دوام الملك.

وما أشبه الليلة بالبارحة فما حدث لدول الطوائف يحدث اليوم لأمتنا العربية التى تمزقت إلى دويلات متباغضة هنا وهناك، تسارع كل منها لإرضاء القوة المنفردة فى المنطقة والمهيمنة عليها، وهكذا نجد ملوك العرب ورؤساءهم اليوم يلجأون إلى أمريكا ويبيعون مصالح الأوطان ويضحون بوطنيتهم من أجل البقاء فى الملك ومن ثم ظهرت الحكومات الشمولية والملوك المستبدون، كل يجرى من أجل أن يكون له دور فى مستقبل الشرق الأوسط الجديد.



(١) البيان المغرب ج٣ ص٢٦٤، وابن عبدون رسالة فى الحسبة ص١٦٩؛ لتقف على الكثير من الجرائم والأساليب التى ارتكبتها الارستقراطية ضد الشعب لزيادة ثرواتها.



عهدا الفوضى.. والكفاح

أولاً: عهد الفوضى والانحلال

ثانيًا: عصر الكفاح

ثالثًا: المرابطون والموحدون وحركة التغيير

رابعًا: من مثالب المرابطين والموحدين

أولاً: عهد الفوضى والانحلال

عرفنا مما سبق أن الأندلس تقلبت بين مرحلتين متباينتين كل التباين، ففى منتصف القرن الرابع الهجرى وحتى أواخر هذا القرن بلغت ذروة القوة والتماسك فى ظل رجال عظام أمثال عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور، ثم بدأت تنحدر فجأة إلى الفتنة والاضطراب والحرب الأهلية المدمرة فى أواخر القرن الخامس لتصبح أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة، وقد كانت بالأمس تلتئم دولها ومدنها فى عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة وتتلألأ فى ظل حكومة الخلافة القوية، أما بعد ذلك فقد تبعثر وانفرط عقد هذه الدويلات وأصبحت حبات متفرقة منفردة حائرة تقوم فى كل منها حكومة محلية هزيلة على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة يسيطر على أقدارها لحساب نفسه، ثم بعد ذلك نراها تخوض غمار سلسلة لا نهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة وتُنسى خلال هذه الفترة الخطيرة التى أغفل عنها هؤلاء الملوك المتغلبون ألا وهى قضية الأندلس الكبرى قضية الحياة أو الموت أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد عدو يتبنى سياسة الاسترداد وطرد المسلمين من الأندلس.

إن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التى توالت فى الحقبة السابقة وهى فترة الإمارة وصراع الإمارة والخلافة أى إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها إذ دأب زعماء بنو أمية فى الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل أن يعملوا بكل وسعهم للاستئثار بالسلطة وإخماد النزعة القبلية وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية والقضاء عليها، وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية وبين المتسلطين عليها من البيوتات العربية ذروته فى أواخر القرن الثالث الهجرى إبان اضطراب الفتنة الكبرى وتفاقم ثورة المولدين والعرب، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥-

٣٠٠هـ حينما اندلع لهيب الثورة فى كل ناحية من نواحى الأندلس، وظهر الزعماء العرب والبربر فى معظم النواحى واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة وقد استطاع عبد الله بن محمد أن يخمد الثورة فى كثير من النواحى، وأن ينقذ سلطان بنى أمية من الخطر الداهم ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر فأتم المهمة وقضى على جذور الفتنة من أساسها وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل، فاشتد فى مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصبية وقضى على رياستها وزعاماتها المحلية، ومال إلى اصطناع الموالى والصقالبة وأولاهم النفوذ والثقة فاستأثروا فى عهده بأرفع المناصب فى القصر وفى الحكومة والجيش، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له وكان تخاذلها فى نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة سنة ٣٢٧هـ يرجع من وجوه كثيرة إلى سخط الزعماء العرب لسياسته فى إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم.

وكذلك المنصور بن أبى عامر لم يحد عن تلك السياسة حين استولى على الملك فى تدعيم حكومته المركزية وسحق كل سلطة محلية، وعلى الرغم من أنه ينتمى إلى بيت من أكرم البيوتات العربية إلا أنه عمل على سحق العصبية العربية وعمل فى نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة، وآثر أن يعتمد بصفة عامة على ولاء البربر وكان منهم معظم قادة الجيش وكان منهم خلفاء المنصور وعماله فى المغرب، وكان من جراء نظام الطغيان المطلق الذى فرضه المنصور على الأندلس أيضا والذى استمر قرابة ثلاثين عاما أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة فى المجتمع الأندلسى من الميدان ولكنها لبثت فى مكامنها وعزلتها ترتقب فرصًا للظهور والعمل وإثبات الذات، ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية يخفى فى ثناياه كثيرا من عوامل الهدم والانتقاض، فقد كانت سائر العناصر التى تعاونت فى إقامته وتدعيمه يتربص بعضها ببعض ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه وكانت ثمة معارك خفية تجرى بين البربر وخصومهم من الصقالبة فى القصر وفى الحكومة، وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء ويكرهون البربر إذ

كانوا سندا للمنصور فى استلاب سلطانهم، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء ولكنها ترى فى البربر خصمًا لها وهو من آثار الخصومة القديمة التى كانت تشتعل بين العنصرين منذ عصر الفتح.

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها فى الوقت الملائم، واجتمعت فى ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات، فلما وقع الانفجار وانهارت الدولة العامرية ظهرت فى ميدان النضال أربع قوى:

١- بنو أمية: يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب.

٢- طوائف البربر: تحاول الاحتفاظ برياستها وامتيازاتها.

٣- الأسر العربية التى اضطهدت وأبعدت عن الميدان تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة.

٤- ظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين.

وأسفر النضال بين هذه القوى المتخاصمة، بعد فوز البربر برياسة المناطق التى سبق ذكرها، عن فوز الأسر العربية بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وأشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية. واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة.

وأضحت الأندلس فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى كصرح شامخ انهارت أسسه وتصدع بنيانه وتناثرت أشلاؤه وتعددت الرياسات فى أنحائها لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة بل ساد بين ملوكها المنافسات والأطماع الشخصية واضطرمت بينهم الحروب الأهلية، كل هذا وقد غاب عنهم أن أمام أعينهم وراء الجبال عدوًا كبيرًا هو ألفونسو السادس ملك قشتالة النصرانية، يتربص بهم ليسترد دويلات الأندلس واحدة وراء الأخرى وأصبح العدو آنذاك يمثل القوى الكبرى، ومن ثم أخذ هذا الأجنبى يلعب بهم ألاعيبه ويزيد العداوة والبغضاء بين نفوسهم حتى أصبحوا مسلمين متنابذين.

يقول ابن الخطيب: «وذهب أهل الأندلس إلى الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم فى الخلافة ولا فى الأمارة سبب، ولا فى الفروسية نسب، ولا فى شروط الإمامة مكتسب. اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود وقدموا القضاة وانتحلوا الألقاب، وكتب عنهم الكتاب الأعلام وأنشدهم الشعراء ودونت بأسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم شهود، ووقفت بأبوابهم العلماء وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب، وبربرى مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس فى الثراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائرًا ولا لحزب الحق مغايرًا، وقصارى أحدهم يقول: «أقيم على ما بيدى حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه»، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ولا لقى خيرا لديه، لكنهم استوفوا فى ذلك آجالا وأعمارا، وخلفوا آثارا وإن كانوا لم يبالوا اضطرارا من معتمد ومعترض، ومرتضى وموفق، ومستكف ومستظهر، ومستعين ومنصور، وناصر ومتوكل كما قال الشاعر:

مما يزهدنى فى أرض أندلسٍ	سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها	كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد[1]

ولقد كان تمزق الأندلس على هذا النحو ضربة لم تنهض الأندلس من آثارها قط بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذى ما لبثت تتقلب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى.

وإذا كنا سنتحدث فى عجالة عن فترة ملوك الطوائف فإنها حقبة تبلغ السبعين عاما تبدأ منذ سقوط الدولة العامرية وإعلان انتهاء الخلافة الأموية إلى سيطرة المرابطين على بلاد الأندلس. وإذا تأملنا رقعة الوطن الأندلسى إبان عصر الطوائف وقد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية لوجدناها ست مناطق رئيسية:

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب. عبد الواحد المراكشى. حققه محمد سعيد العريان ص١٢٣، ص٤، وانظر أعمال الأعلام طبعة بيروت ص١٤٤.



١- منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضى الوسطى.

٢- منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط.

٣- منطقتا أشبيلية وغرب الأندلس وما إليها من الأراضى حتى المحيط الأطلنطى.

٤- غرناطة وريه والفرنتيره.

٥- منطقة شرق الأندلس أو بلنسية وما إليها شمالا وجنوبا.

٦- منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية اعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى ثم اختفت تباعا بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الكبرى[١].

لقد شغل عصر الطوائف من حياة أمة المسلمين فى الأندلس نحو ثمانين عامًا كان أغلبه عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى، فهذه الدويلات الصغيرة كان ينقصها الاستقلال السياسى والمنعة العسكرية، لذا لم تعرف تلك الحكومات الاستقرار الذى يؤدى إلى العمل وإلى خير الشعب ورخائه، وكان يحكم تلك الدويلات أسر أو زعامات تعمل لمصلحتها الخاصة وتنمية ثرواتها وتدعيم سلطانها قبل مصلحة الشعب، والشعب هذا لم يشكل عند الحكام إلا مصدرًا من مصادر المال وجباية الضرائب لتنفيذ مشاريعهم السياسية والعسكرية، وهذه المشاريع لا تخلو غالبًا من مهاجمة زميله أو مهاجمة جاره الأضعف منه وانتزاع ما فى يده دون أن يلتفت هؤلاء الحكام إلى القضية الأم وهى قضية الأندلس ضد عدوها الذى يتربص بها.

ما أشبه ملوك الطوائف بحكام العرب اليوم فهم ينزعون مثلهم إلى الاستبداد وضعف الوازع الدينى وفقد الانتماء إلى عروبتهم وإسلامهم وفشت بينهم الكراهية والبغضاء وإثارة الشائعات وصناعة المؤامرات، وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل لجأوا إلى الأجنبى يستعينون به مما أدى إلى خضوعهم وانطوائهم تحت ركابه حتى

(١) انظر محمد عبد الله عنان. ملوك الطوائف ص٤٦٠.

فقد كل منهم قدرته على صناعة القرار السياسى أو العسكرى وأصبحوا اليوم جميعهم لا حول لهم ولا قوة.

ويكفينا فى هذا المقام أن نستعرض موقف هؤلاء الملوك إزاء نكبة طليطلة وتخاذلهم جميعا عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على اقتناصها وهم جميعا ينظرون إلى غروب المدينة المسلمة وضياعها من أيدى المسلمين، فقد وقفوا جامدين لا يطمعون إلا فى رضا ملك قشتالة وفى سلامة أنفسهم، وكان هذا الملك يعاملهم كما قرأنا فى أكثر من موضع معاملة الأتباع ويبتز منهم الأموال الطائلة باسم الجزية ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم، واقرأ ما كتبه ابن بسام فى كتابه الذخيرة وهو يصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة وقت نزوله أمام طليطلة وهى على وشك التسليم إليه وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع وفقدان الكرامة والشهامة[1].

إن سقوط مدينة طليطلة فى أيدى ملك قشتالة كان وفق خطة منظمة قد خطط لها ذلك الملك على مراحل متعددة؛ إذ استطاع أن يخضع ملوك الطوائف لوعيده وأن يتعهدوا له بدفع الجزية إلا ملك بطليوس عمر المتوكل. وبخضوع هؤلاء الملوك له أيقن ألفونسو السادس ملك قشتالة أن الطريق أصبح ممهدا لتنفيذ مشروعه «إسقاط طليطلة» ومما قوى أمله أن أهل طليطلة أنفسهم لم يكونوا على وفاق فيما بينهم، وقد شن ألفونسو العديد من الحملات المتوالية على أراضى طليطلة سواء لمصلحته الخاصة أو بحجة معاونة حاكمها القادر بن ذى النون ضد الثوار عليه، لقد خربت تلك الحملات سهول طليطلة وربوعها النضرة وشاع فيها الفقر والبطالة، وقد استمرت حملات ملك قشتالة على المدينة أربع سنوات كاملة وكانت تلك الحملات يساعدها من الداخل أولئك المدجنون أى الموالى لملك النصارى. ولم تجد تلك الحملات من المسلمين أحدا يصدها أو يرد ذلك الملك العابث، ومن ثم انتهى الأمر بالقضاء على موارد طليطلة وتجريدها من وسائل الدفاع وهذا يذكرنا اليوم بحصار اليهود لغزة فى هذه الأيام.

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص١٢٩، ١٣٠.



وهكذا استطاع ملك قشتالة بدهائه أن يجردها فعلا من كل وسائل الدفاع سواء وسائلها الخاصة أو وسائل الدفاع للدول المجاورة لها، فالمعتمد ابن عباد مثلا والذى يعد أكبر قوة فى المنطقة تفاهم مع ألفونسو السادس على أن يتركه وشأنه نحو طليطلة لأنه كان مشغولا بحرب عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة، كما كان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المجاورين لطليطلة من ناحية الشمال والشرق مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة، أما دول الطوائف الشرقية والجنوبية فقد كانت بعيدة عن ميدان الخطر ولا تستطيع أن تساهم بالنجدة لبعد المسافة ومشقتها، وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقى، كل ذلك وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ولم يخف على الحكام المسلمين أن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة إنما هو بداية السقوط النهائى للأندلس وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية إنما هو بداية انهيار الصرح كله، وقد أدرك ذلك بعض العقلاء من المسلمين فبادرت جماعة منهم إلى حث هؤلاء الملوك على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحًا منذرًا من عواقب التفرق وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها أن يبادروا إلى نجدة طليطلة مؤكدا أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها واحدة بعد الأخرى، ولكن أولئك العقلاء الذين استشرفوا المستقبل قد ضاعت آراؤهم سدى وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ولم يتقدم لإنجاز طليطلة سوى أمير بطليوس عمر المتوكل الذى بعث ولده الفضل والى مردة بجيش قوى لرد ألفونسو عن طليطلة ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى الصليبية المتغلبة عليه فى العدد والعدة فارتد بعد أن خاض معارك دامية لم تسفر عن شىء، وإليك شروط تسليم طليطلة كما صيغت آنذاك: «أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوث، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع وأن يتمتعوا

أحرارا بإقامة شعائرهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع والحصون والقصر الملكى والمنية المصورة التى كان ينزل بها ملكهم، أما بالنسبة للقادر بن ذى النون فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية وقيل بل عرض عليه أيضا أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق، إذ كان يعرف جيدا أنها إذا خلصت للقادر فستكون فى الواقع ملكا له ورهن تصرفه وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الاسمى الضعيف أعنى القادر(١).

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة فى تلك العبارات اللاذعة «وخرج ابن ذى النون خائبا مما تمناه، شرقا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه وتستأذن فى انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجما إلا كدرته عليه حتفا مبيدا، ولم تنبئ إلا مطرته فيه عذابا شديدا، واستقر بمحلة أدفونش مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب»(٢).

وقد كان ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية وتعاملهم مع شعوبهم لا أفضل موقفا ولا أكرم تصرفا مما سبق ذكره، فقد كانوا طغاة قساة يسومون الرعية الخسف ويثقلون كواهلهم بالمغارم لملء خزائنهم، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع دينى ولا أخلاقى، لذا سخط عليهم الجميع وطعن فيهم كثير من الكتاب والمفكرين المعاصرين لهم، فابن حزم الفيلسوف المسلم المعاصر لم يرض عن فتنة الطوائف تلك وأمرائها المستهترين وحكوماتها الباغية فيقول فى رسالته «التلخيص لوجوه التخليص»إذ سأله بعض أصدقائه سؤالا يتعلق بأمر الفتنة فرد ردودا قاطعة تدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة فهو يصف فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى: «وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس لها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمرٌ امتحنا به نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها،

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص١٢٩، ١٣٠.
(٢) المصدر السابق١٣٠

محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بالفساد، والذى ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهبهم فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمتسببون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن فى قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[1].

ويشير ابن حزم إلى طبقة الفقهاء فى هذا المجتمع الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية إذ كانوا أكبر عرض لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم وتصرفاتهم وابتزازهم لأموال الرعية، وقد كان هؤلاء الفقهاء يأكلون على كل مائدة ويتقلبون فى خدمة كل قصر ليحرزوا النفوذ والمال فى مقابل تأييدهم للظلم والجور وخديعة الناس باسم الشرع. يقول ابن حيان المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث عن تضامن هؤلاء الفقهاء مع الأمراء ظلما وخروجهم على أحكام الدين: «ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح: فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون، وقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادة عن جماعة وجريًا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم[2]، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم[3].

(١) نقلا عن محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام فى الأندلس ج٣ ص٤٢٠.

(٢) تشير الفقرة إلى تضامن بعض الأمراء الحكام مع بعض الفقهاء فى ظلم الرعية ونشر الفساد فى الأرض من أجل مصالحهم الخاصة وقد ظهر فى تلك الفقرة مدى نفاق الفقهاء مع الحكام. الأمراء القاسطون: العادلون. نكبوا بهم عن نهج الطريق: أبعدوهم عن الطريق السوى لصالح الجماعة. صدف: أعرض. من حلوائهم: أى صاروا منهم. خابط: خبط عشواء أى يأتى ما يأتى بجهالة. انظر المعجم الوجيز.

(٣) البيان المغرب ج٣ ص٢٥٤.

ومما يؤسف له حقا أن تفرق هؤلاء الملوك وتكالبهم على المناصب والرفعة يعد سفها وإثمًا كبيرا يدل على أن هؤلاء الملوك قد فقدوا كل تمييز، ولا هم لهم إلا أن يبز منافسه فى المكانة بين الناس ويستولى على ملكه، قال ابن حزم رحمه الله: «فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد؛ أحدهم فى أشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالطة والرابع بسبتة.

وتفرقوا شيعًا فكل محلة　　فيها أمير المؤمنين ومنبر

فكيف يكون فى هذه المنطقة أربعة خلفاء فى آن واحد أو أربعة أمراء للمسلمين، وما وجد هذا اللقب إلا ليوحد المسلمين على خلافة واحدة. ومن المستحسن أن نربط بين حال ملوك الطوائف في الأندلس وحالنا نحن العرب اليوم، أعتقد أن الحالة مشابهة فكل منهما شتات وتفرق بعدما كانا وحدة وقوة فمسلمو اليوم -كما نراهم- مقسمون ومتفرقون فى دويلات هزيلة لا يملك حاكمها أمر نفسه بل لا يملك أمر قراره، فلابد أن يتخذ أوامره من أسياده مترددا على موائد الغرب وقد استخفوا بهم وامتلكوا رقابهم وباعدوا الهوة بينهم وبين رعاياهم، فانفصمت العلاقة التى من أجلها وجدوا. ولم تبق إلا السجون والمعتقلات والقنابل المسيلة للدموع.

وظل ملوك الطوائف على هذا النحو سالف الذكر ما يقرب من الثمانين عاما عاشها المسلمون فى نكد وفزع والعدو الأسبانى قد نشط مصمما على استرداد بلاد الأندلس، ونخص بالذكر ألفونسو السادس مسعر فكرة الاسترداد والتى ألهب بها ظهور ملوك الطوائف وأخذ يسترد البلاد بلدًا وراء أخرى وكأنه يتفقد خارطة طريق كالتى منى بها العرب والمسلمون اليوم.



ثانياً: عصر الكفاح

إن أمتنا العربيـة بجناحيها الشرقـى والغربى قد واجهت قوى الصليـبيين فى آن واحد وقد قـيض الله للمسلمين من يجمع صـفوفهم ويوحد كيـانهم ويقودهم من نصر إلى نصـر، فكان الأيوبيون وعلى رأسهم عـماد الدين زنكى وابنه نور الدين ممن يتصـدون لتلك الحملات فى المشـرق الإسلامى، وقد اسـتطاع البطل المجاهد «صلاح الدين الأيوبى» أن يتـصدى لتلك الحـملات وأن يحقق انتـصاره الرائع فى معركة حطين. بينما قـاد المسلمين فى الجناح الغربى فى «المغرب والأندلس» البطل «يوسف بن تاشفـين» زعيم دولة المرابطين ومن بعده البطل «عـبد المؤمن بن على» «وأبو يعقوب المنصور» من خلفاء دولة الموحدين.

وإذا كان ينبـغى علينا أخذ العظة من أحـداث التاريخ فلنقف وقـفة تأمل وتدبر لفكرة الجـهـاد التى قـامت عليـهـا هاتان الدولتـان السـابق ذكـرهمـا «المرابطون والموحدون» فـقد اندفعت جيـوشهما نحـو الأندلس لتجاهد فى سبـيل الله وتصد جحافل النصـارى بجانب إخوانهم المسلمين فى الأندلس فى فترة حـرجة تعرضت فيها دولة الإسلام للإبادة والموت المحقق.

فقد كان حـال الأندلس الإسلامية بعد سقوط الخـلافة الأموية فى تمزق وتفسخ وانحلال سـياسى حيث تـوزعت البلاد إلى دويلات يحكم كل واحـدة منها ملك استبد بنفسه فى الحكم وهو ما يعرف بعصر الطوائف-كما ذكرنا سابقا-، والغريب أنهم كانوا يستعينون بألفونسو السادس ملك قشتالة عدوهم والقوة الكبرى المتحكمة فى منطقـة الأندلس آنذاك، مما جـعله يسـتخف بهم ويؤلـب أحدهم على الآخـر ويرهقهم بالضرائب البـاهظة ويحاصر المدن ويشغلهم فى حروب مسـتمرة أنهكت قواهـم، ومن ثم أخذت مـدن الأندلس تتسـاقط فى يديه تباعـًا باذلاً كل جـهده لاسترداد أرض الأندلس كلها من أيدى المسلمـين، ولا يغيب عن بالنا ما نراه اليوم

من استعانة حكام العرب بالأجنبى مما كان سببًا فى فرض الهيمنة الأجنبية على العالم العربى حكامه وشعوبه، فكيف كان العلاج وكيف خطا التاريخ خطوته وانتشل أمة المسلمين بالأندلس من الضياع والوقوع فى قبضة الأجنبى الذى صار قاب قوسين أو أدنى؟ لقد قيض الله لأهل الأندلس رجال دولتين مجاهدتين فى سبيل الله وهم إخوة لهم فى العقيدة والدين عرفهم التاريخ بالشجاعة والمروءة والبأس وهم المرابطون والموحدون.

وقد سمع أمراء الأندلس بدولة المرابطين تلك الدولة المجاهدة الفتية فماذا يفعلون وقد ضاقوا ذرعا وساءت أحوال بلادهم بسبب عدوان ألفونسو المتكرر وعزمه على استرداد بلاد الأندلس وخاصة بعد سقوط طليطلة واختراقه لأراضى أشبيلية وبطليوس وإرهاقهم بالأموال المطلوبة.

ومن هنا ظهرت فكرة استنصار مسلمى الأندلس بإخوانهم المسلمين من حكام دولة المرابطين فى المغرب أملا يداعبهم ثم صارت أمرًا ضروريًا، إلا أنها وجدت معارضة من بعض أمراء الأندلس، فقد كان ثمة ملوك من الطوائف يخشون عواقبها ويحذرون «ابن عباد» ملك «أشبيلية» صاحب فكرة الاستنصار من آثارها ونتائجها إذ قد تؤدى إلى ضياع ملكهم ولكنه أصر على الاستعانة بالمرابطين ورد عليهم بكلمته المأثورة: «راعى الجمال خير من راعى الخنازير» يقصد بذلك أن الأفضل له أن يغدو أسيرا لدى أمير المسلمين يرعى جمالهم من أن يغدو أسيرا لملك قشتالة النصرانى.

ويبدو من كلام «ابن عباد» اقتناعه بأهمية الاستنجاد بالمسلمين وأنه رأى أن شبح سقوط دويلات الأندلس واقع لا محالة وإذا كان الأمر كذلك فإن يقع فى أيدى المسلمين أفضل من أن يقع فى أيدى النصارى عملا بقول على بن أبى طالب: «إذا كنت مأكولا فكن أنت آكلى».

وبالفعل أرسل ابن عباد وفدا إلى بلاط المرابطين فى مراكش يعرض الأمر على يوسف بن تاشفين ملك المرابطين الذى رحب بهم ولبى مطلبهم ووعدهم بكل خير.

وسرعان ما خف مسلمو المغرب من المرابطين لنجدة إخوانهم المسلمين فى الأندلس وحققوا نصرا رائعا فى معركة الزلاقة عام «٤٧٩هـ -١٠٨٧م» وهى معركة مشتركة من المرابطين والأندلسيين ضد الصليبيين الذين توافدوا من أراجون وبسكونية وحشد كبير من فرسان فرنسا وإيطاليا وغرب أوروبا، جاءوا جميعا بجحافلهم لهزيمة المسلمين ثم توالت انتصارات المرابطين فى معركتى أقليش١٥٠١هـ ، وموقعة إفراغة ٥٢٨هـ ثم أعقبتهم جيوش دولة الموحدين التى حققت نصرها الرائع فى موقعة الأرك عام «٥٩١هـ- ١١٩١م».

وبذلك الجهد العسكرى المشترك لأمة المسلمين في المغرب والأندلس استطاعت جيوشهم أن تحقن دماء المسلمين وأن تؤخر سقوط الأندلس فى أيدى الأسبان ما يقرب من قرنين ونصف القرن.

ومما ينبغى أن نلاحظه فى هذا المجال هو ارتداد ملوك الطوائف إلى التعامل مع ألفونسو السادس ملك قشتالة ومحاولة إرضائه ودفع الجزية له مرة أخرى بعد انتصار الزلاقة العظيم، فقد عز ذلك على يوسف بن تاشفين ملك المرابطين حيث أدرك أن هؤلاء الملوك الضعاف سيكونون سببًا فى ضياع الأندلس من أيدى المسلمين، فماذا يفعل؟ لقد فكر ذلك القائد المسلم فى الأمر جديًا ورأى أنه من الضرورى أن يزحف بجيوشه إلى جزيرة الأندلس بهدف الاستيلاء عليها من أيدى ملوك الطوائف وأظهر أنه جاء ليحارب القشتاليين والنصارى ولكن كان يضمر خلاف ذلك، فكان يضمر القبض على أولئك الملوك الخونة وأن يدعهم فى السجون، وقد تم ذلك بخطة محكمة تمكن من خلالها إيداع أولئك الملوك فى سجون المغرب ثم الاستيلاء على بلاد الأندلس التى ضمها إلى بلاد المغرب وصار المغرب والأندلس منذ ذلك الحين دولة واحدة تتمتع بوحدة سياسية عاصمتها مراكش بينما كان الأندلس هو مسرح عمليات القتال والجهاد فى سبيل الله، وظلت هذه الدولة الموحدة ما يقرب من قرنين ونصف وهما عصر دولة المرابطين والموحدين إبان القرن الخامس والسادس الهجريين.

ثالثًا: المرابطون والموحدون وحركة التغيير

إن دولتى المرابطين والموحدين تعدان حركتان لتجديد قوى الإسلام فى المغرب العربى والأندلسى إذ انطلقت كل منهما من دعوة تبناها فقيه ثم عاش لها بفكره ومشاعره حتى نضجت وكبرت على مراحل إلى أن صارت ذا قوة فعالة، فأسست جماعة مسلمة ثم مجتمعا مسلما ثم دولة كبرى لكل منهما ترفرف عليها ألوية الإسلام.

ويرى الباحث أنه من المفيد أن نقف على أسرار تلك الحركتين والأسباب المحركة لهما متأملين حركة التاريخ لنأخذ منها العظة والعبرة ونصحح بها مسار حركاتنا الإصلاحية اليوم إذا تطلب الأمر(١).

لقد قامت الدولتان على فكرة الجهاد فى سبيل الله، وقد نمت الدولتان بهذه الفكرة وتحمس لها الأتباع فى كل دولة حتى سيطرت حركة المرابطين ومن بعدها الموحدين على المغرب الأقصى بأكمله وأعادت إلى أهله مفهوم الإسلام الصحيح وأصبح رجال هاتين الدولتين وقوادهما فى حالة تعطش كبير إلى الجهاد فى سبيل الله فكيف رووا هذا الظمأ؟

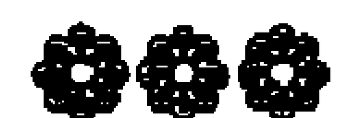
والحقيقة أن أمراء المرابطين سرعان ما خفوا لنجدة المسلمين فى الأندلس وعبروا مضيق جبل طارق بجيوشهم الغفيرة وانضموا إلى جانب المسلمين فى الأندلس، ودارت رحى معركة رهيبة عرفت بمعركة «الزلاقة» التى سبق ذكرها عام «٤٧٩هـ» انتصر فيها المسلمون بقيادة يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين، واستطاع هذا الأمير ومن بعده أبنائه: الأمير على بن يوسف ثم تاشفين بن على أن يحافظوا على رقعة الأندلس بدون نقص يذكر، وقد نعمت أبان حكمهم بالأمن والطمأنينة طوال قرنين ونصف القرن.

---

(١) انظر منهج كل من المرابطين والموحدين فى الإصلاح وحركتى التغيير فى كتاب «الجيوش الإسلامية وحركتى التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين» للدكتور فتحى زغروت. طبعة أولى. دار النشر والتوزيع الإسلامية.

ثم جاء من بعدهم الموحدون الذين سيطروا على دولة المرابطين وأخذوا مكانها فى المغرب والأندلس وأخذت تصد جحافل النصارى التى تجمعت على هيئة جيوش صليبية جاءت من أغلب بلدان أوروبا بدعوة من مطران طليطلة الجديد «مارتن دى بسيرجا» الذى أثار فرسان الغرب ضد المسلمين. وقد قابلت جيوش الموحدين جحافل النصارى وهزمتهم فى معركة شهيرة عرفت بمعركة الأرك عام «٥٩١هـ».

ولكن المسلمين تقاعسوا وركنوا إلى الملذات والشهوات وظهر الفساد الخلقى والبعد عن الدين، وهذه أول مظاهر ضعف الدول وانهيارها، وقد انهارت دولة الموحدين أعقاب هزيمة موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ، وهذه الهزيمة كانت هزيمة نكراء لم يقم لدولة الموحدين بعدها قيامة وتبعثرت دويلاتها، وظهر استقلال الولاة ببعض من دويلاتها وانتهت تلك الدولة وتركت الأندلس يعانى من فراغ قواد يحمونها ويدافعون عنها.



رابعاً: من مثالب المرابطين والموحدين

وإذا كنا سنتحدث عن تلك المثالب التى ساهمت من قريب أو من بعيد فى زلزلة كيان المسلمين فى الأندلس وساعدت فيما بعد على سقوطها فى أيدى الأسبان أقول: إن المرابطين على وجه الخصوص لم يرتكبوا سقطات أو زلات كبرى أثرت على كيان المسلمين فى الأندلس حتى عند سقوط تلك الدولة، فقد سقطت وهى فى شبابها إذ تجمعت عليها عوامل عدة أدت إلى سقوطها على أيدى الموحدين الدولة الفتية المناوئة.

- أن الثورة التى اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها لم تكن نتيجة لظهور أمر الموحدين وتضعضع قوى الدولة المرابطية وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة فقط، وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ضد الحكم المرابطى تكمن منذ زمن بعيد بل ترجع إلى أعقاب الفتح المرابطى نفسه حيث كانت الفكرة القومية وبروز شخصية الأندلس تجيش بأذهان عدد كبير من أبناء الأمة الأندلسية، وكان هذا الفريق الأندلسى يرى فى المرابطين بعدما تعددت مظاهر الإعجاب الأولى بهم والتى تلت نصر الزلاقة، وبعد أن انقلب الإخوة المنقذون إلى فاتحين ومتغلبين، تغيرت نظرة أهل الأندلس إليهم بعد ذاك ونظروا إليهم على أنهم أجانب غاصبون يستظلون بفكرة الجهاد ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية، وعلى الرغم من أن فكرة الجهاد الأولى التى اضطلع بها المرابطون بالأندلس فى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد على بن يوسف والتى أسفرت عن نصرهم ضد الجيوش النصرانية فى عدة وقائع مثل موقعة إقليش ٥٠١هـ وما تلاها من الغزوات المظفرة حتى موقعة إفراغة عام ٥٢٨هـ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية وتضفى على حكم المرابطين رونقًا ومجدًا ومع ذلك فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ولم تنس أنها فقدت استقلالها وحرياتها فى ظل



الحكم المرابطى خصوصا بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشتد شيئًا فشيئًا، فكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية سنة ٥١٥هـ أول تعبير مادى لهذا الشعور القومى وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطى، وقد رأينا كيف أدرك أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ خطورة ذلك الموقف فقابله بالإغضاء والتسامح.

كما كان من أسباب سخط الأندلس على المرابطين أيضا مبالغة الدولة المرابطية فى العطف على النصارى، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم، وقد استعانوا بفرق كثيرة من النصارى وتم إدماجهم فى الجيوش المرابطية وإعطاؤهم مراكز التفوق والقيادة(١).

المهم أن بزوغ الثورة الأندلسية ضد المرابطين ظلت -حينًا- كامنة ولكنها قابلة للنمو والزيادة والانفجار، ولما بدا على دولة المرابطين فى أواخر عهد على بن يوسف ثم ولده تاشفين من بعده ترنح الدولة تحت ضربات الموحدين فقد لاح عندئذ سنوح الفرصة لتقوم الأندلس بدورها الفعال فى الثورة ضد المرابطين والتخلص منهم، وازدادت حدة تلك الثورة بقيام سلطان الدولة الجديدة وتدفق جيوشها على شبه جزيرة الأندلس لتقوم بنفس المهمة الدفاعية التى كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل، ومن هؤلاء الزعماء الثائرين بالأندلس أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسىّ إذ قام أتباعه المريدون وكان مولدا ويرجع إلى أصل نصرانى واشتغل فى بداية أمره بالأعمال المخزنية(٢).

ثم اعتنق طرائق الصوفية وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها وابتنى رابطة فى أحواز شلب اجتمع فيها هو وصحبه وانكب على قراءة كتب الغزالى وعلى قراءة الكتب الصوفية والباطنية ورسائل إخوان الصفا وقد اتخذوا من الصوفية قناعًا لمشاريع يضمرونها ويدعون إلى الثورة فى الباطن، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية

(١) انظر الجيوش الإسلامية وحركة التغيير للمؤلف مرجع سابق ص١٠٨ وما بعدها.

(٢) ابن الآبار. الحلة السيراء ص١٩٩.

والهداية وتسمى بالمهـدى وبالإمام، وكثرت مخاريقه وشـعوذته وزعم القدرة على الخوارق وأنه حـج فى ليلة واحدة وأنه يناجى بما يشـاء وينفق من الكون مـا يشاء فذاع أمره وكثر أتباعه.

فسـقطت دولة قـوية واستلمت الحكم دولة أخـرى قوية فلم ينـشأ عن السـقوط والاستلام ثغرات أو مساوئ أثرت على مقدرات المسلمين فى الأندلس آنذاك، ولكن المشكلة الخطيرة هى التى تمثلت فى سقوط دولة الموحدين فعندما سقطت تلك الدولة الكبرى فقـد تبعها ذيول وآثار امتـدت إلى دول الأندلس وإلى وحدتها السيـاسية إذ تمزقت الوحدة السياسـية للأندلس وطمع فيها بنو حفص وغيرهـم -كـما قلنا سابقا- وسوف نقـصر حديثنا على ثغرة واحـدة وقع فيهـا المرابطون وثغرة أخرى وقع فيـها الموحدون، فهما أهم الثغرات التى أضعفت من حكم المرابطين والموحدين.

أ- الثغرة الأولى: سقوط سرقسطة

يُعد سقوط سرقسطة ثغرة فى جبين المرابطين العسكرى: لقد كانت سرقسطة فى الثغر الأعلى شمال شرق الأندلس مقرا لزعامة الأسر العربية متمثلة فى بنى هاشم التجيبيين ثم فى خلفائهم من بنى هود، حتى قدم المرابطون، فكانت سرقسطة آخر القواعد التى سقطت فى أيديهم.

ومدينة سرقسطة تحتل مـوقعًا هامًا استراتيجيًا وقـوميًا، ولعل عاهل المرابطين الأول «يوسف بن تاشفـين» قد أدرك أهميـة ذلك الموقع فعـمل جاهدا على أن يحسن استـغلاله استراتيـجيًا. فقد أوصى ابنه عليـا عند بيعته بأمـر الخلافة من بعده بثلاثة أمور منها: أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى، وأن ينشئ جيشًا مرابطيًا ثابتًا قوامه سبعة عشر ألفًا من الفرسان توزع على ممالك وثغـور الأندلس، وأن يعهد إلى الأندلسـيين بحراسـة الحدود النصـرانية فـهم أكثر خـبـرة بأحوال النصـارى وأكـثر دربة علـى قتـالهم من المرابطين(١).

(١) الحلل الموشية ص٥٦-٦٠.



ومن هذه الوصية يتبين لنا موقع سرقسطة الاستراتيجي والقومي الذى شعر به مبكرًا هذا القائد المرابطى، فمن الناحية الاستراتيجية فإن بعد موقع سرقسطة عن متوسطة الأندلس ومركز الحكومة الرئيسية وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إبروا ومناعة أسوارها العالية قد تعاون الخارجين على تحدى الحكومة المركزية بقرطبة هذا من ناحية، وكانت من ناحية أخرى حاجزًا طبيعيًا بين أراضى المسلمين وأراضى النصارى.

إن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية، كإمارة برشلونة من الشرق، ومملكتى آراجون ونافار «نبذة» من الشمال ومملكة قشتالة من الغرب كان هذا يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى سياسة خاصة يغلب عليها طابع السلم والمهادنة والملق، والخضوع أحيانا فى صورة أداء للجزية وبالإضافة إلى ذلك كان ملوك سرقسطة يستخدمون فى جيوشهم كثيرًا من النصارى المرتزقة بل كانوا أحيانا يعتمدون على التحالف مع ملوك النصارى.

وقد شعر المرابطون منذ أن حلوا بالجزيرة بهذا المركز الحساس الذى تحتله سرقسطة فى قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة عليها، فجاءت وصية أمير المسلمين يوسف لابنه على بأن تكون سرقسطة حاجزًا بين المرابطين والنصارى وأن يمدها بالعون اللازم لتقوم بهذه المهمة. وتقدم لنا الرواية العربية تفاصيل مختلفة عن حوادث حصار النصارى لهذه المدينة لسنا فى حاجة إليها إلا بالقدر الذى يوضح مدى خلل طرق التموين ومراكزها، ومدى تقصير الإمدادات اللازمة لجيوش المرابطين. والمتصفح لأحداث تلك القاعدة الثغرية المهمة سيتأكد من ذلك التقصير الذى كان سببا من الأسباب التى أدت إلى سقوطها.

وقد شجع سقوط سرقسطة «ألفونسو المحارب» أن يتابع ظفره بفتح ما بقى من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله فاستولى على طرسونة، وبرجة، ثم افتتح حصن آلاجون ومالن، وماجيون، وأبيلا[1] وغيرها، ولعل تهاوى وسقوط تلك الحصون

(١) عبد الله علام. الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على، ص١٤٤ وما بعدها.

يبرز مدى الخسارة الكبيرة لسقوط سرقسطة، وهذا بلا شك يعد كبوة واضحة وذلة كبيرة فى جبين تاريخ المرابطين العسكرى فكيف تم ذلك؟.

لما استقر المرابطون فى سرقسطة تحت أمرة قائدهم محمد بن الحاج وكان أول وال للمرابطيـن عليها كـانت حوادث الثغـر الأعلى تنذر باقتراب الخـطر الداهم إذ أنشأ النصارى سنة ٤٨٤هـ على ضفة نهـر إبروا اليسرى شمال سرقـسطة حصنًا قويًا يقع على قيـد أربعة فراسخ فقط منهـا واتخذوه قاعـدة للضغط عليها وإرهاقـها من آن لآخر، وقد سار إليهـا ألفونسو فى عام ٥٠٤هـ- ١١١١م وحاول مهاجـمتها فردته عنها قوات المرابطين بقـيادة ابن الحاج ومحمد بن عائشـة والى مرسلية، ثم انشغل ألفونسو عنهم فترة انتهزها المرابطون فرصة سانحة فقاموا ببعض الغزوات المخربة فى أراضى إمارة برشلونة وحاصروا الثغر العظيم، وفى أثناء عودتهم قتل ابن الحاج فى تلك الغزوة عام ٥٠٨هـ ثم خلفه فى ولاية سـرقسطة الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافـولوت المسـوفى والى مـرسـيه وهو زوج أخت الأمـيـر على بن يوسف أمـيـر المسلمين، وقـد أقام خلال عـهده بسرقـسطة بلاطًا فخمًـا كبلاط الملوك واسـتوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصـائغ المعروف بابن باجة ومن حوله الأدباء والندماء وانهمك فى اللذات والشراب علـى الرغم مما كانت تتعرض له سرقـسطة يومئذ من ظروف حرجة، كما أنه خاض فى تلك الفترة مع النصارى بعض معارك دفاعية كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية. وعلى ما يبدو أن ألفونسو ملك أراجون هو الذى كان يقود هذه الـغزوات المرهقة[1]، ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠هـ ولما عرف بخبر وفـاته الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف أخو أمـير المسلمين على بن يوسف بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر فى شـؤونها وضبط أحوالها، ولما اطمأن إلى توطيد أمـورها عاد إلى مـرسيه مـقر ولايته ولم يُعـين وال جديد فى تلك الفـترة العصيبة التى لاح فيها الخطر داهمًـا على سرقسطة، كما أن من العجب العجاب أن أمير المسلـمين على بن يوسف كان موجـودًا فى تلك الفترة فى شبـه الجزيرة عقب جوازه الثالث وبدلا من أن يتجه بجيوشه الجرارة العابرة إلى مواطن الخطر فى الثغر

(١) انظر الإحاطة - لابن الخطيب. القاهرة ١٩٥٦م ج١ ص٤١٦.

الأعلى نراه يفضل أن يقوم بغزوات عقيمة فى أراضى البرتغال يستولى خلالها على مدينة قلمرية ثم يتركها عقب افتتاحها، ثم ندب عبد الله بن مزديلى واليا على غرناطة وبلنسية وسرقسطة فى أواخر ٥١١هـ- ١١١٧م[١].

وعلى ما يبدو فإن الأراجونيين أعداء سرقسطة الأصليين قد حولوا العداء إلى عداء صليبى يشمل حصارًا ضخمًا من النصارى المجتمعة من كل الطوائف، ففى الوقت الذى كان ملك أراجون يوالى الضغط على سرقسطة ويجد فى انتزاع حصونها الأمامية، فاستولى على طليطلة سنة ١١١٧م وواصل زحفه إلى موريلا القريبة منها وقد وجدت دعوته صداها ضد المسلمين حيث صادف قبل ذلك الوقت بعشرين عاما استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ١٠٩٩م وقد ازدادت الروح الصليبية اضطراما فى فرنسا وفى أسبانيا إذ عبرت حملة قوية من الفرنج بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو وكانا قد اشتركا بالمشرق فى الحرب الصليبية الأولى وقد عادا إلى أسبانيا ليشتركا مع الأراجونيين فى افتتاح سرقسطة[٢].

ولكى ندرك معنى تلك الحملة الصليبية التى اضطرمت فيها الأنفس بروح صليبية حاقدة فقد عقد عام ١١١٨م بمدينة تولوز مؤامرة من أساقفة أرل وأوش ولاسكار وبمبلونة وببشتر وتقرر أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى أسبانيا يقودها الكونت دى تولوز وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ومن قطلونية ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين، وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الإفرنجية التى اشتركت فى حصار سرقسطة وافتتاحها، وتصفها إحدى الروايات بأنها كانت أممًا كالنمل والجراد أو أنها أقبلت فى عدد لا يحصى أكثره من الجند والرماة[٣].

---

(١) انظر روض القرطاس ص١٠٥.

(٢) محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام فى الأندلس عصر المرابطين والموحدين ص٩٠.

(٣) انظر روض القرطاس ص١٠٦، وعنان ص٩٠، ٩١.

وتقدمت هذه الجيوش النصرانية واتجهت لافتتاح سرقسطة، وتقدم لنا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار والمعارك التى سبقته أو اقترنت به ويمكن أن نستخلص منها ما يأتى:

١- أنه وقعت قبل حصار سرقسطة أو خلال الحصار معارك شديدة بين المسلمين والنصارى.

٢- أن عبد الله بن مزدلى آخر ولاة سرقسطة المسلمين قد اشترك بقواته فى هذه المعارك وأبلى فيها.

وعلى كل حال بدأ حصار سرقسطة -كما يرى محمد عنان- فى مستهل شهر صفر سنة ٥١٢هـ- ٢٢ مايو سنة ١١١٨م وطوقتها قوات كثيفة من الفرنج والأرجوانيين والبشكنس والقطلان وغيرهم، وكانت سرقسطة -فضلا عما تتمتع به من حصانة طبيعية بحسب موقعها الجنوبى فهى تقع جنوبى نهر إيبرو وعلى ضفته اليسرى- تعتمد فى الدفاع على أسوارها العالية القوية وعلى قلعتها المنيعة وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية يقع خارج الأسوار غربى سرقسطة على قيد نحو ميل منها وعلى مقربة من النهر، ومن ثم فقد احتله النصارى فى أول مقدمهم وجاء المحاصرون ومعهم أدوات الحصار ومنها أبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكى يستطيع المهاجمون محاذاة الأسوار العالية لينصبوا فوقها الرعادات، وكذلك جاءوا بعشرين منجنيقًا ضخمة لدك الأسوار[1]، وكان الذى يشرف على آلات الحصار واستعمالها طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا فى حصار بيت المقدس وتمرسوا فى استعمال هذه الآلات.

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر والظاهر على ما يبدو أنه استطال أكثر مما قدر له ألفونسو المحارب وحلفاؤه، ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه أهل سرقسطة يعانون الويلات داخل الحصار كان المعسكر النصرانى منذ مقدم الخريف يعانى من نقص المؤن ويهدده الجوع حتى لقد فكر قادة الجيش النصرانى فى رفع

(١) روض القرطاس ص١٠٦.

الحصار لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات[1]. أما في داخل سرقسطة فقد كانت الأقوات تنضب يوما بعد يوم خصوصا أن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جني محاصيلهم لتبكير النصارى في فرض الحصار، وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج لإحكام الحصار حول المدينة من ناحية النهر وناحية البر. ومضت الأشهر تباعًا والحالة تشتد شيئًا فشيئًا حتى فنيت الأقوات وفنى أكثر الناس جوعا. ووقع خلال ذلك حادث زاد في وجوم أهل المدينة وأدى إلى ارتباك تدابير الدفاع وهو وفاة واليها عبد الله بن مزدلي والظاهر أنه لم يخلفه في الرياسة أحد من أهل المدينة فترك الأمر فوضى وأخذت الخاتمة المروعة لمصير المدينة تدنو شيئًا فشيئًا.

ولكن ما الأحداث التي تمت قبل التعجيل بنهاية المدينة وسقوطها؟ تروى بعض الروايات أن جيشًا مرابطيًا كبيرًا بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم وكان واليا لشرق الأندلس وصل أواخر أيام الحصار إلى مقربة من سرقسطة بقصد محاولة إنقاذها، فخرج إلى الأمير تميم زعيمان من زعماء المدينة هما الفقيه على بن مسعود بن إسحاق بن إبراهيم بن عصام الخولاني وهو من أكابر علماء سرقسطة وكان متوليًا قضاء ميورقه، والخطيب بن منتيال، وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبو الغمر الشايب ابن غرون، عن أهبات النصارى ووجوب مناجزة العدو ولكن الأمير تميمًا جبن عن ذلك وكان انتقاله بالجيوش عن سرقسطة -حسبما يقول ابن الآبار وهو صاحب هذه الرواية- سببا في نجاح النصارى في الاستيلاء على المدينة[2]، على أن هناك رواية نصرانية تقول بعكس ذلك أنه قد وقعت في يوم ٦ ديسمبر سنة ١١١٨م معركة عنيفة بين قوات ألفونسو المحارب وجيش قوى من المرابطين انتهت بظفر النصارى ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت المدينة وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين[3].

(١) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٥.
(٢) روض القرطاس ص١٠٦.
(٣) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٦.

وتوجد لدينا وثيقة مخطوطة هامة وهى عبارة عن رسالة مؤثرة بل مبكية كتبها قاضى سرقسطة ثابت بن عبد الله وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه فى عبارات مؤثرة باسم الدين والوطن أن يتقدم لإنجاد سرقسطة وإنقاذ أهلها وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى، وقد استهلت هذه الرسالة بالتاريخ الذى كتبت فيه وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ٥١٢هـ أى كتبت بعد ستة أشهر ونصف من بدء الحصار وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوما، وفيها يصف الكاتب معاناة أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع ثم يشير إلى مقدم الأمير تميم بعساكره ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى، وفيها «. . وما كان إلا أن وصل الله برّك بتقواك على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمن منك بحول الله أسباب النصرة فى تلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها وسر النفوس زهاؤها، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت وارعويت وما أدنيت خابيًا عن اللقاء ناكسًا على عقبيك عن الأعداء، فما أوليتنا بلاء بل زدتنا بلاء، وعلى الداء داء، بل أدواء وتناهت بنا الحال جهدا والتواء، بل أذلت الإسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكست عن لقاء عدوه وهو فى فئة قليلة ولمة رزيلة وطائفة قليلة».

ثم يشير الكاتب بعد ذلك لأهمية سرقسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين فى شبه الجزيرة بقوله: «فما هذا الجبن والفزع؟ وما هذا الهلع والجزع؟ بل ما هذا العار والضيع؟ أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا فى ذات الله المؤمنين إن صدق على سرقسطة القدر بما يتوقع من المكروه والحذر أنكم تبلغون بعدها ريقًا، وتجدون فى سائر بلاد الأندلس عصمها الله مسلكًا من النجاة أو طريقًا-كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفرارًا، وليخرجنكم منها دارًا فدارًا، فسرقسطة حرسها الله هى السد الذى إن فتق فتقت بعده أسداد، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد، فالآن أيها الأمير الأجل هذه أبواب الجنة قد فتحت وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية وأين الأنفة والحمية؟ وأين الهمم المرابطية؟ فلتقدح عن زنادها



بانتضاء حدها وامتضاء جدها، واجتهادها، وملاقاة أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون» ويتـوجه الكاتب فى ختام رسـالته بالضراعة إلى الأمـير أن يقبل على سرقسطة وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول: «ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عـذر فى التأخر والارعـواء من مناجزة الكفـار والأعداء، وكتـابنا هذا أيها الأميـر الأجل اعتذار تقوم لنـا به الحجة فى جمـيع البلاد وعند سائر العـباد، فى إسلامكم إيانـا إلى أهل الكفر والإلحاد، ونحـن مؤمنون بل موقنون إجـابتك إلى نصرتنا وإعدادك إلى الدفـاع عن حضرتنا، وأنك لا تتأخر عن تلبـية ندائنا ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا، فـأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة عـصمها الله ليخرج الجميع عنها»[1].

والذى يبـدو من هذه الرسالة أن الجـيش المرابطى لم يبذل أية مـحاولة لإنـقاذ المدينة فإنما وصل إلى هناك والتزم الجمود والإحجام ثم ارتد بعد ذلك على أعقابه، وهذا كمـا يرويه صاحب روض القـرطاس ثم يروى صاحب تلك الروايـة أنه بعد سقوط سرقسطة وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس بعثهم أمير المؤمنين على لاستنقاذها فوجدها قد ملكها العدو ونفذ حكم الله فيها[2].

وقد يتـساءل الإنسان عن الأسبـاب التى حملت قائد الجيش المرابطى الأمـير أبا الطاهر تميم بن على المرابطى على اتخاذ هذا الموقف والتى دفعـته إلى الإحجام عن لقاء العدو والعودة دون أن يفعل شيـئًا، ولعل المتأمل فى الروايات السابقة يستطيع أن يتلمس تلك الأسباب وهى تعتبر بلا شك ثغرات عسكرية ينبغى المؤاخذة عليها وهذه الأسباب هى:

١- تفوق جيش النصارى فى الكثرة على الجـيش المرابطى جعل الأمير تميم يخشى أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب.

---

(١) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٦.

(٢) انظر هذه الوثيقة فى كتاب المؤلف «الجيوش الإسلاميـة وحركة التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين» فى قـسم الوثائق وثيـقة رقم ٣ ص٣٩٠ وهى مـأخوذة عن المخـطوط ٤٨٨ الغزيرى المحـفـوظة فى مكتبـة الأسكوريال لوحة ٥٥ أ-٦١، وقد أخذناها من كـتاب عنان قسم الوثائق إذ قاموا بنشر مجـموعة رسائل فى عصر المرابطين والموحدين.

٢- الأمير تميم لم يكن من القواد العسكريين أصحاب الخبرة المحنكة، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية وإن كان قد انتصر فى موقعة إقليش فإنما كان ذلك راجعا إلى شجاعة من معه من القواد المرابطين المدربين أمثال محمد بن الحاج وداود ابن عائشة اللذين يرجع إليهما ذلك الانتصار.

٣- كما كان لبعد موقع سرقسطة عن مراكز تموين الجيوش المرابطية فى بلنسية ومرسية وقرطبة سبب لم يشجعه على القيام بمحاولة عسكرية غير مأمونة العواقب، كل هذه تعد ثغرات ومثالب فى النظام العسكرى للمرابطين كانت لها من البواعث ما أحجمت الأمير تميم عن نصرة أهل سرقسطة.

ومهما يكن من الأسباب فإن هذا الإحجام عن نصرة سرقسطة أمر قد قلل من هيبة المرابطين ولم يعفهم التاريخ من اللوم، وعلى ما يبدو -كما يرى محمد عنان- أن البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة يرجع إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة منطقة الثغر الأعلى يلقى عليهم مسؤوليات عظيمة لوقوعها فى منطقة أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء للمرابطين، ومن ثم فإنهم لم يعنوا فيما يبدو فى أن يتجشموا فى سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية كبرى، وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها واضطرت بعد معاناة من الحصار الطويل وشدة الجوع والحرمان والمرض واليأس من النجدة من أى مكان أقول: اضطرت أن تخاطب ألفونسو بن رزمير أن يمنح أهلها هدنة مؤقتة فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود سلمت إليهم المدينة، وتعاهد الفريقان على ذلك وقد مرت الأيام وانتهت المدة المتفق عليها واضطرت المدينة إلى التسليم[1].

وكان من شروط التسليم ما يلى:

١- أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون ابن رزمير.

---

(١) روض القرطاس ص١٠٦.

٢- من أحب المقام من أهل المدينة فله ذلك على أن يؤدى جزية خاصة ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين رحل وله الأمان.

٣- أن يسكن الأراجونيون والفرنج المدينة والمسلمون ربض الدباغين.

٤- كل أسير يثبت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه[١].

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ويقع على ضفة النهر اليمنى[٢]. وكانت سياسة الملوك النصارى فيما يتعلق بمن يبقى من السكان المسلمين فى المدن المفتوحة هو أن يسمح لهم بالبقاء فى منازلهم لمدة سنة أو نحوها ثم يلزمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض وهى كما قلنا أحياء متطرفة أو ضواحٍ، وهذا ما تم مع سكان سرقسطة من المسلمين الذين فضلوا البقاء، وتصف الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٥١٢هـ وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨م[٣]، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى يوم ١١ ديسمبر، أو فى ١٨ ديسمبر[٤]. ودخل ألفونسو الأرجونى وحلفاؤه المدينة بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصين وبالاحتكام إلى شريعتهم ولكن مسجد سرقسطة الجامع حول منذ الثالث من يناير سنة ١١١٩م إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرناردين سميت كنيسة لاسيو أى الكنيسة العظمى، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون وجعل منها مركزا لأسقفية ومنح سكانها النصارى امتيازات الإشراف، وعين الكونت جاستون دى بياين سيدا للمدينة المفتوحة، وهكذا سقطت الحاضرة الإسلامية ودخلها النصارى وغادرها معظم أعيانها وأكابرها المسلمون.

أما المرابطون بصفة عامة فقد غفر لهم تلك الذلة ما أحرزوه بعد ذاك من انتصارات بعد الزلاقة مثل نصر «أقليش» سنة ٥٠١هـ و«إفراغة» سنة ٥٢٨هـ.

---

(١) أى مسلم يخالف الشروط السابقة من المسلمين يعد أسير ولا يحق للمسلمين تخليصه فاصبح أسيرًا للروم.
(٢) روض القرطاس ص١٠٦. (٣) انظر ابن عذارى ص١٠٦.
(٤) ابن الكرديوس فى كتاب «الاكتفاء»مخطوط أكاديمية التاريخ لوحة ١٦٤ اهـ.

واستطاع المرابطون أن يحافظوا على أغلب رقعة الوطن الأندلسى من أن تتردى فى أيدى الأعداء ولكن إلى حين.

أما الموحدون فقد ورثوا تلك الثغور عن المرابطين بعدما استقر أمرهم فى المغرب والأندلس.

وكان سقوط سرقسطة بعد سقوط طليطلة ضربة جديدة قاصمة للأندلس وكان نذيرًا بسقوط باقى قواعد الثغر الأعلى فى يد مملكة أراجون، وأصبح من ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية خطر العدوان النصرانى المباشر كما كانت تواجهه من الغرب، وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيبة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهيار، إن سقوط سرقسطة على هذا النحو يعد سقطة عسكرية فى جبين العسكرية المرابطية ينبغى أخذ العظة والعبرة من خلالها، فما أشبهها اليوم بسقوط بغداد حاضرة العراق الحديث فى يد الأمريكان وحلفاؤهم من الغرب.

فهل آن لنا نحن العرب أن نأخذ الدرس والعظة ونحافظ على عواصمنا من أن تسقط أو تتهاوى مرة أخرى.

ب- هزيمة «العقاب» ثغرة فى جبين الموحدين العسكرى:

فى عام ٥٩٦هـ- ١١٩٩م تولى الخليفة «محمد الناصر لدين الله» شؤون دولة الموحدين بعد موت أبيه المنصور بطل معركة الأرك الشهيرة عام ٥٩١هـ- ١١٩٤م ثم انشغل الناصر بحوادث إفريقيا والمغرب فى محاولة للقضاء على الفتن الداخلية ولاسيما ثورة بنى غانية والتى استطالت مع الموحدين اثنى عشر عاما.

وفى غمرة انشغال الموحدين بحوادث إفريقيا، سنحت الفرصة للممالك النصرانية باستئناف غزواتهم التخريبية فى أراضى المسلمين بالأندلس، وكان ملك قشتالة منذ هزيمته الساحقة فى موقعة الأرك يتوق إلى الانتقام من المسلمين لرفع وصمة العار التى لحقت بالجيوش النصرانية من جراء هزيمتهم النكراء[١].

(١) ابن الآبار فى الحلة السيراء ص٢٢٥، والبيان المغرب «الأوراق المخطوطة السابقة الذكر» وذكر المقرى انه «كان فى يوم الأربعاء الرابع من رمضان» نفح الطيب ج٢ ص٥٨٥.



وخرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى جيوشه ناقضًا الهدنة المبرمة بينه وبين الموحدين أعقاب موقعة الأرك ضاربًا بمبادئ الوفاء والشرف عرض الحائط، وسار بجيوشه صوب أراضى المسلمين فأحرق الحقول وخرب الضياع وقتل وسبى واستولى على عدة حصون، ولحق بالمسلمين من جراء غاراته تلك محن وخسائر فادحة.

وفى نفس الوقت تعرض شرق الأندلس الإسلامى لغارات «بيدرو الثانى» ملك أراغون الذى سار جنوبًا نحو أراضى ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها فسادًا، واستولى على عدة حصون إسلامية فى تلك المنطقة[1]. حينئذ ضج مسلمو الأندلس بالشكوى من جراء تلك الغارات الوحشية، وعبروا المضيق إلى المغرب، وقصدوا الخليفة الناصر مستغيثين به متضرعين إليه أن ينقذهم من عبث جيوش النصارى، وأرسل الناصر رسله إلى ألفونسو الثامن يحتجون على خرق الهدنة ولكنه لم يأبه بهم وأصر على تنفيذ خطته العدوانية.

ولعل فيما طرأ على الساحة الإسلامية والنصرانية من متغيرات تعصبية ومذهبية آنذاك كانت من العوامل التى جعلت ألفونسو الثامن ملك قشتالة يركب رأسه ويصر على إشعال نار الحرب وتصعيدها.

إن سوء الأحوال التى كانت تمر بها دولة الموحدين من جراء الفتن الداخلية والانتفاضات المتوالية ضد الموحدين ولاسيما ثورة بنى غانية فى إفريقيا والتى تسببت فى إجهاد الدولة على كل المستويات، ونجم عنها إهمال الجهاد فى الأندلس اثنى عشر عاما جعلت ألفونسو الثامن وغيره من ملوك النصارى يجولون ويصولون فى بلاد المسلمين بكل غطرسة.

---

(١) انظر معركة الأرك للكاتب فى مجلة كلية الملك خالد العسكرية، العدد السابع تحت عنوان «من معارك الإسلام الخالدة» وانظر كذلك كتاب الجيوش الإسلامية وحركة التغيير من المرابطين والموحدين للدكتور فتحى زغروت. ط دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

ويقابل سوء الأحوال فى دولة الموحدين تحسن ملحوظ فى العلاقات بين الدول النصرانية الأسبانية فيما بينها، فإنه لم يمض وقت طويل بعد هزيمتهم فى موقعة الأرك حتى جمعوا صفوفهم ونبذوا الخلافات والمنازعات التى كانت تمزق وحدتهم، وتم عقد صلح بين قشتالة وليون، ثم بين قشتالة ونفارا سنة ١٢٠٧م، ثم بين نفارا وأراغون سنة ١٢٠٩م، وساد بذلك نوع من الوئام والتفاهم بين معظم الممالك النصرانية فى أسبانيا[١]، أعطى ألفونسو الثامن نوعا من الطمأنينة والأمل فى عون زملائه له عندما يستدعى الموقف ذلك.

ولعل الدور الذى قام به البابا «إينوسنت الثالث» أكبر حبر على رأس البابوية آنذاك كان من أهم العوامل التى ساعدت ألفونسو الثامن على إشعال هذه الحرب، فقد كانت نفس هذا البابا تضطرم بروح صليبية عميقة، وبعث إليه ألفونسو أن يدعو أمم أوروبا النصرانية لمؤازرته وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين، ونزل البابا على رغبته، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا أن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة، وصرح البابا بأنه سيمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام، وبذلك تمكن ألفونسو الثامن من استدرار عطف الأمم النصرانية المجاورة، وأضفى بذلك على حملته روحًا صليبية ضد مسلمى الأندلس[٢].

وإزاء هذه الظروف الملحة أمام الناصر، لم يك ثم مندوحة لديه من أن يعبر بجيوشه البحر إلى الأندلس ليجاهد النصارى ويردعهم كما فعل أسلافه من قبل.

وقد تقابل الجيشان فى ملحمة رهيبة كانت فيها الصولات سجالا ولكن المسلمين فى النهاية هزموا هزيمة نكراء فى تلك المعركة التى سميت معركة العقاب.

١- فقد قضت هذه الهزيمة على المنعة العسكرية للموحدين فى الأندلس وضاعت هيبتهم من نفوس النصارى، إذ لم يقو الموحدون على امتلاك زمام الحكم

(١) ابن عذارى -البيان المغرب- القسم الثالث، المنشور بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان: ١٩٦٠-١٩٦٤م ص٢٣٤.

(٢) محمد عبد الله عنان. عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس القسم الثانى ص ٢٨٨.

فيها، وتهاوى سلطانهم، وانتشرت براثن الفوضى بين الأندلسيين وانقسمت إلى دويلات وشيع من جديد لتأكل بعضها بعضا بمعاركها الانتحارية التى لا تنتهى.

٢- ولم ينج المغرب هو الآخر من جراء هذه الهزيمة النكراء؛ فقد فنى أغلب رجاله ومشاهير جنوده وقواده، وأصبح الجهاد فى الأندلس أمرا مستحيلا بعد هذا الفناء، وقد نوهت الرواية الإسلامية بما أصاب المغرب من جراء تلك الهزيمة «فقد بيد أهله ورجاله، وفنى خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، وقد استشهد الجميع فى غزوة العقاب»[(١)].

٣- فلا غرو إذن أن تتهاوى دعائم دولة الموحدين فى المغرب أيضا وينتثر عقدها إلى دويلات متناحرة، مما شجع بنى حفص على اقتطاع أفريقية وإقامة دولتهم المستقلة على أنقاض دولة الموحدين، ولم تقم لهم بعد هذه الهزيمة فى المغرب قائمة.

أسباب الهزيمة:

لعل دراسة العوامل التى أدت إلى هزيمة المسلمين فى معركة العقاب تكون من أعظم الدروس المستفادة على المستوى العسكرى والتى يجب أن تحظى باهتمام الدارسين لها، ومن أسباب الهزيمة:

١- ضعف الروح المعنوية لدى جنود الموحدين إذ خرجوا للقتال وهم كارهون ساخطون على قوادهم بسبب حبس أعطياتهم وتأخرها، فخرج الناصر بحشود لا غرض لهم فى الغزو، وقد أمسكت أرزاقهم وقتر عليهم[(٢)]، ويقول المراكشى إنه علم من أحدهم «إنهم لم يسلُّوا سيفًا ولا شرعوا رمحًا، ولا أخذوا بشيء من أهبة القتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم قاصدين لذلك»[(٣)]، فالاهتمام بمشاكل الجند وحاجاتهم وتوفير مرتباتهم ومكافآتهم، كل هذه العوامل ترفع من معنويات الجند فى القتال.

---

(١) محمد عبد الله عنان. المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(٢) ابن الأبار، التكملة، القاهرة ج١ ص١٠٢، البيان المغرب ص٢٤٠، المقرى. نفح الطيب ج٢ ص٥٣٨.

(٣) المعجب ص١٨٣.

٢- إعجاب الناصر بكثرة جنوده وأعدادهم الهائلة مما جعله يهون من شأن عدوه ولم يتحوط فى لقائه، وكأنه لم يستوعب درس موقعة حنين مع النبى ﷺ حيث اغتر المسلمون بكثرتهم وقالوا: لن نهزم اليوم من قلة، فنجم عن ذلك أن ظفر النصارى فى سرعة هائلة باختراق قلب الجيش الإسلامى وحدوث المأساة ولم تغنه كثرة جنده عن وقوع تلك الكارثة التى كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بجموعه ليعلم أن النصر من عند الله.

٣- ضعف القيادة وسوء التنسيق الناشئان عن ضعف شخصية الناصر واستبداده برأيه وعدم تقبل النصح من كبار قواده، فقد أحاطت به حاشية السوء وعلى رأسهم الوزير أبو سعيد بن جامع الذى أغراه بقتل ابن قادس أمير قلعة رباح الأندلسية وهو من كبار قواد الأندلس، مما سبب استياء فى الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس وفى تثبيط همتهم فى القتال.

٤- اختلال نظم التموين فى الجيوش نظرا لكثرتها الهائلة، وابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة، هذا بالإضافة إلى أن تلك الجيوش قد حاصرت قلعة شلبطرة مدة ثمانية أشهر تعرضت خلالها لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين.

وعلى ما يبدو فإن نهاية الدولة ووهنها كان باديًا أدركه المنصور الموحدى أبو يوسف يعقوب ٥٤٥-٥٩٥هـ فحينما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها: «أيها الناس أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالأيتام واليتيمة، فقال له الشيخ أبو محمد الهنتاني: يا سيدنا ومولانا: وما الأيتام واليتيمة؟ فقال: الأيتام أهل جزيرة الأندلس، وهى اليتيمة «أى الأندلس»، فإياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الأسوار وحماية الثغور وترتيب أجنادها وتوفير رعايتها...»[1].

❀❀❀

(١) الروض المعطار ص١٣٨.

الفصل الثالث:

«الضعف والانحلال وسقوط الأندلس»

أولاً: دولة بني نصر ومملكة غرناطة

ثانياً: تسليم غرناطة وإنهاء دولة الإسلام

على سبيل التمهيد:

وإذا كانت دولة الموحدين بعد هزيمة العقاب الكريهة لم تقم لها قائمة حتى سقطت، فلابد من دراسة الأسباب التى أدت إلى ذلك حتى يتم أخذ العظة والعبرة، فهناك عوامل الضعف والوهن الخفية التى تدب فى جسم الدولة الموحدية منذ قيامها إلى جانب العوامل المباشرة، وقد عمل الاثنان معا على سقوطها، وقد كانت بذور الضعف كامنة فى عقيدة، ابن تومرت داعية الموحدين ومؤسس دولتهم وظهرت واضحة جلية فى عهد الخلفاء الأوائل منهم أمثال عبد المؤمن بن على وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور، وكانت الدولة فى أوج عظمتها فى عهد هؤلاء الخلفاء، ولا غرو فى ذلك فإننا نرى أن عوامل السقوط قد ظهرت منذ ذلك العهد المبكر خفية حينًا وظاهرة حينًا آخر، ضعيفة التأثير والأثر فى آن وقوية وعنيفة فى آن آخر، وهذه الأسباب كانت واضحةِ حينما أخذت الدولة بعصمة الإمام المهدى المنتظر حيث هيأ ابن تومرت نفسه بواسطة مريديه ليكون المهدى المنتظر الذى سينتشل البلاد من الظلم والاضطهاد ثم بعد ذلك اتخذ من نفسه إمامًا معصومًا من الخطأ وشرع تشريعات لأتباعه قد غالى فيها الموحدون من بعده، فأقدم عليها العامة منهم وتركوا الشريعة الإسلامية فى الأندلس خوفًا وإرهابًا، وقد ضاق الناس بهذه التعاليم ولم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة تنافى تلك العقيدة. لذا نرى أغلب رجال دولة الموحدين كانوا ينظرون إليها نظرة المقطوع أمله ورجاؤه؛ ومن جراء تلك التعاليم القاسية قامت الثورة فى بلاد الأندلس الأمر الذى أدى إلى عدم وقوف جند الأندلس بجدية فى معاركهم الكبرى كما حدث فى معركة العقاب.

وهناك أسباب أخرى لسقوط الدولة وهى الصدام العسكرى بين الموحدين وغيرهم من قوى العدوة المغربية الطامعة فى دولتهم، وقد صاحبت هذا السقوط أحداث عسكرية عنيفة كانت من الأسباب المباشرة لهذا السقوط خاصة أن دولة الموحدين قامت على عصبية قبلية قوية وهى عصبية المصامدة ولما كانت قد انضوت

تحت زعامتها قبائل عديدة وقوية فى نفس الوقت ذات عصبيات متعددة لذلك كان من الطبيعى أن تتمرد هذه القبائل وتثور للانفصال عن جسم الدولة أو لاستعادة أمجادها، كما هو الحال فى تمرد قبائل صنهاجة وزناتة أكبر قبائل المغرب على الإطلاق والتى كانت قبل قيام الموحدين تسيطر على المغرب والأندلس ولها فيهما دول وإمارات ذات أثر بعيد فى تاريخ المنطقة وحضارتها. كما أن ممالك وإمارات أسبانيا كانت متحفزة على الدوام للوثوب على الموحدين حين تبدو لها بوادر الوهن والضعف، ومن ثم واتتها الظروف بهزيمة الموحدين فى موقعة العقاب، وحينئذ تكالبت القوى الأسبانية على الأندلس الإسلامية ضد دولة الموحدين وأخذت تضربها ضربات عنيفة متواصلة أوهنت عظمها وساعدت على انسلاخ الأندلس عنها ومهدت لسقوطها.

ومما ساعد أيضًا على إضعاف دولة الموحدين وأثر تأثيرًا مباشرًا على مجرى التاريخ الموحدى وأعاق الدولة أحيانًا كثيرة عن حركة البناء والإعمار وصرفها عن شئون الأندلس ثورة بنى غانية وقراقوش فقد كان من الأخطاء الفادحة متابعة الموحدين لبنى غانية الموالين للمرابطين ومطاردتهم لهم إذ رفعوا الحصار عن قسطنطينة وتقهقر بنو غانية بقواتهم إلى بلاد أفريقيا وإذا كان الموحدون قد تتبعوهم وحاولوا القضاء عليهم وقد نجحوا فى ذلك كثيرا إلا أنهم توقفوا عن مطاردتهم بعدما قضى الموحدون زهاء ستة أشهر، فكان من الواجب أن يستمروا فى المطاردة ويزيدوا فى حشودهم حتى يقضوا على بنى غانية وقراقوش ولكن الموحدين عادوا إلى المغربين الأوسط والأقصى وتركوا الأمر لابن غانية وقراقوش فى بلاد أفريقيا، ومن هنا تمكنا من التحالف ضد الموحدين وأحرزا النصر عليهم أكثر من مرة. ولكن من المهم أن نتوقف وقفة نبين فيها أثر ثورة بنى غانية وقراقوش على دولة الموحدين والآثار التى خلفتها كل منهما فى بلاد المغرب وأفريقية. فبنو غانية وقراقوش قد جاءوا إلى بلاد المغرب لتحقيق أهداف بعيدة حرصوا على تحقيقها، فقد جاءوا من جزر شرق الأندلس لتحطيم دولة الموحدين وللثأر من المصامدة لما ارتكبوه فى حق صنهاجة، كما أنهم كانوا يطمحون إلى تأسيس دولة تعيد أمجاد المرابطين وتنشل

تراثها وتعيد مفاخر صنهاجة التى كانت تحكم المغرب والأندلس معا. أما قراقوش وابن قراتكين وغيرهما من الزعماء الأيوبيين الذين دخلوا المغرب فى ذلك الوقت إنما جاءوا بغرض اقتطاع جزء من بلاد المغرب وكانت بلاد أفريقية هى خطوتهم الأولى لمجاورتها للبلاد المصرية، وذلك بهدف إيجاد نقطة ارتكاز للأيوبيين فى بلاد المغرب يتخذوا منها خطوطا أمامية دفاعية، وأيضا مراكز هجومية وذلك ليتمكنوا من الوقوف فى وجه الموحدين الذين كانوا يخططون لغزو البلاد المصرية والمشرق الإسلامى، وكانت المأساة الكبرى حينما تحالف ابن غانية وقراقوش فازدادوا قسوة وتنافسوا فى الفساد والخراب وكانت لتلك الأعمال التخريبية آثارها على المجتمع المغربى فقد تعطلت بالمغربين الأدنى والأوسط حركة التجارة وكسدت الصناعة أو توقفت وأهملت الزراعة لعدم توافر الأمن والاستقرار، كل هذا أدى إلى انهيار الأحوال الاقتصادية إذ نهبت الأموال وانتزعت الممتلكات وقتل الكثير من الرجال وسبيت النساء والأطفال وتشردت كثير من العائلات.

وهكذا ظل العبث بالبلاد من جراء ثورة بنى غانية حتى جاء عهد محمد الناصر لدين الله الخليفة الموحدى، ففى عصره برزت ظاهرتان أو حادثتان: الأولى القضاء على بنى غانية، والثانية الهزيمة الشنيعة فى موقعة العقاب والتى لم يستطع الموحدون القيام بعدها بل إن الدولة منذ هذه المعركة أخذت تتهاوى أو تسرع نحو السقوط -كما قلنا.

كذلك من العوامل التى ساهمت فى سقوط الدولة واستنفدت الكثير من الجهد والوقت بعض حركات التمرد منها:

حركة الجزيرى: وهو عبد الله بن عبد الله الجزيرى وهو أندلسى الأصل من الجزيرة الخضراء وإن كان من يعيشون بجواره قد رموه بالمروق والشعوذة وأعمال السحر والتأثير على السذج وعقول العامة إلا أن بعض الباحثين قد رأوا فيه داعية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد أن رأى الرعية مالت إلى حياة الرفاهية ورغد العيش، وقد أثر ذلك فى نفسه ووهب حياته لإصلاح الأحوال وإحياء السنة واتخذ

من المهدى بن تومرت قدوة فى الدعوة إلى الإصلاح[1]. وقد تبرم به الموحدون وبحركته حينما ظهر فى مدينة مراكش عام ٥٨٦هـ، وقد التف حوله بعض الأتباع والمريدين وملأ صيته الآفاق فنفاه الموحدون عن مراكش وأخذ يلف مدن المغرب الأقصى ويرحل من مكان إلى مكان ثم يعود إلى عاصمة الموحدين مراكش مرة أخرى، وعندما أدرك الموحدون خطورة حركته قبضوا عليه هو وعدد من أتباعه فى مدينة مالقة وأمروا بقتله وانتهت بذلك حركة الجزيرى[2].

حركة الأشل: وهو داعية ظهر خلال عصر ثالث الخلفاء الموحدين أى بدأت حوالى سنة ٥٨٩هـ وأظهر هذا الداعى أنه موعود به للقضاء على الظلم والطغيان وتوفير الخير للرعية والسير على هدى السنة النبوية، وقد التف حوله عدد كبير من أعراب بنى هلال وسليم ولما كثرت جموعه أخذ يعبث فى تلك النواحى حتى أصدر المنصور الموحدى أمراً إلى والى بجاية «السيد أبى زكريا» بمطاردته والقضاء عليه، ولكن الأعراب داروا عليه وضللوا أبا زكريا ولما أدرك أن الأعراب يخادعونه دعاهم إلى قلعة بنى حماد وقبض على عدد كبير من أبنائهم ورؤسائهم وهددهم بأنه سيقتل هؤلاء ما لم يسلم إليه الأشل، وكادت تقع فتنة بين الأعراب؛ بعضهم رفض التسليم والبعض الآخر وافق، وأخيرا سلموا الداعية الأشل إلى السيد زكريا فقتله وانتهت بذلك حركته.

ومن الحركات الأخرى التى ظهرت فى عصر الموحدين تمرد محمد بن عبد الكريم وكان من كبار قادة الجيوش الموحدية وكان قائدا لجيش الموحدين الموجود بمدينة المهدية، وكذلك حركة أبى قصة الجزولى، هذا بالإضافة إلى فساد بعض كبار عمال الموحدين القائمين على أزمة الأمور وأخذ الفساد يزداد داخل الإدارة الموحدية فى عهد ثانى خلفائهم أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فكان الكثير من العمال وجباة الأموال يشتطون على الرعية فى جمع الأموال بل أنه بلغ بهم الحد إلى أنهم احتجزوا الكثير منها لأنفسهم، وقد فطن يوسف بن عبد المؤمن لهذا

(١) ابن سعيد. المغرب فى حلى المغرب ج١ ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج٣ ص١٨٢.



الشر فأمر بالقبض على الكثير من العمال وعمل على درئه والقضاء عليه وحاسبهم حسابا دقيقًا[1].

ومن أولئك العمال الفاسدين أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان مشرفا على مدينة أشبيلية وقد صودرت أمواله وممتلكاته، وأودع السجن سنة ٥٧٣هـ ثم ضرب عنقه بعد ذلك، ومن الذين حوسبوا على أعمالهم وثبتت التهم عليهم ابن فاخر مشرف مدينة سجلماسة وابن حسن على بن حنون وقد صودرت ممتلكاتهما ونالا عقابهما سنة ٥٧٣هـ[2].

وكذلك من الشخصيات التى سرقت المال العام للدولة شيخ كومية أبو زكريا بن حيون المشرف على تلمسان وابنه وكثيرون أمثالهما، وقد قبض عليهما وعلى آخرين وأودعوا السجن وقد بلغ عددهم الثمانية عشر وصودرت أموالهم وممتلكاتهم وفرض عليهم غرامة قدرها أربعمائة وتسعون ألف دينار[3].

والغريب أنه لم تتوقف مثل هذه الأعمال على الرغم من الإيقاع بالكثير منهم، بل استشرى الفساد وأخذ ينتشر بين العمال فى عهود الخلفاء، ومنهم الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور فقد تآمر عليه بعض أقربائه بهدف الوصول إلى كرسى الخلافة ومنهم أبو حفص الرشيد والى مرسية إذ أخذ فى إرهاق ولايته بالضرائب واشتط فى جمع الأموال واستولى على ما فى خزانة الولاية من أموال وذلك تمهيدا لما كان ينويه من القيام بالثورة ضده للاستيلاء على الخلافة يقول ابن عذارى: وكان هذا الرشيد قد استولى على الناس لضرورة العدوان وقد تسبب ذلك فى أخذ أموال التجار وإيذائه الجيران، وغالب العمال على بيوت الأموال وكلفهم المؤن الثقال[4]، وقد أحاط الخليفة بأخبار المؤامرة وقضى على متزعمها ومن اشترك فيها إلا أن ما فعله ابن عمه الرشيد من ظلم للرعية وتعذيب للعمال والسطو على أموال الدولة كل ذلك يعطينا صورة واضحة عن مدى المرض الذى

(١) مراجع عقيلة الغناى. سقوط دولة الموحدين ص٢٣٩، ٢٤٩.

(٢) ابن عذارى. البيان المغرب ج٣ ص١١٢، وسقوط دولة الموحدين. مرجع سابق ص٢٣٩.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ابن عذارى ج٣ ص١٧٢.

ألم بالإدارة الموحدية، وقد انعكس ذلك على مجتمع دولة الموحدين وبدأت تبذر فى النفوس بذور التذمر والاحتجاج، وهذا ما سيتبلور بعد ذلك فى صورة ثورات عندما تضعف الدولة.

وفى سنة ٥٨٥هـ جاءته وفود بعض البلاد من جزيرة طريف واشتكوا إليه سوء معاملة عمالهم وولاتهم، وكان ذلك حين عبر المنصور بحر الزقاق إلى الأندلس يقول ابن عذارى: «ووصلت بعض وفود البلاد المجاورة للصلاة، وضجوا بالتشكى للولاة والحكام، ورفعوا فيهم تشنيع الأرفاء -الأدناء- بما لا تسعه شرائع الإسلام فأضرب المنصور عن شنيع ذلك الكلام وقال: إنما نبدأ بغزو المفترين والمشغبين من أطراف الأنام ثم غلبه تقاة فأضرب عما كان نواه وأمر بطردهم وحصرهم تحت الوعيد، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمين فالموت أقرب لهم من حبل الوريد[1].

وقد كانت حركة بنى مرين لها تأثيرها القوى على تحطيم دولة الموحدين إذ عملوا بكل طاقاتهم على بناء إمارة لهم تقوم على أنقاض تلك الدولة المترنحة، فتمكنوا بقيادة أميرهم أبى يحيى بن عبد الحق من الاستيلاء على رباط تازى ثم مدينة فاس عام ٦٤٦هـ وقد تلاقى الخليفة المرتضى مع بنى مرين فهزم الموحدون فى أكثر من موضع مما أرغم المرتضى على موادعة بنى مرين، وبذلك استولى المرينيون على معظم بلاد المغرب وبخاصة بلاد المغرب الأقصى ولم يبق بيد الموحدين إلا ما يقع بين سلا والسوس[2].

ثم قام بنو مرين بمهاجمة عاصمة الموحدين مراكش انتهت بعقد هدنة بين الطرفين على أن يدفع الموحدون إتاوة سنوية لبنى مرين.

ثم وقع الشقاق بين أسرة الموحدين إذ لجأ ابن عم الخليفة المرتضى الموحدى وقائد جيوشه والسيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبى دبوس فطلب من بنى مرين إمداده بالرجال والسلاح لخلع المرتضى وتولية الحكم بدله، ووجد المرينيون أن

(١) ابن عذارى ج٣ ص١٧٣.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص٢٥٣. تحقيق جعفر الناصرى.

الفرصة قد واتتهم لضرب الموحدين بعضهم ببعض والظفر ببعض البلاد من أيديهم نظير محالفتهم لأبى دبوس، وانتهت المواجهة العسكرية بهرب المرتضى واستيلاء أبى دبوس على مراكش سنة٦٦٥هـ ثم تم القبض على المرتضى وقتله أما أبو دبوس فقد تمت البيعة له فى محرم عام ٦٦٥هـ وتولى الخلافة ولكنه لم يهنأ بها فسرعان ما تم الصراع بينه وبين بنى مرين لأنه نكس بوعده معهم ولم يتنازل لهم عن نصف ما تحصل عليه من البلاد، كما هو متفق بينهما. حينئذ غضب أبو يعقوب المرينى وحاصر بقواته مدينة مراكش وضيق الحصار على أبى دبوس والموحدين وتوالت الهجمات بينهم سجالا حتى تمكن المرينيون من إحراز النصر على الموحدين وقتل خليفتهم أبى دبوس ودخل بنو مرين مراكش عام ٦٦٨هـ وبذلك سقطت دولة الموحدين.

وهكذا انتهى عهدا «الفوضى والكفاح» عهد الفوضى الذى مثله ملوك الطوائف وبما تميز من ضعف وتخاذل وانقسامات أدت إلى ضعف المسلمين فى الأندلس.. ثم أعقبها عصر الكفاح المتمثل فى وجود دولتين قويتين هما: دولتا المرابطين والموحدين اللتين اتخذتا من الأندلس مسرحا للجهاد فى سبيل الله ومقاومة الحملات الصليبية التى قادها ملوك الغرب وبخاصة ملك قشتالة لاسترداد الأندلس وقد كافحت جيوش هاتين الدولتين كفاحا طويلا.

وكانت هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب هى بداية النهاية إذ تساقطت كبريات المدن أمام قوات النصارى، وقامت حركات فى عدد من الأقاليم الأندلسية مستغلة ضعف الموحدين واضطراب الأحوال مثل حركة ابن هود وابن مردنيش وابن الأحمر.

وقد خلف الموحدون بعد انهيار دولتهم ثلاث دويلات: دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى ودولة بنى زيان أو «بنى عبد الواد» وعاصمتهم تلمسان فى المغرب الأوسط، ودولة بنى حفص فى تونس.

كان لمشيخة الغزاة التى أعدها بنو مرين فى الأندلس للجهاد ومتابعة الدفاع عن الأندلس أثرها فى مساعدة الأندلسيين وترجيح كفتهم أحيانا. إلا أن قوة المرينيين

كانت محدودة لم تقو على المقاومة نظرًا لـهجمات بنى زيان المتكررة مما دفعها إلى رد هجماتهم والانشغال معهم فى حروب أضعفها كثيرًا.

ومن هنا لم يقو بنو مرين على إرسال نجدات لأهل الأندلس وضعفت مشيخة الغزاة التى رتبها المرينيون. وقد اتسمت العلاقة الأندلسية المغربية آنذاك فى النصف الثانى من القرن الثامن بصفتين:

١- دخول المغرب فى حالة ضعف أدت إلى انحلال دولة بنى مرين بعد وفاة السلطان أبى الحسن المرينى.

٢- تحولت العلاقات بين المغرب والأندلس إلى علاقات بلاط أو قصور سيطرت عليها دسائس القصور مما نسب فى انقطاع الجيوش المغربية عن عبور عدوة المغرب إلى الأندلس لمقاتلة النصارى المتجمعين لاسترداد الأندلس، وبذلك تركت غرناطة إلى مصيرها المحتوم.



أولاً: دولة بنى نصر ومملكة غرناطة

الموقع وموجات الهجرة:

نشأت مملكة بنى نصر واتخذت من مدينة غرناطة عاصمة لها وذلك قبيل منتصف القرن السابع الهجرى «القرن الثالث عشر الميلادى»، وقد انحصرت حدود تلك المملكة فى الجزء الجنوبى من الأندلس وراء نهر الوادى الكبير وامتدت حتى ساحل البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق، وقد اتسعت حدودها الشرقية لتضم ولاية مرسية التى امتدت شرقا حتى البحر، وقد امتدت حدودها الشمالية إلى ولايات أشبيلية وقرطبة وجيان، كما امتدت الحدود الغربية إلى أرض الفرنتيرة وولاية قادش. وكان التقسيم الإدارى لمملكة بنى نصر آنذاك يشتمل على ثلاث ولايات كبرى هى:

١- ولاية المرية: وتضم المساحة التى تشغلها مرسية على شاطئ البحر المتوسط ومن أهم مدنها المرية وأندرش ودلاية وبورجة وبرشانة وبيرة.

٢- ولاية مالقة: وهى تقع شرق غرناطة ومتاخمة لساحل البحر ومن أهم مدنها مالقة ومربلة ورندة وأنتقيرة وأرشدونة وبلايش ومالقة وقمارش.

٣- ولاية غرناطة: وهى تقع فى وسط المملكة وتمتد جنوبا حتى البحر وأهم مدنها غرناطة العاصمة ووادى أش والحامة تولوشة وأرجبه وأشكر وحصن اللوز وبسطة وشولبانية. وتنعم المملكة بعدة أنهار أهمها شنيل ونهر المنصورة، كما تخترقها سلسلة جبال سيبرة نيفادة وهضاب البشرات، كما تنتشر بها سهول خضراء مترامية الأطراف والتى تمد المنطقة بثروة زراعية مهمة كذلك سلسلة الجبال بما تحتويه من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس، كل هذا قد ساهم فى إعطاء هذه المملكة طبيعة خصبة قد ساعدت على جذب المسلمين من أفريقيا والشرق، هذا علاوة على الكم الهائل من المهاجرين من الداخل الذين

أخـذوا يفدون إلى ممـلكة غرناطة منـذ سقـوط الدولة الأمـوية بالأندلس هذا بالإضافة إلى البربر الذين وفدوا من المغـرب وطاب لهم المقام فى غرناطة حتى غدت بهم غرناطة وكأنها إمارة بربرية رغم مـا فيها من عناصر أخرى سكانية، وقد زاد تدفق هؤلاء البـرابرة على مر الأيام وخاصة على القواعـد الجنوبية فى عهد دولتى المرابطين والموحدين.

هذا ويلاحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية المتاخمة قد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة، فكلما سقطت فى يد الأسـبان مدينة مسلمة سواء كانت فى الشرق أو الوسط فـسرعان ما ينهضـون بالهجرة إلى غرناطة إذ كـان المسلمون آنذاك يفضلون الهـجرة إليهـا على الخضوع للنصـارى وقبول التـدجن، وكان من هؤلاء المهاجرين أسـرات عريقة أندلسية لجأت إلى المناطق الجنوبيـة والمدن الساحلية وهذا لا يمنع أن بعضًا من الأسر المغلوبة على أمرها قد أقعدتها مصالحها وظروفها تحت السيادة الأسـبانية الجديدة وهؤلاء هم الذين عـرفوا فى تاريخ الأندلس باسم المدجنين.

من هم بنو الأحمر أو بنو نصر وكيف أقاموا مملكة غرناطة؟

يقتـرن اسم مملكة غـرناطة فى التاريخ الأندلسى باسم أسـرة بنى الأحمـر أو بنى نصر، ويرجع نسبهم إلى «سعد بن عبادة الأنصارى» أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ وسيد قبيلة الخزرج من الأنصار بالمدينة، وقد أضفى هذا اللقب على ملوك هذه الأسرة نسبًا عريقًـا وعزًا أصيلاً، وقد كان أول ملوكهم هو الغالب بالله أمـير المؤمنين أبو عبد الله محـمد بن يوسف بن أحمـد بن محمد بن خـميس بن نصر بن قـيس الخزرجى الأنصارى، ولد فى أراجونة من أعمال ولاية جيان سنة «٥٩٥هـ- ١١٩٨م»[١].

وكان يتميز بعدة سمات أهلته أن يتزعم قومه، وكانت الأندلس حين ذاك تموج بالاضطرابات الموجعة فقد أغار الأسبان على القواعد الأندلسية، وفى الوقت نفسه

(١) انظر الإحاطة فى أخبار غـرناطة لابن الخطيب ج١ ص١٤٨ نقلا عن عنان، وينظر أيضا يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة للدكتور محمد كمال شبانه ص١٧ وما بعدها.



تراجع الموحدون عن حماية الثغور الشرقية أمام أبى عبد الله محمد أبى يوسف بن هود الذى شق عصا الطاعة على الموحدين حيث تقلد ولاية مرسية، فرأى ابن الأحمر من جهته أن الفرصة سانحة فى وسط الأندلس لتكوين مملكة يستقل بها عن الموحدين وهكذا يثبت ابن هود أقدامه فى شرق الأندلس وجنوبها، بينما ابن الأحمر يثبت أقدامه فى بياسه ووادى أش وما جاورهما من البلاد والقواعد والحصون، وبعدها توجه إلى الموانى الجنوبية حتى يسهل عليهم الاتصال بعدوة المغرب، وحتى يبتعد عن مواقع الأسبان الشمالية ولكى يحقق ابن الأحمر أطماعه ويثبت ملكه فقد توجه إلى الأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية «تونس» يطلب منه العون وأن يستظل بالدعوة إليه فأجابه إلى مطلبه وأعانه على أمره حتى أطاعته قرامونة وقرطبة وأشبيلية لفترة وجيزة ثم سرعان ما تخلت عنه أشبيلية وقرطبة ودخلتا فى طاعة ابن هود.

ثم انتشرت الثورة فى أشبيلية وتمكن من الاستيلاء عليها أحد الزعماء الثائرين وهو أبو مروان الباجى وطرد منها عامل ابن هود عليها فانتهز ابن الأحمر هذه الفرصة وتحالف مع هذا الثائر ضد ابن هود وعقدا العزم على مقاتلته فهزماه فى بعض المواقع غير أن ابن الأحمر نقض عهده مع حليفه ودبر له من قتله، وبعد فترة قصيرة تمكن من فرض سلطانه على كل من جيان ومالقة وشريش وغيرها من البلاد والحصون القريبة، وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يكون لنفسه جيشًا عظيمًا مزودًا بالعتاد ومدربًا على فنون القتال.

وفى عام ٦٣٥هـ توفى ابن هود وقد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى، وكانت هناك خصومة بينه وبين ابن الأحمر وكان حاكمًا قاسيًا ظالمًا لا يحبه أهل غرناطة، فثار عليه أهل غرناطة وقتلوه فى قصره وطلبوا من ابن الأحمر أن يدخلوا فى طاعته فقبل منهم ذلك ولبى دعوة أهل غرناطة ودخلها فى شهر رمضان عام ٦٣٥هـ، وأضحت هذه المدينة هى عاصمة مملكته منذ ذلك الوقت ورفع لواء بنى نصر على حمرائها، ثم اتجه ابن الأحمر للاستيلاء على المرية وطرد عاملها ابن

الرميمى الذى اتجه إلى تونس لاجئًا إلى أميرها أبى زكريا الحفصى. وباستيلاء ابن الأحمر على المرية يكون قد بسط نفوذه على الشواطئ الجنوبية للأندلس.

وهكذا وجدت مملكة غرناطة إثر سقوط دولة الموحدين بالأندلس وقد تعرضت للعديد من الفتن والدسائس والثورات، الأمر الذى أوجب على ابن الأحمر مؤسس تلك المملكة أن يقدر خطورة المهمة الملقاة على عاتقه إذ تولى زمام الدولة وهى فى حاجة ماسة إلى الاستقرار والأمن حتى يتفرغ لمشروعاته وتنفيذ سياسته الداخلية فى مجال الإنشاء والنهضة والتعمير، ولكن كانت الأندلس وقتئذ قد تشعبت إلى دويلات صغيرة تحكمها حكومات أهلية بفعل الحروب التى مزقت وحدتها وفرقت كلمتها، فجاء ابن الأحمر فى ذلك الوقت ليحظى بتأييد الأندلسيين فى الجنوب فقد نظروا إليه على أنه هو المخلص لمشاكلهم وهو الحامى للأندلس من الانهيار وأنه بقوته سيستطيع أن يقضى على دعاة الفتنة ومن ثم ينشر الأمن فى ربوع البلاد وهكذا كان، وقد صدق الرجل وعده مع الأندلسيين.

وفى عام «٦٣٦هـ- ١٢٣٨م» جهز جيشًا لمحاربة الأسبان الذين عاثوا فى أحواز جيان فحاصر قلعة مرتش فى هذا العام وضيق عليها الخناق ولكنه أجبر على فك حصاره عن تلك القلعة واشتبك معه الأسبان فى معركة قوية طاحنة تمكن فيها ابن الأحمر من هزيمة الأسبان بعد أن سقط قائد قلعة مرتش قتيلا ومعه عدد من الفرسان والأحبار من قلعة رباح، ولكن الأسبان لم يتركوه فبعد أن تفرغ فرناندو الثالث من الاستيلاء على مرسية اتجه إلى ابن الأحمر لينتقم لموقعة مرتش فأرسل إليه جيشًا عظيمًا تحت إمرة ولده ألفونسو الذى تمكن من الاستيلاء على حصن أراجونة موطن بنى الأحمر، كما استولى على بعض الحصون المجاورة وتابع زحفه حتى حاصر غرناطة ولكنه فك الحصار عنها مؤخرا عام ٦٤٢هـ.

وفى عام ٦٤٣هـ هاجم الأسبان جيان وضيقوا عليها الحصار وكادت تسقط المدينة لولا ابن الأحمر الذى لجأ إلى المهادنة وعقد هدنة مع ملك قشتالة، فقدم إليه الولاء والطاعة وعقد معه اتفاقًا ضمن له حدود مملكة غرناطة وأن يحكمها باسمه

بعد أن يسدد له جزية سنوية معينة بالإضافة إلى إقامة حلف عسكرى ضد أعدائه الأسبان كافة، وطبقا لهذا الولاء اعتبر ابن الأحمر من الأمراء المنضوين تحت لواء العرش القشتالى، وهذا يعنى حقه فى شهود المجلس النيابى القشتالى، ولقاء هذا قدم ابن الأحمر إلى ملك قشتالة كل من بركونة وبيغو وجيان والحجار وكلها أراضٍ من أعمال مملكة غرناطة، وكذلك أرض الفرنتيرة، كل ذلك ضمانًا لطاعته فوافقه فرناندو الثالث وعقد معه هدنة مدتها عشرون عاما عام «٦٤٣هـ-١٢٤٥م»[(١)].

ولكن كيف قدم ابن الأحمر هذه التضحيات الكثيرة لملك قشتالة؟. الظاهر أنه ربما قدمها ليحافظ على مملكته الجديدة التى لم يقو عودها بعد وهو مع ذلك يترقب الوقت الذى سيمكنه من أن يسترد فيه ما تنازل عنه لملك قشتالة وبهذا يتفرغ لمملكته الجديدة فيقوى دفاعاتها وينهج لها سياسة قوية استجابة للظروف التى كانت تجتازها، وهذا مسلك ليس غريبًا على زعماء المنطقة آنذاك فإن بعض زعماء المسلمين فى المناطق الأندلسية الأخرى كانوا قد سلكوا يومئذ نفس مسلك ابن الأحمر فى مصانعة ملك قشتالة متحالفين متضامنين معه محافظة منهم على ما تبقى بأيديهم من أشلاء الأندلس، لقد كانت أسبانيا النصرانية يومئذ قد استولت على الولايات الشرقية الأندلسية جميعها وبقيت أمامها الولايات الغربية تتطلع إليها وطبقا للاتفاق السابق بين الأسبان وبين ابن الأحمر فقد عاون الأخير حليفه على افتتاح الحصون المتاخمة لأشبيلية، كما تدخل بنصحه للعرب أصحاب هذه الحصون بأن يشتروا السلم والأمان بتنازلهم عنها لأمير قشتالة فنفذوا ما أشار به عليهم صاغرين، ومن جهة أخرى فقد أمد ابن الأحمر حليفه بفرقة من الجند عندما حاصر أشبيلية حتى تمكن الأسبان من الاستيلاء عليها فى رمضان «٦٤٦هـ-١٢٤٨م» كما عاونه أيضا فى استيلائه على ثغر قادس بعد ذلك بقليل.

وهنا قد يثار تساؤل عن موقف ابن الأحمر هذا ومدى تحمله لهذه المسئولية التاريخية فى تلك المنطقة، فهل كان فى ظروف قاسية أجبرته على هذا التصرف-

(١) ابن الخطيب. الإحاطة ج٣، ص٦٥، وانظر أيضا الوثائق الخمسة فى قسم الملاحق.

كما ذكرنا-؟ أم أنه كان يؤمل كسبًا مضمونًا بعد أن يتحرر من تلك القيود؟ لقد قبل دفع الجزية وتنازل عن عدة مواقع أندلسية ونصح الحكام الأندلسيين بالتنازل بدورهم عما بأيديهم حقنًا للدماء بل زاد على ذلك فقدم فرقًا من الجيش الأندلسى لتقف بجانب كتائب قشتالة لمحاربة الحكام العرب والآخرين.

وعلى ما يبدو فإن ابن الأحمر كان يتربص فرصة ليتخلص بها من تلك المعاهدات ويتحلل من عهوده التى طوقت عنقه، فإذا به يتجه نحو المغرب يطلب العون من بنى مرين وكانت تلك الدولة فى أول عهدها بالحكم فتية قوية فقد أجيب نداؤه وعبرت الكتائب المغربية البحر إلى الأندلس، وتمكن ابن الأحمر أن يهزم الأسبان عندما قاموا بغزو أرضه عام ٦٦٠هـ وبذلك خرج من طاعة النصارى ونبذ اتفاقاته معهم.

ومما يؤسف له أن تلك القوة الجديدة لم تدم طويلا إذ لاحقته النصارى بجيوشها وتوالت الهزائم على جيوشه ولم تصلح معه المعونات الحربية ولا المادية من المغرب وتونس، ومن ثم نراه لا يستطيع الصمود أكثر، فيقبل ابن الأحمر من جديد مهادنة قشتالة ومصانعة ملكها؛ إذ تنازل له عام ٥٦٥هـ عن شريش والقلعة والمدينة وغيرها، ومعظم هذه البلاد يقع غرب الأندلس[1]. وهكذا توالت خمس سنوات فى صراع متواصل بين مملكة غرناطة وبين الأسبان فى الخارج وبينها وبين الطامعين فى عرشها بالداخل.

وأخيرا توفى مؤسس دولة بنى نصر محمد بن الأحمر سنة «٦٧١هـ-١٢٧٢م» بعد أن أصيب بجرح إثر سقوطه من فوق جواده فور عودته من إحدى المعارك التى خاضها ضد بعض الثوار الذين حاولوا اقتحام قصر الحمراء لاغتياله، ولكنه ردهم على أعقابهم خائبين، وقد تولى الملك من بعده أكبر أولاده محمد واستقر الملك بعد ذاك فى بنى الأحمر فى تلك المملكة التى قويت دعائمها إلى حد كبير.

(١) ابن الخطيب. الإحاطة. ج٢ ص٦٥.

وقبل أن نتحدث عن الفصل الأخير لسقـوط مدينة غرناطة وتسليم مفاتيحها فى مشهدها الدرامى الحزين الذى يؤلم القلوب يستـحسن أن نستعرض موقف كل من ابن هود وابن الأحمر فى استعانتهما بالأجنـبى، وهى بطبيعة الحال مخالفة آثمة لا يرضى عنها الدين الإسلامى ولا يرضاها يومًا لإذلال أمة محمد ﷺ.

ما رأى الدين فى استعانة القائدين المسلمين ابن هود وابن الأحمر بالأجنبى ضد أبناء ملتهما؟

«لقد خالف هذان القـائدان التوجهات الإسلامية فى ولاية غـير المسلمين فطالما حذر القرآن الجمـاعة المسلمة من أن تتخذ من أعـدائها بطانة وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحـها، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١١٨- ١٢٠].

فهذه الآيات تصور حال المسلمين فى ضعـفهم إزاء عدو قوى ماكر يتربص بهم الدوائر، وهذه الصورة نمـوذج بشرى نراه قد تكرر فى بلاد الأندلس مـع المسلمين مرات ومـرات فأعـداؤهم يتظاهرون عند انتـصار المسلمـين وغلبتـهم بالمودة وهم كاذبون منافـقون، وينخدع المسلمون بهـم فيمنحونهم الود والثـقة وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخـبال ولا يقصرون فى إيقاع العنـت بالمسلمين والكيد لهم والوقيعـة بين قوادهم إذا واتهم الفرصة، وبـهذا الأسلوب الملون الذى انخدع به المسلمون أخذوا يستردون البلاد مـدينة مدينة، والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم يوادون من حـاد الله ورسوله ويفـتحـون لهم صدروهم وقلوبهم والله يـحذر الجمـاعة المسلمة تحـذيرًا دائمًا فى كل عـصر ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ

أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ويحث الجماعة المسلمة على أن تصبر على كيد العدو وكيف تتقى كيده وتدفع أذاه فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ فلا سبيل أمام المسلم إلا الصبر والتقوى والاعتصام بقوة الله وحده دون الالتجاء إلى قوة أجنبية ليستعين بها. وها هى العبرة واضحة فى تاريخ الأندلس فإذا استعان القائد المسلم بقوة الأجنبى عاش ذليلا وضاع ملكه وخسر كل شىء وإذا ما هابه العدو انتصر عليه مهما كانت قوته.

ولدينا خمس رسائل وردت فى كتاب مؤرخ لهذه الفترة وكان شاهد عيان لأحداث تلك الفترة وهذه الرسائل تعد وثائق مهمة سجل فيها المؤرخ صيغة المعاهدات التى تمت بين ملوك غرناطة وملوك الأسبان المسيحيين ويتضح من خلالها كلمات الود التى يزينون بها رسائلهم إلى ملوك النصارى، وكيف يتوددون إليهم ويتوسلون فى ذلة وهوان، وأود أن ألفت نظر القارئ إلى عدة ملاحظات وردت فى تلك الرسائل:

١- أهمية تلك الرسائل من النواحى السياسية والتاريخية والوثائقية وإلى أهمية المعلومات الواردة فيها باعتبار ما جاء فيها يعد من القضايا الدائمة بين غرناطة وجيرانها.

٢- ينبغى أن يلتفت إلى صيغة الخطاب وبما فيها من تبجيل وتقديس لملوك النصارى.

٣- كما يلاحظ فى بعض هذه الرسائل أكثر من اعتذار عن قيام بعض أفراد الشعب فى الأندلس «الباقية» بأعمال انتقامية وفدائية مستمرة ضد العدو النصرانى الذى يريد التهام الأرض والقضاء على المسلمين.

٤- وكذلك يلاحظ أيضا موقف «أبى الحسن على ابن سعد» الضعيف إزاء ملوك النصارى وإن حاول أن يظهر بمظهر التماسك كما أن كل رسالة كانت تختتم بعبارة «صح هذا» وهى علامة بنى نصر كانت توضع فى ذيل كل رسالة توثيقًا لها وكان يكتبها على نحو معلوم كاتب يعرف بكاتب العلامة[1].

(١) آخر أيام غرناطة ص١٧١، ١٧٢.

الرسالة الأولى:

هذه الرسالة صادرة عن أبى الحسن إلى دون دياقه هرندس المرشكال ويبدو أنه كونت قبرة بن قند بن حصن بن أشر صاحب بيانة وقائد القلعة. وإلى ييغش بن ييغش صاحب لك والبندين، فى أمر جواز ألفونسو على وادى آش حيث يتوجه وزير غرناطة إلى ذلك المكان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إلى السلطان المعظم، الخبير، الحافل الأسمى، الأصيل الأشهر، الأوفى، ذون خوان سلطان قشتالة وليون. أكرمه الله تعالى بتقواه، وأسعده برضاه.

سلام عليكم سلامًا يُراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، من الكثير الحب فى مقامكم، المبنى على مكارم سلطانكم، عبد الله محمد بن نصر سلطان غرناطة وما إليها من بلاد المسلمين. أيده الله بمعونته ويسره....

وإلى هذا أيها السلطان المعظم فإن كتابكم الأثير وصل إلينا، ووقفنا على ما ذكرتم فيه من كون مقامكم عرف بأن منذ شهر فى الطريق القريبة من رندة... وأُخِذَ له جملة من الذهب وطلب من مقامكم العزيز... وأنه ظهر لكم فى الكتب إلينا فيها، والرغبة منكم لنا فى أن نأمر بالبحث عن القضية، حتى يُعلم الحق فيها وأن نأمر بالحكم على الفاعلين والإنصاف... من الذهب المذكور مما تضمنه كتابكم من الجزئيات واستوفينا جميع ذلك.

أما الخاتمة فكانت:

والله يهيئ ما فيه الخير للجميع بحوله وكرمه، وكل ما يكون لمقامكم العزيز بدارنا ورياستنا من الحوائج والأغراض، فنحن يأسرنا العمل الواجب فى ذلك.

والله يرفع قدركم، ويُزكى الخير عندكم، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. وكتب فى الخامس لشهر ذى القعدة عام ستة وأربعين وثمانى مئة.

صح هذا .

الرسالة الثانية

وهي وثيقة لتجديد الصلح بين دولة غرناطة وسلطانها الحسن على بن سعد وبين مجموعة من ولاة قشتالة وقوادها المجاورين لها لمدة عشر سنوات ميلادية من ١٤٧٢م: ١٤٨١م، وهؤلاء المذكورون هم ذون دياقة هرندس، ومرتين الهنشة وبيغش بن يبغش صاحب لك والبندين، وفي هذه المعاهدة المذكورة للأمان بين البلدين مجموعة من التعهدات من دولة غرناطة تحد من سيادتها وتجعلها تابعة في كثير من الأمور السياسية لدولة قشتالة وقوادها، والرسالة مؤرخة في أواخر رجب عام٨٧٦هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

من عبد الله أمير المسلمين عليّ الغالب بالله بن مولانا أمير المسلمين أبي النصر ابن الأمير المقدس أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيده الله بنصره وأمده بيسره إلى الفارسين المكرمين الزعيمين الحسيبين المشكورين الوفيين: ذون دياقة هرندس والهُشنة ذي منت ميور صاحب القبذيق: أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهذا. سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا كتبنا إليكم من حمراتنا العلية بغرناطة -حرسها الله- عن الخير والعافية والحمد لله.

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان أنه وصل كتابكم وفهمنا جميع ما ذكرتم فيه، فشكرنا تعريفكم، وقصدكم، وأثنينا على محبتكم ومودتكم، وشكرناكم على وصولكم للقبذيق؛ وعلى إظهار المحبة التي لا شك فيها فأنتم - علم الله- عندنا من أحبابنا الأوفياء وأصدقائنا الأصفياء.

وبسبب أنه وصلنا التعريف أن ذون الهُنشة والفرسان جازوا على توجه وزير مقامنا لجهة وادي آش ولأجل أنه توجه سريعا، ولم يصح عندنا من الأخبار شيء

بصحيح ما عرّفكم بشيء فنريد منكم أن تزالوا تعرّفونا بما يزيد عندكم. وكذلك نحن نعرّفكم بما يزيد عندنا، وجميع حوائجكم عندنا مقضية، والله يعمل كرامتكم بتقواه.

«كتب فى» التاسع عشر لربيع الأول عام خمسة وسبعين وثمان مئة.

صح هذا.

الرسالة الثالثة

وهذه الرسالة موجهة إلى ذون دياقة هرندس فيها توكيد مودة وتطمين بمناسبة سفر المذكور إلى سلطان قشتالة للحفاظ على ولده وماله وأرضه من أى اعتداء يأتيه من المطوعة الغرناطية الأندلسية، وفيها اعتذار عن شيء وقع لم يكن عن علم من سلطان الأندلس أو رضاه، وهذه الرسالة مؤرخة فى ٤٢ من ربيع الأول عام ٨٨٠هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

ليعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أو يسمعه أننا عبد الله أمير المسلمين على الغالب بالله مولانا أمير المسلمين أبى النصر بن الأمير المقدس أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى الحجاج بن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر أيدنا الله بنصره... وأمدنا بيسره...

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى ذون دياقة هرندس ذى قرطبة قند قبره بن قند حصن أشر صاحب بيانة وقائد القلعة، والفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور بيغش بن بيغش صاحب لُك، والبندين -أكرمهم الله بتقواه- صُلح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة خالصة، منعقدة لأمد معلوم.

ولأجل أن هذه المحبة التى بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هى تزداد فى كل يوم وفى كل حين، ونحن نريد أن تزيد أكثر من ذلك، وأنّا نجددها الآن وندخل فى الصلح والمحبة الفارسين المكرمين بيغش بن بيغش صاحب لُك والبندين، وذون

دياقة هرندس المرشكال بقشتالة. والوزير الكبير بقرطبـة، وذون مرتين، قمند دور استبة أولاد القند ذى قبره؛ فلأجل ذلك تعـملون أيها الفرسان المكرمون والأحباب المشكورون ذون دياقة هرندس ذى قرطـبة قند قبره قند حصن أشـر وصاحب بيانه وقائد القلعـة ومرتين الهنشـه ذى منت ميور صـاحب القبذيق، ييـغش بن ييغش صاحب لُك والبندين، ذون دياقة هرندس المرشكال بقشتـالة الوزير الكبير بقرطبة، وذون مرتين قمندر استبة أكرمكم الله بتقواه...

واعلموا أيهـا الفرسان المكرمـون المذكورون أن أولادنا الأمراء -أسـعدهم الله- يحفظون لـكم هذا الصلح، وهذه المحبة والصـحبـة مثلما نحـفظها نحن بخـاصة مقامنا الكريم، فإنكم من أجل أحبابنا الأوفياء وأصدقائنا الأصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء. فـجانبكم عندنا مـحفـوظ ومحبـتكم صحـبة ثابتة، لا نـشك فى صدق محبتكم ولا مودتكم. ونحن نعاهدكم على صـحة جميع ما ذكرنا لكم، ونحلف لكم بالله الواحـد الحق على أن كل ما ذكـرنا لكم نوفى لكم به ونحفظـه ونحرزه بالقدر والوفاء فـى كل وقت من غير غدر ومن غيـر خداع. ولأجل أن يكون هذا العقد صـحيحا وثابتـا ختمناه بعلامتنا الـسعيدة الصادرة من يدنا الكريـمة وجعلنا عليها طابعنا العزيز المعهود عن مـقامكم الكريم، فى أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمان مئة عرف الله بحكمته.

صح هذا[1].

ونعـود بالحديث مـرة أخرى إلـى هذين القائدين اللـذين واليا ملوك النصـارى وعاشا فى كنفهم وتحت ربقتهم، وقـد عرفنا سابقا أنه إبان ضعف الدولة الموحدية وتفسخها ظهرت دويلات متنافسة كان من أهم أمرائها المتنافسين محمد ابن الأحمر وابن هود وقد بلغ بينهـما العداء مبـلغًا كبيـرًا أدى إلى استعانة ابن الأحـمر على خصـمه بملك قشتـالة، وتنازل ابن هود بدوره عن ثلاثين من قلاع المسلمـين لهذا

(١) نكتفى بهذه الرسائل على سبيل المثال ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى تلك الرسائل الخمس وقد عرضناها فى قسم الملاحق فى آخر الكتاب وقد نقلنا هذه الرسائل الخمس من كتاب آخر أيام غرناطة. مرجع سابق ص١٧٢ : ١٨٠.



الملك رغبة في مساندة الأسبان له ضد ابن الأحمر، ولكن مملكة ابن هود لم تدم طويلا إذ هزمه الأعداء ومات أخيرا بالسل، بينما استطاع ابن الأحمر الذى اشترك فى حصار أشبيلية -كما عرفنا سابقا- من بسط سلطانه ودعمه فى جنوب الأندلس فاستولى على غرناطة وجعلها عاصمة لملكه والتى قد تضخمت أعداد سكانها فبلغوا مائتى ألف، وذلك بسبب لجوء الهاربين من مجازر الأسبان إليها، وقد بذل بنو الأحمر جهدًا كبيرًا فى تحصين غرناطة والنهوض بها نهضة شاملة حيث حولوا الوادى إلى حدائق فسيحة، كما أن موقعها الحصين قد مكن ساكنيها من الدفاع عنها. . كل هذه الأسباب جعلت من مدينة «غرناطة» موضعًا للغيرة والحسد من قبل ملك قشتالة الذى عاش يتربص بها الدوائر ويتحين الفرص للإيقاع بها وكان بنو الأحمر يدركون ذلك جيدا.

فبدأوا ببناء القصاب والقلاع كما بنى محمد بن الأحمر قصره على قمة تل كان فيما سبق موقعًا لحامية عسكرية مسلمة، وجلب إلى هذا الموقع المياه حيث أجرى القنوات العميقة من الجبال المحيطة، وقد تعاقب سلاطين بنى الأحمر على عمارة قصر الحمراء وتوسعة حدائقه حتى صار من أعظم الأعمال المعمارية آنذاك.

وتعد غرناطة آخر معقل من معاقل الإسلام فى الأندلس آنذاك ازدهرت فيها العلوم والآداب والفلسفة، وكان أمراؤها يشجعون العلماء على هذه النهضة ولا يبخلون فى سبيلها بالمال حتى زين بلاط بنى الأحمر بمجموعة من الشعراء والكتاب لهم أثرهم فى الحياة الثقافية آنذاك، وقد عاشت غرناطة قرنين من الزمان قبل سقوطها عام ١٤٩٢م، وقد يتساءل الإنسان عن سبب صمود غرناطة لهذين القرنين!! إن السبب فى ذلك قد يرجع إلى:

١- وجود قيادة قوية ومحكمة من ملوك بنى الأحمر وكان أولهم محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر، فهو أول من أنشأ دولة غرناطة وقد استمر الملك فى دولة بنى الأحمر حتى سقوط غرناطة، وكان الرعيل الأول منهم على مستوى المسئولية ووصلت لأوج قوتها حتى عهد محمد الخامس سنة٧٦٣هـ وبعد موته لم يكن خلفاؤه على نفس المستوى فبدأت المملكة فى الانحدار.

٢- التجأ كثير من المسلمين فى الأندلس إلى مملكة غرناطة التى كانت تمثل دار الإسلام آنذاك بعد أن سقطت مدنهم الأصلية فى يد الأسبان، وقد انحاز هؤلاء لغرناطة وهم موتورون حانقون على الأسبان، وكان منهم الأدباء والصناع والزراع وأرباب المهن والحرف وعمرت بهم غرناطة عمرانًا حافلاً فلم يبق شبر من أرضها إلا أستغل أحسن استغلال فلا غرو أن يصل عدد المسلمين فى تلك المملكة ستة ملايين مسلم.

٣- مساعدة ملوك دول المغرب العربى لإخوانهم الأندلسيين أمثال ملوك بنى حفص وملوك بنى مرين إذ كانت المساعدات الحربية وإرسال الجيوش لا تنقطع لنصرة مسلمى الأندلس وعلى ما يبدو لم تكن هذه المساعدات كانت تصادف نجاحًا مما جعلهم بعد ذاك يضنون بالمساعدة.

٤- حالة الصراعات الداخلية والتفكك الذى ساد ممالك أسبانيا النصرانية فى هذه الفترة حيث سادت الانقسامات داخل مملكة قشتالة أكبر ممالك أسبانيا النصرانية إذ دخلت فى صراعات دموية مع مملكة ليون وأراجون، فقد كانت هذه الصراعات فرصة وإن كانت مؤقتة أدت إلى تثبيت أركان دولة غرناطة وتقوية قواعدها إلى حين من الزمن.

وهكذا كانت منعة غرناطة وموقعها الحصين وحنكة سلاطين بنى الأحمر السياسية وانقسامات الأسبان الداخلية سببا فى بقاء غرناطة متماسكة ما يقرب من قرنين ونصف.





ثانياً: تسليم غرناطة وإنهاء دولة الإسلام

يستحسن قبل أن نخوض فى الحديث عن إنهاء دولة الإسلام فى الأندلس أن نعيش مع مؤرخ يعتبر شاهد عيان قد شارك فى بعض المعارك الأخيرة وسجل بقلمه ما شاهده فى تلك المرحلة القاسية فى كتابه «آخر أيام غرناطة»، وهذا الكتاب يعد وثيقة تاريخية من أهم الوثائق الباقية فى التاريخ الأندلسى إذ ترجع أهميته -كما قلنا- أن مؤلفه يعد الشاهد الوحيد تقريبًا الذى سجل أحداث تلك الفترة التى سلمت فى أعقابها مفاتيح المدينة للأسبان، وهى فترة تقدر بنحو خمسة عشر عاما وسوف أقصر حديثى على هذه الفترة على وجه الخصوص.

عرفنا سالفا أن صمود غرناطة المؤقت كان يرجع لعدة أسباب منها منعة موقع غرناطة وحنكة سلاطين بنى الأحمر السياسية، وصراعات الأسبان الداخلية فيما بينهم.

ولكن كان من سوء طالع غرناطة أن ممالك الأسبان الرئيسية: «قشتالة والأراكون-وليون التى ضمت إلى الأراكون-» قد تم التصالح بين ملكى قشتالة والأراكون وذلك بزواج ملكة قشتالة إيزابيلا من ملك الأراكون فرديناند، وبهذا توحدت ممالك الأسبان وبرزت أسبانيا المسيحية كدولة فتية قوية، كان الهدف المشترك بينهما أن يقضى فرديناند وإيزابيلا على دولة المسلمين وذلك بسقوط غرناطة بصورة نهائية.. كانت إيزابيلا متعصبة لديانتها المسيحية إلى حد الهوس، وكانت ترى أن رسالتها تطهير أرض أسبانيا من الكفرة «المسلمين» وكان يساعدها على ذلك صرامة شديدة وقلب قاس لا يلين. أما زوجها فرديناند فهو ضب خلوف فى وعده لا يرى ضيرًا أن يكتب عهدًا بيمنه لتنقضها شماله، وكان يرى أن هذا تقرب للرب من أجل الوطن حتى ولو كان كذوبًا غادرًا ناقضًا للوعد.

وبينما كان البلاط الأسبانى سائرًا فى طريق الوحدة على نحو ما أسلفنا كان

بلاط بنى الأحمر مسرحًا للفتن والدسائس والمؤامرات التى أدت إلى أن يقتل بعضهم البعض.

اقتربت نهاية غرناطة عندما اعتلى السلطان على أبو الحسن ابن الأحمر عرش غرناطة، كان أبو الحسن شجاعًا مقدامًا ولكن يخالط شجاعته مزاج حاد وطبيعة نارية تبلغ درجة التهور والطيش غير عابئ للعواقب، كان أبوه قد أدرك ضعف غرناطة أمام الأسبان فآثر السلامة ورضى أن يدفع لملك الأسبان ضريبة سنوية لإرضائه.. أما أبو الحسن هذا فعندما طولب بالضريبة. أجاب الأسبان أن ليس عنده إلاّ السيف وأعقب كلامه بالفعل فهجم على حامية أسبانية قريبة واحتلها وطرد منها الأسبان.

وجد فرديناند وإيزابيلا فرصتهم الذهبية لتحقيق حلم أسلافهم بالقضاء على غرناطة هذا المعقل الحصين للمسلمين.

وقد ساعدهم على ذلك حصول فتنة كبيرة فى البلاط الملكى فى غرناطة إذ إن أبا الحسن كان قد تزوج من ابنة عمه عائشة أو «فاطمة» التى ولدت له ابنه أبو عبد الله الملقب «الصغير»، وكان لأبى الحسن زوجة أسبانية جميلة كانت المفضلة عنده حيث ولدت له طفلين، وأراد أن يجعل الملك لهما من بعده.. حدثت الفتنة داخل القصر بين أبى عبد الله الصغير مدفوعًا من أمه عائشة وبين أبيه، كان للأسبان يد فيها.. ويلف الغموض أحداث هذه الفترة إلاّ أن المعروف أن أبا الحسن ترك غرناطة متجهًا إلى المرية عند أخيه الملقب «الزغال» لشجاعته وبأسه، وهناك توفى أبو الحسن فاندلعت الفتنة بين الزغال وابن أخيه أبى عبد الله الصغير انتهت بأن يقسم الاثنان المملكة بينهما فيكون للزغال مالقة والمرية وجنوب غرناطة ويكون الباقى لأبى عبد الله.

قرر فرديناند تصفية الخصمين كلٍ على حدة وكان أبو عبد الله قد ارتبط بمعاهدة صداقة مع فرديناند.. فبعث فرديناند جيشًا كبيرًا لمحاصرة مالقة لعدة شهور أصابت المجاعة أهلها ببلاء عظيم واستبسل سكانها فى الدفاع عن مدينتهم.. وقد

أرسل الزغال جيشًا من المرية لنجدة مالقة ولكن قطع الطريق عليه قوة عسكرية أرسلها أبو عبد الله انتصارًا للأسبان!! ولم يجد هذا الخسيس ضيرًا أن يرسل رسالة تهنئة إلى فرديناند بسقوط مالقة فيما بعد.

أخيرا استسلمت مالقة للأسبان وبدأت المجازر التى راح ضحيتها الطفل والشيخ والمرأة على حد سواء.. لقد سجل الأسبان صفحة سوداء أخرى فى تاريخهم فى مالقة حفظتها كتب التاريخ.

أبدى الزغال شجاعة نادرة فى مناوراته مع الأسبان وحقق انتصارات لا بأس بها عليهم ولكن الكفة رجحت أخيرًا لصالحهم فلم يجد بُدًا من الاستسلام فأعطى بعض المال ونفى إلى أرض وهبها له فرديناند.

ولكن بقاءه فى الأندلس لم يعد مرغوبًا فيه فأُمر أخيرًا بالرحيل فعبر إلى فاس فى مراكش، وهناك اتهم بالخيانة والجبن وصودرت أمواله وفقئت عيناه وسجن ثم أخرج من السجن ليبدأ التسول فى شوارع فاس وليموت البطل أخيرًا كسير القلب مجروح الفؤاد على الرغم من استماتته فى الدفاع عن معقل الإسلام الأخير فى الأندلس.

ودارت الأيام على أبى عبد الله.. فلم يمض إلاّ وقت قصير حتى طلب فرديناند من أبى عبد الله تسليم غرناطة فورًا.. أسقط فى يد أبى عبد الله ولم يجد الغرناطيون بدًا من الدفاع عن مدينتهم والاستماتة فى سبيلها.

وهكذا فقد بدأ حصار غرناطة فى خريف سنة ١٤٩١م بعد أن سبقه تدمير الحقول والمروج والبساتين فى وديان غرناطة الخضراء، واستمر الحصار لبضعة شهور كانت تكثر خلاله المناوشات والمبارزات بين فرسان المسلمين والأسبان، كانت الغلبة فى معظمها لفرسان الإسلام حتى خشي فرديناند على فرسانه من الإبادة فأمر بإيقاف المبارزة بين الطرفين وضيّق بدلها الحصار حتى تفشت المجاعة فى داخل غرناطة.

يقول المؤرخ شاهد العيان أن ملك قشتالة قد رجع إلى فحص غرناطة ونزل بمحلته بقرية «عَتْقَه» ثم بنى سورًا ضخمًا كبيرًا وسماه «شنتفى»[1].

وصار يهدم القرى ويأخذ ما فيها من آلات البناء وينقلها إلى تلك البلدة وهو آنذاك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالا شديدا، وكان مما رجح كفته على كفة المسلمين أنه استطاع أن يستولى على أبراج القرى الدائرة حول غرناطة ولم يبق منها إلا قرية الفخار التى استمات المسلمون فى الدفاع عنها[2]، وقد قُتل من القشتاليين أعداد كبيرة لأن المسلمين وجدوا فى الحرص على هذا الحصن سببا فى بقائهم فإذا سلبه العدو فيكون سببا فى إخلاء قرى الجبل ومن ثم يتمكنون من حصار البلد[3]. ومن هنا دافع عنها المسلمون دفاعًا مستميتًا مما دفع القشتاليين إلى فك الحصار عن البلد.

ثم اتجه الملك القشتالى إلى شن العديد من الغارات فى أماكن متعددة من فحوص غرناطة مما أربك المسلمين إرباكًا شديدًا فتارة يغير على أرض الفخار وتارة فى أرض بليانة وتارة فى أرض رسانة وتارة فى أرض طفير وتارة فى أرض يعمور وتارة فى أرض الجدوى وتارة فى أرض رملة أفلوم وتارة فى أرض الربيط وتارة وادى منتيل وغير ذلك من المواضع التابعة لغرناطة[4].

وفى كل هجمة من هجمات القشتاليين كان يُثخن فيها المسلمون؛ فرسانهم وجنودهم بالجراح ويستشهد الكثيرون ولم تقتصر هذه التضحيات على المسلمين

(١) شنتفى هى santa fe هذا المكان صار مدينة عسكرية كبيرة سمتها الملكة إيزابيلا «سانتافيه» أى الإيمان المقدس. يقول الأستاذ عنان فى كتابه نهاية الأندلس ص٢٣٦: وذلك إشارة منها إلى المغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية وما زالت هذه المدينة قائمة حتى اليوم جنوب غرناطة.

(٢) قرية الفخار: هى من جملة قرى غرناطة وتقع فى شمال شرق غرناطة، وقد ذكرها لسان الدين بن الخطيب ج١ ص١٣١ وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع فى سفح جبل الفخار وهو أحد أقاليم فحص غرناطة الخمسة.

(٣) آخر أيام غرناطة. مؤلف مجهول. من رجال القرن التاسع الهجرى. تقديم الدكتور محمد رضوان الداية. . دار حسان للطباعة والنشر ص١١٨ .

(٤) آخر أيام غرناطة ص١١٩ .

فقط بل أصيب النصارى أيضا بأضعاف ذلك، وقد صبر المسلمون واحتسبوا ذلك عند الله وقلوبهم مملوءة بالثقة التامة بنصر الله تعالى وهم يقاتلون عدوهم -كما يقول شاهد العيان- بنية صادقة وقلوب صافية ومع ذلك يمشى منهم الرجال فى ظلام الليل لمحلة النصارى ويتعرضون لهم فى الطرقات فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم ورجال وغير ذلك.... «ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى والقتل والجراحات فاشيان فى الفريقين سبعة أشهر إلى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل ولم يبق منها إلا القليل، وفنى أيضا كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات»[1].

وقد اشتدت الكربة بالمسلمين فى تلك المدة التى فشت فيها الجراحات والقتل حتى هجر كثير من المسلمين قراهم متجهين إلى بلاد البشرّة لما نالهم من الجوع والخوف، وكانت تلك البلدة يعمها الخير الكثير عن طريق من أعلى جبل شلير، فكان يأتيها القمح والشعير والذرة والزيت والزبيب وغير ذلك من الفواكه والأغذية ولكن تبعًا للحصار الذى أحكمه ملك قشتالة أخذ الحال فى بلد بشرة يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل فصل الشتاء عام ٨٩٧هـ وقد تساقطت الثلوج بالجبل وقطع الطريق من البشرة فقل الطعام تماما فى أسواق غرناطة واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرا من الناس وكثر السؤال والعدو مقيم ببلده شنتفى -سالفة الذكر- مقر محلته، ولقد مُنع الفحص كله ومُنع المسلمون من الحرث والزراعة وأحكم ملك قشتالة الحصار على المسلمين حينئذ اجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ ومن بقى من أنجاد الفرسان وساروا جميعا إلى أمير مدينة غرناطة محمد بن على وأعلموه بحال الناس وما هم فيه من الضعف وشدة الجوع وقلة الطعام وأن بلدهم بلد كبير لا يقوم به طعام مجلوب، فكيف ولم يجلب إليه شيء، وأن الطريق التى كان يأتيهم عليها الطعام والفواكه من البشرة انقطعت وأن أنجاد الفرسان هلكوا وفنوا ثم قالوا له أيضا: إن إخواننا

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٠ .

المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا أحد، وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا، فهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا بلد لنا، وهذا فصل الشتاء قد دخل علينا ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت وقد قطع عنا الحرب؛ وإن تكلمنا معه الآن فقد يقبل منا الكلام ويعطينا كل ما نطلب منه؛ وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع وتنجلى الثلوج فسوف تجتمع عليه جيوشه ويزداد قوة فلن يعود يقبل منا ما نطلبه منه، ومما زاد الطين بلة أنه قد هرب لمحلته من بلدنا أناس كثيرون فسوف يدلونه على عوراتنا ويستعينون بهم علينا.

فقال لهم الأمير محمد بن على: انظروا ما يظهر وما تتفقون عليه للرأى الذى فيه صلاحكم، فاتفق رأى الجميع أن يبعثوا إلى ملك قشتالة ويتكلموا معه فى أمرهم. ويروى أيضا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده قد تقدموا مع النفر الموجهين لملك قشتالة، واتفقوا مع الملك وعادوا وقد أخفوا عن العامة هذا الاتفاق خوفا من غضبتهم وثورتهم وحينما وجد هؤلاء النفر أن العامة قد سكنت وهدأت بعثوا للملك بذلك فاطمأن ورغب فى توقيع المعاهدة مع المسلمين التى سميت بمعاهدة الاستسلام فى ٢١ من المحرم عام ٨٩٠هـ الموافق ٢٥/١١/١٤٩١م وقد تضمنت هذه الوثيقة ٢٧ مادة على ضرورة تسليم غرناطة قبل يوم ٢٥ يناير ١٤٩٢م للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا بعد دخولهم فى حكم النصارى واحترام دينهم وعاداتهم وعدم إجبارهم على وضع شارات خاصة وضمان الحكم بالشريعة الإسلامية وعدم إجبار أحد منهم على اعتناق النصرانية. وقد وردت بعض هذه الشروط فى كتاب آخر أيام غرناطة على النحو التالى:

١- أن يؤمنهم الملك على أنفسهم وبلادهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم

٢- لا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة.

٣- ومن أراد الخروج من غرناطة يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من المسلمين والنصارى.

٤- ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالمغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته فى مراكبه إلى أى أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شىء يلزمه لمدة ثلاث سنين.

٥- ومن أراد الإقامة بغرناطة من المسلمين فله الأمان على نحو ما ذكر[١].

وقد كتب لهم ملك قشتالة بذلك كتابا وأخذوا عليه، عهودا ومواثيق فى دينه مغلظة على أنه يفى لهم بجميع ما اشترطوه عليه، فلما تمت هذه العهود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة ولما سمعوا ما فيها اطمأنوا إليها وانقادوا لطاعته وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لصاحب قشتالة وسمحوا له فى الدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة بإخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لاستلامها.

وفى اليوم الثانى من ربيع الأول من عام ٨٩٧هـ أقبل ملك قشتالة بجيوشه حتى قرب من البلد، وبعث فرقة من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وبقى هو مع بقية الجيش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر، وكان الملك حين توقيع الاتفاق قد أخذ من المسلمين خمسمائة رجل رهينة ليطمئن عند دخول المدينة وأقعدهم فى محلته، فلما اطمأن من المسلمين ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد ودخول الحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقى هو أيضا خارج البلد وشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك بها قائدا من قواده وانصرف راجعا إلى محلته، وأخذ يمد المدينة بالدقيق والعلوفات وأنواع الطعام وما يحتاجون إليه وجلب إلى البلد قوادا وحكاما وبوابين، وصار المسلمون يختلفون إلى المحلة للبيع والشراء وأخذوا يتعاملون مع النصارى بطريقة سلمية[٢].

وقد ذيلت المعاهدة بتأكيد من الملكين الكاثوليكيين ضامنين لدينهما وشرفهما القيام بكل ما يحتويه العقد ثم ذيلت بتأكيد جديد موقع من ولى العهد وسائر عظماء المملكة الأسبانية باحترام المعاهدة من الآن وإلى الأبد.

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

ويروى أنه قد وقعت معاهدة أخرى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة يضمن فيها الملك القشتالى وزوجه حقوق امتيازات ومنح السلطان أبى عبد الله وأفراد أسرته وحاشيته حق ملكية أبدية لمنطقة البشرة حول أندرش وعذرة كما يعطيه منحة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى وأن يحتفظ بأملاك أبيه أبى الحسن[١].

وقد قرر السلطان أبو عبد الله ورجاله تسليم غرناطة قبل التاريخ المتفق عليه خوفا من غضب شعب غرناطة فاتفق على تسليم مفاتيح قصر الحمراء وبوابات مدينة غرناطة بتاريخ ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م، وقد تم تسليم الحاضرة الإسلامية للأندلس بقصورها وأربادها ومساجدها وأسواقها ومدارسها وأهلها للعدو الحاقد فى نفس اليوم، وبعد أن سلم أبو عبد الله المفاتيح تقدم إلى الملك ليضع بين يديه خاتمه الذهبى الذى كان يبصم به المراسيم والقرارات وكان ذلك فى يوم حزين قد غاض فيه ماء العروبة والإسلام وغربت شمسه إلى الأبد، وكان أول عمل قام به الكردينال عند دخول الحمراء هو نصب الصليب فوق أبراجها وترتيل صلاة الحمد الكاثوليكية وانتقل أبو عبد الله وأهله بعد أن أكد ولاءه للملكين الكاثوليكيين إلى مقامه الجديد إلى حين[٢].

حينئذ أمتطى أبو عبد الله الصغير صهوة فرسه وقد ارتعدت فرائصه موليًا ظهره لقصر الحمراء الشهير وقد تقطب جبينه وانعقدت سحابة الحزن على أسارير وجهه وانطفأ وهج الحياة أمام ناظريه وقد خيم على الركب المرافق له صمت كئيب لما اكتنف القلوب من الغم والكرب الشديدين، ومضى أبو عبد الله تتبعه أمه وأهله وأقاربه وصحبه فى ركب حزين متجها نحو مقر منفاه فى وقت قد كسفت فيه الشمس فمالت إلى الغروب وألقت بأشعتها على جدران قصر الحمراء التى بكت

(١) محمد عبد الله. التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين. عمان الأردن. عام ١٩٨٠م.

(٢) انظر هذه المواقف فى التنصير القسرى لمسلمى الأندلس مرجع سابق، نهاية الأندلس لعبد الله عنان، الصحوة الإسلامية فى الأندلس بذورها ومسارها للدكتور على المنتصر الكتانى.

أهلها وأصحابها. ولم لا فهى صائرة إلى المجهول وسوف يفارقها أهلها إلى الأبد.

وقد تذكر أبو عبد الله قصور الحمراء فتلفت إليها وهو على مرتفع من الأرض فرأى غرناطة ورأى بيوتها البيضاء الجميلة فألقى عليها نظرة وداع أخيرة وفاضت عيناه بالدمع فقد عزت عليه تلك المدينة وحدائقها الغناء ومسرح صباه ومرتع شبابه فاعتصر قلبه حزنا وانهمرت الدموع من عينيه، فحاول جاهدا أن يخفيها عن أمه التى ترقبه والحسرة تملأ قلبها فقالت له قولة صارت مثلا وهى: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال» وقد بقى ذلك المكان إلى يومنا مزارا للسياح يسوقهم سكان المنطقة إليه وقد أطلقوا عليه زفرة العربى الأخيرة.

أسباب سقوط غرناطة:

لقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ذلك السقوط الشنيع ومنها:

١- المنازعات الداخلية والصراعات المختلفة حول الحكم فى الأسرة المالكة مما أدى إلى انشغال الحاكم ووزرائه وقواده بتلك الفتن التى لا نهاية لها، وفى سبيل شهوة الملك يضحى بكل شىء ويضحى بقطع أجزاء من الوطن وبدفع جزية مالية مرهقة.

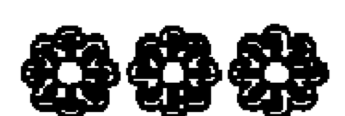
٢- استعانة حكام المسلمين بالعدو الأسبانى ملك قشتالة، وقد كان لذلك الملك الأثر الكبير فى إشعال الخصومة بين أمراء المسلمين فقد مال إليه ابن الأحمر وساعده فى حصار أشبيلية ومكنه من اقتطاع كورها، مما أدى إلى زوال ملك بنى هود. ولا غرو بعد ذلك أن نرى الدائرة تعود لتمسك بتلابيب ابن الأحمر الذى اضطر إلى تسليم غرناطة عندما شعر بضعفه أمام قوة قشتالة الناشئة، وهكذا كان الاتصال بالأجنبى وبالا على المسلمين وعلى هؤلاء الحكام وكأن التاريخ يعيد نفسه إذ نرى هذه الخصلة الرديئة لا تفارق ملوك وأمراء العرب اليوم.

٣- وقع المسلمون فى خطأ عسكرى كبير وعلى ما يبدو أنهم قد أجبروا عليه وهو أن الحصون والقلاع التى كانت تذود عن الحمراء وتدافع عنها من أى جهة سلمت للأعداء، وكان هذا شرطًا أساسيًا من شروط ملك قشتالة عند عقد معاهدة بينه وبين ملوك المسلمين، وقد أدى سقوط الحصون إلى ضعف حامية غرناطة ومن ثم زلزلة كيان المسلمين وازدياد قوة النصارى آنذاك.

٤- كما يلاحظ من خلال جبهتى المسلمين والنصارى أن كلا منهما قد تطورت عكس الأخرى، فبينما توحدت قوى قشتالة وليون وغيرها تحت إمرة ملك قشتالة نرى أن ملوك المسلمين قد انشغلوا بالشهوات والانكباب على الملذات وشرب الخمر وحفلات الغناء وإنشاب الفتن فيما بينهم.

٥- وكان من أسباب سقوط غرناطة أيضا أن اعتلى العرش بعض الملوك الخونة الذين باعوا ضمائرهم أمثال الزغل والملك أبى عبد الله الصغير فقد باعوا البلاد وأضاعوا مصالح العباد فى سبيل محالفة الأعداء.

٦- وقد ترتب على تسليم غرناطة أن الملك أبو عبد الله الصغير ظن أنه بالاتفاقية التى توصل إليها مع النصارى قد حفظ للمسلمين حقوقهم وأنه وصل إلى أحسن الشروط لتسليم المدينة، ولم تكن هذه الشروط من قبل النصارى إلا ستارا لغدرهم وخيانتهم، وفى عام ٨٩٧هـ أمر فرديناند ملك قشتالة أبا عبد الله الملك الصغير بمغادرة الأندلس وأذن له وأعد المراكب لكثير ممن أراد العبور معه، فعبرت به إلى مدينة فى المغرب ثم نزح منها واستقر فى مدينة فاس وتوفى عام ٩٢٤هـ.



الفصل الرابع:

من قضايا الموريسكيين بعد تسليم غرناطة

أولاً: التنصير القسري ومحاكم التفتيش

ثانياً: طلب النجدة من مسلمي الشرق

ثالثاً: تشتيت الموريسكيين وطردهم الجماعي من أسبانيا

رابعاً: هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟



أولاً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش



لقد اطمأن المسلمون فى غرناطة إلى وعود ملك قشتالة حيث سمح لهم الجواز إلى بر العدوة المغربية وأتاهم بالمراكب إلى الساحل وصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره، وكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه بأقل الأثمان بل بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه، ومنهم من اشتراه من المسلمين الذين عزموا على الدّجن[1]، ومنهم من اشتراه من النصارى، وبعدما يتم البيع يرحلون إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى فى البحر محترمين مكرمين مؤمنين ويجوزونهم إلى عدوة المغرب فى أمن واطمئنان. ويقول شاهد عيان لهذه الفترة: كان ملك قشتالة قد أظهر للمسلمين فى هذه المدة العناية والاحترام ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيدا ذلك ليغررهم ويثبطهم عن الجواز إلى البحر، فوقع الطمع لكثير من المسلمين وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة أنيقة وعزموا على الجلوس مع النصارى[2].

وقد أصاب عدوة المغرب فى فاس وإغمات وتلمسان فى ذلك الوقت شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع شديد وطاعون مستشر واشتد الأمر بمدن هذه العدوة؛ حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر، ورجع بعض المسلمين من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة فامتنع مسلمو غرناطة عن الجواز وعزم أغلب المسلمين على الإقامة والدجن، كما أن النصارى من جهة أخرى قد رجعوا فى عهودهم وامتنعوا عن حمل المسلمين والجواز بهم إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك قشتالة أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن

---

(١) الدجن أو التدجن: هو مصطلح أطلق على المسلمين الذين بقوا فى غرناطة تحت حكم الأسبان ثم تنصروا بعد ذلك بالإكراه.

(٢) آخر أيام غرناطة ص١٢٧.

والاستيطان والمقام فى غرناطة أخذ فى نقض الشروط التى أخذها على نفسه ولم يزل ينقضها شرطًا شرطًا إلى أن نقضها جميعا، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة، واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الأذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذاك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه، وكان ذلك سنة ٩٠٤هـ فدخلوا فى دينه كرهًا وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرًا إلا من يقولها فى نفسه وفى قلبه أو خفية من الناس[١].

وقضية التنصير القسرى كانت من أقسى القضايا الشائكة التى تبرز غدر النصارى بالمسلمين وقد انتدب ملك قشتالة الكردينال «خمينيس» لملاحقة الموريسكيين[٢]، إذ أساء معاملتهم وانتهك حرماتهم وحملهم على التنصير القسرى، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق في معاهدة التسليم، وظل هكذا إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال فى نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين وهبوا بانتفاضات عدة كما سنوضح بعد.

وجعلت النواقيس فى الصوامع بعد الأذان وأدخلت فى المساجد الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى والقرآن[٣]. ويصف شاهد عيان المسلمين الذين دجنوا وبقوا فى الأندلس لعدم مقدرتهم على الرحيل «قلوبهم تشتعل نارا ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا مدرارًا، وينظرون أبناءهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب[٤].

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٩، ١٣٠

(٢) هم المسلمون المدجنون الباقون تحت ظل دولة قشتالة وأراغون الموحدة.

(٣) آخر أيام غرناطة ص١٣١.

(٤) المصدر السابق ص١٣١.



وقد تولى خمينيس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الأسبانية مهمة تنصير مسلمى الأندلس كما قلنا سابقا، وكان من أشد أهل الأرض عداوة للإسلام والمسلمين، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق وهو ما عرف بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥هـ وكان أن جمع كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت فى ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين وقطع صلتهم عن التراث العربى الإسلامى وعن علومهم الشرعية، وكانت العداوة الصليبية المستقرة فى قلوب الأسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان أسبانيا لاستئصال شأفة الأمة الأندلسية المسلمة، ومن ثم ظل الموريسكيون «وهم المسلمون الذين اضطروا إلى البقاء وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام والذين يسمون أيضا بالمدجنين» موضع ريب وشك من جانب الكردينال خمينيس وديوان التحقيق، فعمل هذا الطاغية على الزج بآلاف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش حيث آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين يظهر من خلالها حنينهم إلى الإسلام أو اللغة العربية يتم تعذيبهم وحرقهم وهم أحياء، وقد بلغت المأساة مداها بعدما أصدر شارل الخامس قرارا بمنع سفر الموريسكيين خارج أسبانيا باعتبارهم نصارى ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه.

اندفعت أسبانيا فى محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم لتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك أسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار فى تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التى عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت[1]، وإقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية بأسماء

(١) محمد عبد الله عنان. «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين». ص٣٥٤، ٣٥٥ الطبعة الثالثة. القاهرة.

عربيـة، كمـا حولت جـميع المساجـد إلى كنائس[١]، ومنع المسلمـون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش فى أحيـاء خاصة وارتداء ألبسة معينة وأن يحملوا شارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفـضة والأحـجار الكريمـة، وأمروا أن يـسجـدوا فى الشوارع مـتى مر كـبيـر الأحبار[٢]، وسلطت عليهم أقـسى أنواع العقوبات إذا لوحـظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى أبسط مظاهره وعاداته. وقد كان المسلمون آنذاك يشكلون سـيطرة على الاقتـصاد الأندلسـى فى غرناطة بفـضل نشاطهم وذكـائهم وخبـرتهم فى تصريف شئـون التجارة والزراعة وازدهـارها على أيديهم، وقد أثار نجـاحهم هذا، حـقد النصـارى عليـهم الذين اتهمـوهم بالتـآمر ضـد أمن الدولة خصـوصا وهم الحلفاء الطبيـعيون لإخوانـهم قراصنة «شمال أفـريقيا» كمـا كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيـعى فى مـثل هذه الـظروف أن يتـجـه الموريسكيـون إلى الثـورات والانتفاضات فى أغلب المدن التى بها أقلية إسلامـية وخاصة فى غرناطة وبلنسية، وقد أقمـعت تلك الثورات دون رحمة ولا شفـقة، واتخذت وسيلة لتـعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يلتجئ الموريسكيون إلى ملوك الإسلام فى المشـرق والمغرب لاستنجادهم وأن تتكرر دعـواتهم وإرسال وفودهم برسـائل إليهم للعـمل على إنقاذهم مما يـعانونه من الظلم، وخـاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى أصدر ضدهم قرارات ظالمة.

وقد أرسل أهل غـرناطة فى منتصف سنة ١٤٧٧م سفـارة إلى استانبـول لافتين نظر السلطان العثمـانى محمد الفاتح إلى حالة المسلـمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم، كـما أرسل أهل غرناطة سـفارة إلى أحـد سلاطين المماليك فى مـصر «الملك الأشـرف» فى أواخر الـقرن الخـامس عشـر، مـستنجـدة إياه فى التـدخل

(١) المصدر السابق ص٣٥١.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٣، ٣٥٤.

لإنقاذهم مما يعانونه على أيدى ملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن أسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد بإتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه من المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم(١).

أما السلطان العثمانى بايزيد الثانى فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم.

أما نداءاتهم لملوك المغرب فقد تعددت مع مرور الأيام غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لأسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفوذ الأسبانى - البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال، وسوف يأتى الحديث عن رسائل أهل غرناطة إلى المشرق الإسلامى لتظهر من خلالها علاقة هذا المشرق الإسلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

كانت هناك شروط عند تسليم غرناطة للأسبان لم يلتزم بها النصارى مطلقا، وكانت هذه الشروط تقضى للمسلمين بالحرية التامة فى الدين واللغة وحقهم فى المحافظة على أموالهم وتقاليدهم، وأن تحسم قضاياهم من قبل قضاة مسلمين وكذلك السماح للمؤذنين بالأذان فى أوقات الصلاة. ويُمنع المسيحيون من دخول بيوت المسلمين من غير إذن.. إلى غير ذلك، ولكن النصارى الأسبان لم يحافظوا على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم ولم يجعلوا حرمة للشرف الملكى القشتالى، وقد عرف المسلمون ذلك فارتفع صوت من بين أهالى غرناطة يحذر المسلمين أن يستسلموا لتلك الشروط التى يتستر وراءها خداع الملك ونفاقه. إن هذا الفارس الشجاع هو موسى الذى خطب فى قومه قبل الاستسلام وتسليم غرناطة محذراً إياهم من مغبة الاستنامة لوعود الأسبان، ولما لم يجد آذانًا مصغية غادر

(١) راجع ابن إياس فى تاريخ مصر ص٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس ص٢١٢.

قومه قائلاً: «إنّه يفضل الموت بالسيف على أن يموت صبراً بيد لئام الأسبان أو يُجرع الذل والهوان على يد الشرك». وعندما خرج موسى من غرناطة اعترضته قوة من فرسان الأسبان فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها عدة منهم وسقط أخيراً من على فرسه مثخنًا بالجراح فقاتل بسيفه قائمًا على ركبتيه، ولما تكاثر الأسبان عليه ليفتكوا به رمى بنفسه من علو إلى النهر ولما كان مثقلاً بالدروع غاص موسى إلى قاع النهر ولم يعثر له على أثر. فضرب هذا الفارس المثل الأعلى فى الإباء والعزة والكرامة والشجاعة.

وقد صدق حدس موسى -رحمه الله- فلم يمض وقت قصير إلاّ والعهود قد نكثت الواحد تلو الآخر من قبل الأسبان حتى لم يبق منها شيء يذكر، وإذا بالمرحلة العصيبة الأخرى تمر على مسلمى الأندلس لتسدل الخاتمة على هذا التاريخ إلى يومنا هذا.

لقد عرفنا سابقا الشروط التى أبرمت فى معاهدة الصلح والتسليم التى تخص المسلمين من حيث إقامة شعائرهم وصلواتهم والبقاء على ديانتهم إلى غير ذلك من شروط، ولكن ملك أسبانيا قد حافظ على هذه العهود فترة من الزمن لشيء فى نفسه فلما رأى المسلمين متمسكين بعقيدتهم وبدورهم وبأعمالهم نراه يسارع لإلغاء تلك المعاهدة بندًا بندًا ويصدر القوانين التالية:

١- إجبار من بقى فى الأندلس من المسلمين على أن يتنصر أو يغادرها، وبناء على ذلك أصدر فرديناند عام ٩٠٥هـ بيانا بإغلاق المساجد وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم فى أى مكان، ومن ثم زاولت الكنيسة الكاثوليكية أساليبها لتنصير المسلمين.

٢- وفى عام ٩٣٥م أصدر الملك قانونًا يحرم على المسلمين التكلم باللغة العربية ومن ينطق بها يقتل، وبذلك حرم المسلمون من قراءة القرآن الكريم وحرموا من الاتصال بإخوانهم المسلمين بالخارج.

٣- وفى عام ٩٧٤هـ صدر قانون يحظر على المسلمين الاغتسال، فالنصارى لا يغتسلون وبذلك أوجبوا على المسلمين ألا يغتسلوا، فهدموا ما يزيد عن ثلاثمائة حمام من الحمامات العامة فى غرناطة وغيرها من الحمامات العامة فى مدن الأندلس، ومن اغتسل وشهد عليه شاهد فإنه يقدم إلى محاكم التفتيش لتعاقبه على جنايته.

٤- ثم صدر قانون بمنع الزى العربى من أن يتزىّ به من بقى عندهم من العرب وجعل القتل جزاء لمن يخالف هذا البند من القانون.

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين:

لقد كان سقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين فى أسبانيا نذيرا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الدينى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى، وقد كان ذلك السقوط مأساة ونازلة كبرى من النوازل التى حلت بأمتنا الإسلامية كنكبة بغداد عام ٦٥٦هـ وسقوط الخلافة العثمانية وقيام العلمانية إلى غير ذلك من نوازل اعتصرت القلوب وقرحت العيون.

والعجيب فى أزمة سقوط الأندلس أنها تبرز مدى الحقد الدفين الذى كان يحمله النصارى ضد الإسلام على وجه الخصوص، على الرغم من أن الإسلام هو الذى أقام تلك الحضارة التى ينعمون بها اليوم وذلك التقدم العلمى الرائع الذى يشهده الغرب، فلم يكن حكم العرب والمسلمين فى الأندلس احتلالا أو فرض وصاية أو حماية على الشعوب كما توصى به اليوم الأمم المتحدة فى معاملة الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وإنما كان رسالة حق ونور وهدى للعالمين قام بها المسلمون هناك، هذه الرسالة هى رسالة الإسلام التى جاء بها النبى محمد ﷺ وهى رسالة إنسانية عامة كان من نصيب أولئك المسلمين فى الأندلس أن يحملوا شرف تلك الرسالة وتوصيلها إلى شعوب أوروبا، كما كان لهم الشرف العظيم والأجر الجزيل على صبرهم أمام محاكم التفتيش والذين نصّروهم بالقوة وأطلقوا عليهم «المدجنين» أقبح لفظ فى الوجود، هذا اللفظ القبيح أطلقوه على هؤلاء المسلمين الشرفاء وفيهم الدعاة إلى الله والفقهاء والعلماء والأطباء.

وكانت مأساة المسلمين فى الأندلس من أفظع مآسى التاريخ حيث شهدت تلك الفترة وحشية فظة ارتكبتها محاكم التفتيش بهدف تطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، ومن تراثهم الذى ازدهر فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون، ومن ثم هاجر كثير من مسلمى الأندلس إلى الشمال الأفريقى بعد سقوط مملكتهم فرارا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الأسبان، وعادت أسبانيا إلى دينها القديم، أما من بقى من المسلمين فقد أجبروا على التنصر أو الرحيل -كما قلنا- وأفضت هذه الروح النصرانية إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، وقد انتهى ذلك الصراع بإعدام أمة ذات ماض عريق وحضارة إنسانية على أرض أسبانيا.

وكان لابد أن ينشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذى يدعمه العرش والكنيسة فى ارتكاب الفظائع ضد «الموريسكيين» المسلمين المتنصرين، وصدرت عشرات القرارات التى تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم. وقد أحرق الكردينال خمينيس عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية وصدر أمر ملكى فى يوم ٢٢ ربيع الأول ٩١٧هـ يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثا أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التى منعت التخاطب باللغة العربية، وانتهت بفرض التنصير الإجبارى على المسلمين، وحمل التعلق بالأرض والخوف من الفقر كثيراً من المسلمين على قبول التنصير ملاذًا للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهداً للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هى رحيل الإسلام عن الأندلس، وتوفى فرناندو الخامس ملك أسبانيا فى ١٧ ذى الحجة سنة ٩٢١هـ وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة، فنهض يختار المحققين ذوى الضمائر لكى يعملوا فى حزم لخدمة الدين الكاثوليكى من ناحية؛ وأن يعملوا على سحق طائفة محمد من ناحية أخرى، وقد عاش المسلمون زهاء عشرين عاما ينزل بهم العذاب والاضطهاد الذى تم على أيدى محاكم التحقيق «محاكم التفتيش» التى أنشئت بمرسوم بابوى صدر

عام ٨٨٨هـ، وعين بمقتضاه القس طوماس دى تركيمادا محققًا عامًا لهذه المحاكم الجديدة التى نظم لوائحها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطرف والإجراءات الصارمة من ديوان التفتيش استغاثوا بالإمبراطور شارل الخامس وبعثوا وفدًا منهم إلى مدريد ليشرح مظالمهم، فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة والقضاة للنظر فى شكوى المسلمين، وتقرر إذا ما كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه أم باختيار منهم حينئذ يعتبر صحيحا ملزما أى يحتم عقاب المخالف بالموت وقد أصدرت المحكمة قرارها بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه فكانوا بذلك أحرار فى قبوله، ومن هنا صدر أمر ملكى للذين تنصروا يجبرهم على البقاء فى أسبانيا باعتبارهم نصارى وأن ينصر كل أولادهم فإذا ارتدوا عن النصرانية قضى عليهم بالموت أو المصادرة.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا فى تلك الأيام الرهيبة التى ساد فيها إرهاب محاكم التحقيق، وكانت لوائح الممنوعات تزداد تباعا واشتملت على أوامر غريبة منها على سبيل المثال حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال وارتداء الملابس العربية، وقد نفذت هذه القرارات بكل قسوة وقد أقبلت محكمة التفتيش فى غرناطة على ضبط بعض المخالفات وبناء على ذلك أحرق اثنان من المخالفين فى شوال ٩٣٦هـ فى احتفال دينى.

وكان المسلمون الموريسكيون يحاولون بكل وسيلة إزاء تلك القرارات المتعسفة أن يستبقوا دينهم وتراثهم، فكان على الرغم من دخولهم فى النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، ولما فطنت الحكومة الأسبانية إلى ذلك وأدركت أن إحياء اللغة العربية فى ذلك الوقت هو تدعيم للروح العربية الإسلامية؛ لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٢هـ أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين مما اضطر الموريسكيون إلى أن يدفعوا لهذا الملك مائة ألف دوقه حتى يسمح لهم بالتحدث

بالعربية. ولكن لم يدم ذلك طويلا إذ أصدر الإمبراطور فيليب الثانى سنة ٩٦٤هـ قانونًا جديدًا يحرم التخاطب بالعربية وفرضت القشتالية بديلا لها كلغة تخاطب بين الموريسكيين، ومع ذلك لم يعدم هؤلاء المسلمون وسيلة للتخاطب ولتفكيرهم فاخترعوا لغة جديدة حيث كتبوا اللغة القشتالية سراً بأحرف عربية وأسفر ذلك عن خلق لغة جديدة هى أليخميادوا وهى تعريف أسبانى لكلمة الأعجمية، وظلت هذه اللغة قرنين من الزمان سراً مطموراً، وبذلك تمكن هؤلاء المسلمون أصحاب العقيدة الحية أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتبًا عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن باللغة الأخميادية، وكذلك سطروا بها سيرة النبى ﷺ، وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى فتى أميرالو وهو مؤلف لكتب التفسير وتلخيص السنة، ومن الشعراء محمد ربدان الذى نظم كثيرا من القصائد والأغنيات الدينية وبذلك تحصن الموريسكيون بمبدأ التقية وصمدوا فى وجه مساعى المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية فى الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسكيين فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات[1].

وتشير الروايات السابقة إلى أساليب شنيعة للتعذيب اتبعها رهبان محاكم التفتيش منها حرق ضحاياهم وهم أحياء، وشيهم كما تشوى الأنعام، أو يوضع الرجل فى حفرة ثم يأتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، وقد كانت هناك حجرات للتعذيب لم يعرفها أحد وقد اكتشفت مؤخرا لها أبواب خفية تفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وحينما فتح الباب على أيدى الجنود الفرنسيين الذين كانوا فى إحدى الدوريات لحفظ الأمن إذا بهم يكتشفون تلك الحجرة فقد ظهر لهم فجأة سلم يؤدى إلى باطن الأرض وعندما هبط الضابط الفرنسى هو وجنوده على درج السلم حتى وصلوا إلى آخر الدرج فإذا بهم يجدون غرفة كبيرة مرعبة وهى قاعة المحكمة فى وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة

(١) محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها، وأمام هذا العمود كانت المصطبة التى يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهوا بعد ذلك إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التى امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض. يقول ذلك الضابط الفرنسى: «رأيت فيها ما يستفز نفسى ويدعونى إلى القشعريرة والتقزز طيلة حياتى، رأينا غرفًا صغيرة فى حجم جسم الإنسان بعضها عمودى وبعضها أفقى، فسجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت أما سجين الغرف الأفقية فيبقى فيها ممددًا حتى الموت وتبقى الجثث فى السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان. ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة فى الفضاء الخارجى وقد عثر الجنود فى هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها وكان السجناء رجالا ونساء تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين. وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم وهم فى الرمق الأخير من الحياة، وكان بعض هؤلاء السجناء قد أصابه الجنون من كثرة ما عاناه من عذاب، وكان السجناء جميعهم عرايا، ثم انتقل الجنود بعد ذلك إلى غرف أخرى وجدوا فيها ما تقشعر له الأبدان إذ عثروا على آلات رهيبة للتعذيب منها آلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى، وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًا حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء. ومن وسائل تعذيبهم أيضا هو ذلك الصندوق وهو فى حجم رأس الإنسان تماما يوضع فيه رأس الذى يراد تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل حتى لا يستطيع الحركة وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس ذلك المسكين بانتظام، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب. ومن وسائل التعذيب أيضا تابوت تثبت فيه سكاكين حادة يسمى تابوت السيدة الجميلة حيث يلقى فيها الشاب ثم يطبق عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره فإذا أغلق مزق جسم المسكين وقطعه إربًا إربًا، كما عثر هؤلاء الجنود

الفرنسيون على آلات كالكلاليب تغرز فى لسان المعذب ليخرج اللسان معها ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس فى أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين إلى غير ذلك من آلات تعذيب تقشعر لها الأبدان وتتفتت لها الأكباد. وقد وصل خبر هذه الآلات إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًا وسحقت سحقًا، وأمسكوا بكاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق وهكذا فعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان[1].

وعلى الرغم من ذلك الاضطهاد الذى مارسه النصارى ضد مسلمى الأندلس «الموريسكيين» فإنه كان منهم فئات عضت على دينها بالنواجذ وامتنعت عن التنصير ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت فقاموا بالثورات ضد نصارى قشتالة. ويروى شاهد عيان إبان تلك الفترة أن أهل قرى ونجر والبشرة وأندراش وبَلافيق قاموا بثورة عنيفة إلا أن ملك قشتالة جمع جموعه وأحاط بهم من كل ناحية حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد؛ فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم ونصرهم واستعبدهم[2].

أما ثورة غرب الأندلس فقد كانت عنيفة، وقد تمسك بها المسلمون ممتنعين عن التنصير، فصمدت وكبدت القشتاليين خسائر فادحة فيروى ذلك الشاهد الذى عاصر تلك الأحداث أن هؤلاء النفر قد انحازوا إلى جبل منيع وعر واجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه، فجمع عليهم ملك قشتالة جموعه وطمع فى الوصول إليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده

(١) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى، محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين -ليونارد باترك هارفى، تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى. نبيل عبد الحى رضوان. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى. مكة المكرمة طبعة أولى. اعتمدنا فى الحديث عن وسائل التعذيب على موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. . محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس إعداد فراس نور الحق http://ar.wikipedia

(٢) آخر أيام غرناطة ص١٣٢.



على عقبه ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة لأنهم اعتصموا بدينهم والتمسوا النصر من الله على الرغم من قلتهم، ويقول الراوى: إن هذه الفئة المسلمة قتلت خلقًا كثيرًا من رجال وفرسان وكونتات قشتالة، وتذكرنا الفئة المسلمة المتمسكة بدينها بأصحاب الأخدود حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١- ١٠] كما تذكرنا تصرفات هؤلاء النصارى بغدرهم وخلفهم للوعد وكرههم الشديد للمسلمين حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٧- ٩].

إن هؤلاء الموريسكيين صبروا كثيرا على الأذى وتحملوا فى سبيل دينهم الكثير والكثير وواجهوا جرائم محاكم التفتيش التى فتكت بأجسامهم وأهليهم وابتلوا ابتلاءً شديدًا، وإنى بهم لأتذكر قول النبى ﷺ فى الحديث المروى عن خباب قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمرًا وجهه فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت ما**

يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون»[١] وهكذا ابتلى مسلمو الأندلس وصبروا واستنصروا الله فلم يستطع ملك قشتالة هزيمتهم أو أن يقضى عليهم، فقد قتل من جنده الكثير والكثير، فلما رأى أنه غير قادر على تلك الفئة المسلمة طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمَّنين فوافقوا على طلبه وقام بنقلهم إلى عدوة المغرب إلا أنه لم يسمح لهم بشىء من متاعهم غير الثياب التى كانت عليهم، وبعد هذه الفعلة خمد أمر المسلمين ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الإسلام آنذاك وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الأندلس نور الإسلام والإيمان! فعلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون. فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢].



(١) صحيح وأخرجه البخاري ومسلم.

(٢) انظر آخر أيام غرناطة ص١٣٢.



ثانياً: طلب النجدة من مسلمى الشرق

وثيقة من الدولة العثمانية إلى مسلمى أسبانيا والجزائر:

تعريب الوثيقة

لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم وكيف أن الكفار الضالين ذوى الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمنعونهم من التخاطب باللغة العربية، ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم، ويوجد الآن عشرون ألفًا من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف، كما هو مقرر وثابت، وفى صورة وصول هذا المقدار من السلاح إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عزيمة الناس، وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عديدة والحمد لله الذى يجعل أهل الإسلام ينتصرون دوما على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه فى عرض حالكم مفصلا، قد وصل إلى علم سيادتنا، وأن كل ما يتعلق بكم قد بلغ إلى شريف وشمول علم سلطاننا الذى يحرص دوما على إظهار الاهتمام والعطف لجانبكم.

إلا أنه فى هذا الظرف بالذات وبالقرب من ممالكى تقع جزيرة قبرص والتى يرجع الفضل إلى أجدادى العظام منذ زمن بعيد لعقد معاهدة أمان معها، غير أن الكفار أصحاب الجزيرة نقضوا ذلك العهد.. باعتدائهم على كل أهالى الإسلام وسائر طوائف التجار عندما تخلص نيتهم للتحول والطواف ببيت الحرام وزيارة قبر حضرة الرسول سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، مقرين بذلك العصيان والطغيان.

قد اعتمدنا وتوكلنا على عناية الله، واستنجدنا وتوسلنا بمفخرة الموجودات، ذى البركة العميمة صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك استعنا بأصحابه البررة الشرفاء رضوان الله عليهم أجمعين، وفى الربيع السعيد نتيجة لتلك الآثار عزم سلطانى

وقرر الاستيلاء وفتح الجزيرة المذكورة إذ حق جلالته السامية بين فى ذلك. وإذا تيسر فتح الجزيرة المذكورة بسهولة وأصبحت فى قبضتى وتحت تصرفى وصار أهالى الإسلام كما هو الحال فى الماضى يقومون بتكاليف الشرع الحنيف وعموم الزائرين والتجار أصبحوا آمنين وسالمين، عندها يقوم الأهالى بالدعاء لدوام الدولة وثبات مجدها، وكذلك فى الدعاء لرفعتى. وأنه لتحقيق ذلك هيأنا عددًا من السفن الضخمة والعساكر المنصورة ووجهناها إلى الجزيرة المذكورة بدون أى تأخير، وإن شاء الله يكون فى عزمنا ونيتنا توجيه أسطولى المظفر إلى تلك الجهة، إذ ذلك من الأمور المهمة الأساسية، وإننا الآن فى حالة استعداد وتحضير. وقد وجهت أمرًا همايونيًا مؤكدا إلى بيلرباى الجزائر فسيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية وغيرة فى الدفاع على الدين المبين وعدم تركعكم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار -أذلهم الله- إذ أنكم أبديتم كل أنواع الإقدام والشجاعة وحتى يكون النصر ميسرًا لنا فى ذلك الجانى فإن العلماء والصلحاء وسائر أهل الإسلام سوف لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك وإن لا تبخلوا عن إعلامنا دائما بأحوالكم وأوضاعكم فى تلك الجهة.

سلم هذا الأمر إلى الشاويش خليل فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ[(١)]

رسالة أهل غرناطة إلى ملك مصر:

كما أرسل مسلمو أسبانيا سفارة إلى سلطان مصر الملك الأشرف فى أواخر القرن الخامس عشر، مستنجدة إياه فى التدخل لإنقاذهم من الملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن أسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٢٥. وانظر أصل الوثيقة المكتوب باللغة التركية فى قسم الوثائق فى آخر الكتاب.

المسيحـيين إذا لم يكف ملك قشتـالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعـتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم[1].

أما السلطان بايزيد الثانى فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم.

أما طلب النجـدة والاستغاثة من مـلوك المغرب فقد تعـددت مع مرور الأيام غير أن الأوضاع الداخليـة التى كان عليها المغرب وخضـوع بنى وطاس لأسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفـوذ الأسبانى -البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القـيام برد فعل حازم وفعال وسوف يأتى الحديث عن تلك الرسائل لنظهـر من خلالها علاقة المشرق الإسـلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

على أن النجاح السـريع الذى عرفته الإمـبراطورية العثمـانية فى كل من أوروبا وأفريقيـا ومدى الانتصارات الحربية الـتى حققها السلطان سليم وسليـمان القانونى على الجيوش الأوروبيـة الحليفة آنذاك، وسقوط عدد من العـواصم الأوروبية، قد أعطى أبعادًا أخرى لهذا الصراع الذى واجهته الإمبـراطوريتان العثمانية والأسبانية، والذى اتخـذ شكل حرب دينيـة عقـائدية سـاعدت على إشـعال نار الصـراع بين الدولتين. على أن الانتصارات التى حققها العثمانيون والأهمية التى أصبحت عليها استانبول بعد فتح القسطنطينية، قد شجع عددا من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية.

كان الموريسكيون يتـتبعون باهتمام مـدى النجاح الذى حققه العثـمانيون وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر، وخاصة الجزائر التى أصبحت حصنًا منيعًا يلتجئ إليه المهـاجرون الأندلسـيون. إن وجود القـائد البحـرى خير الديـن برباروسا باى الجزائر فى العقد الثالث والرابع من القرن السادس عـشر ومدى النجاح الذى حققه فى ملاحـقة الأسـبان بالجـزائر، ثم تدميـره حصن البـينون سنة ١٥٢٩م فى تلك

(١) راجع ابن إياس فى تاريخ مصر ص٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس ص٢١٢.

الولاية وتشجيعه حركة إنقاذ مسلمى الأندلس. كل هذا قد جعل الأسبانيين يصرون على ملاحقة المسلمين أينما كانوا، وتشديد الحملات عليهم، وإقامة القلاع الحصينة على أرض أفريقيا الشمالية، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتئ البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لإنقاذ الموريسكيين من الأرض الأسبانية، كما كان هؤلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح(١).

وقد أظهر قادة أسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء ميليشيا لرد هجمات المغاربة الخطيرة بهدف إنقاذ الأقليات الإسلامية المبثوثة فى عدد من الولايات الأسبانية، وبالفعل كان نشاط خير الدين بربروسا فى هذا المضمار حاسمًا وفعالاً، وكان ذلك راجعًا لما يتمتع به من صفات فهو الذى عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة وتمسكه بالأصول الحربية التى اشتهر بها فضلا عن شخصيته القوية وما تمتع به من إرادة، وهذا أكسبه احترام أعدائه وخوفهم منه. إن نجاح حركة خير الدين البحرية وهجماته الموفقة على السواحل الأسبانية جعل الموريسكيين يستنجدون به لإنقاذهم كأهل بلنسية وغرناطة وغيرها، وكثيرا ما قام قواد أمثال صالح رايس وايدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة. ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبى أن خير الدين تمكن خلال سبع سفرات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الأسبانية لنقل سبعين ألف موريسكى خلال سنة ١٥٢٩م، ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذى قام به خير الدين لإنقاذ آلاف من مسلمي الأندلس إلى السواحل المغربية(٢).

إن نجاح خير الدين فى خلق هيكل دولة قوية بالجزائر، ثم المساندة المعنوية والعسكرية التى كان يلقاها لدى السلطان سليمان القانونى قد حثه على الاستمرار فى جعل المغرب قاعدة عثمانية لصد الهجوم الأسبانى، بل إن السياسة العثمانية كانت تهدف إلى إشغال جيوش شارل الخامس فى حوض الأبيض المتوسط الغربى،

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين فى الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٢٩.
(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣٠.



وهذا ما يفسر إقدام خير الدين أثناء رجوعه من استانبول منذ ١٥٣٤م على احتلال تونس وإعلانها ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية.

أدخل هذا الانتصار الخوف لدى البابا، وكذلك الإمبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدا مباشرا للمسيحية ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته من ناحية فضلا عن إعانة وتشجيع البحارة المغاربة للهجوم على السواحل الأسبانية، ونجدة مسلميها من ناحية أخرى، وبالفعل بذل شارل الخامس جهودا فى الاستيلاء على تونس وإبعاد خير الدين عنها وقد نجح فى ذلك. غير أن الخطة التى كان يحلم بتحقيقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كانت أوضاعها الداخلية، واستنجاد مولاى حسن الحفصى بشارل الخامس، قد ساهما بشكل كبير فى إنجاح الحملة، إنما كان جلّ هدفهم هو ضرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليها خصوصا وأن الشخصية القوية خير الدين قد دعيت إلى استانبول ليصبح قبطان دريا أى وزير البحر العثمانى، ولم يبق للإمبراطورية العثمانية على الساحل المغربى إلا الجزائر، وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التى أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانونى تجاه السواحل الأسبانية خصوصا بعد الأنباء الحزينة التى وصلته من أوروبا أثر نجاح جيوش السلطان سليمان فى الاستيلاء على مدينة بود وتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد. كان هذا الحدث بمثابة إهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الأوروبية[1]. أصر شارل الخامس إذن على التوجه بأضخم أسطول قام على إشرافه وإحضاره ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التى ظهرت فى القرن السادس عشر، وكان البحارة والجيش خليطًا من مختلف أصقاع الإمبراطورية الأسبانية، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر، واجتثاث العثمانيين من البحر الأبيض المتوسط وعزل فرنسا وقطع طريق النجدة إليها عن طريق حلفائها العثمانيين. وكان الأسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية وذلك بهدف قطع الطريق على رسل الموريسكيين إلى استانبول لطلب النجدة.

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣١.

ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على أسبانيا قد أثير فى بلاط مدريد[1].

إن إصرار شارل الخامس الشخصى فى اختيار زمن الهجوم من ناحية وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن أغا من ناحية أخرى، ثم نزول الأمطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة. كل هذا ألحق بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية منى بها فى حياته، وكان ذلك فى أواخر شهر أكتوبر ١٥٤١م، على أن نتيجة تلك الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة حيث أصبحت الجزائر أكثر أمنًا ورخاء وهبطت فيها الأسعار ونعم الناس بالطمأنينة، ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية فى مشارق الأرض ومغاربها، فأثارت رعب المسلمين فى قلوب الكفار مدة طويلة.

وقد ترددت أنباء تلك الهزيمة فى أسبانيا وكان وقعها شديدا على القادة ورجال الدين، إلا أن صداها لدى الموريسكيين قد كان مؤثرًا وبالغًا حيث جعلتهم يتطلعون إلى النجدة من السلطان العثمانى، وبالفعل ففى أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان سليمان القانونى، وعلى الرغم من تعدد رسائل الموريسكيين إلى السلاطين العثمانيين، حسب مختلف الروايات التركية والعربية والأوروبية إلا أنه قد عثر على نص من هذا القبيل[2]، وإن كان لا يتضح منه الاسم أو الأسماء التى قامت بتحرير تلك الرسالة، وعلى ما يبدو أن السبب فى ذلك هو الخوف من وقوع تلك الرسالة فى يد السلطة الأسبانية التى كانت تحرص دوما على بث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات، وأنها لتكشف عن معلومات ذات أهمية تاريخية، كعدد الموريسكيين الموجودين بالأندلس، وإعطاء صورة حية مؤلمة لما يلقونه من السلطة الأسبانية المسيحية آنذاك، ومدى الحيرة التى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣١.

(٢) المرجع السابق ص٣٢.

تمكنت منهم، ثم التأكيد على نشاط خير الدين وما قام به لإنقاذهم، ومطالبة السلطان سليمان القانونى بإعادة تعيينه بيلرباى الجزائر لأنه الشخصية الوحيدة القادرة على إنقاذهم من الهجومات الأسبانية.

فبخصوص عدد المورسكيين بالأندلس تضاربت الإحصائيات تضاربًا كبيرًا خلال القرن السادس عشر، وبالنسبة للمدن الكبرى كغرناطة آخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتلية وأراقون وغيرها، وقد جاء فى هذه الرسالة ما يلى: «إن عبيدك الفقرا «كذا» الغربا «كذا» المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفًا منهم من رسايلهم بغرناطة خمسون وغيرها بجزيرة الأندلس والباقى من عامة المسلمين.... » يتبين لنا أن ذكر هذا الرقم لا يدل قطعا على إعطاء رقم اعتباطى إجمالى، بل إن ذكر الأربعة آلاف بعد الستين ألفًا يوحى بمدى حرص محرر الرسالة وبلا شك إطلاعه على عدد الموريسكيين، على أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار إحصائية سكان أسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين[1] سنة ١٥٤١م، وهى السنة التى حررت فيها تلك الرسالة فلا نستغرب الرقم الذى قدمته هذه الوثيقة، ومما يساعد على تقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله عنان من أن سكان غرناطة وحدها بلغ ٤٠٠ ألف فى أوائل القرن السادس عشر، والمؤرخ شونو ٥٠٠ ألف، وأنطونيو بلستيرو ٧٠٠ ألف، ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ هنرى لابير أن المسلمين القاطنين سنة ١٦٠٩م بأسبانيا بلغ ٢٩٦ ألفًا أى حوالى ٣٠٠ ألف وأن الذين غادروا أسبانيا بلغ عددهم ٢٧٥ ألفًا. ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار الهجرات المتكررة من أسبانيا إلى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عدد السكان خلال ٦٨ سنة الفاصلة بين هذين التاريخيين. يتبين لنا إذن أن رقم ٣٦٤ ألفًا الذى قدمته هذه الوثيقة يمكن الاعتماد عليه، وأنه اليوم أقربها إلى الصواب والواقع[2]. ترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه الموريسكيون فى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٣.

عهد محاكم التحقيق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم، ولا أدل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الأليم والمفجع الذى اصطبغت به الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت إلينا عن هذا الموضوع.

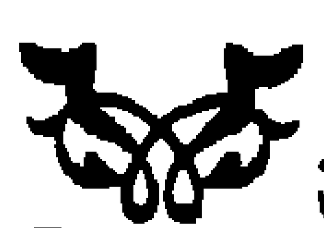
وقد تعددت نداءات النجدة لملوك المغرب الأقصى إلا أن التحديات والحملات التى ما فتئت السفن الأسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تدع مجالا لاتخاذ موقف أكثر فاعلية ونجاعة فى نظر الموريسكيين، على أن ذلك لم يمنع المهاجرين الأندلسيين المرابطين على السواحل المغربية من العمل على نجدة إخوانهم الأندلسيين.

على أن الذى يلفت انتباهنا فى هذه الرسالة هو إطلاع الموريسكيين الدقيق على الأحداث والحروب والنتائج وسرعة وصول الأخبار إليهم، إذ بعد شهر من هزيمة شارل الخامس وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه إلى إيطاليا بدلا من أسبانيا، وصل إلى علم الموريسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس أمام الجزائريين، واعتبروا ذلك نصرا من عند الله وقوى أملهم، وهذا ما يفسر تلقائيًا تحريرهم هذه الرسالة إلى السلطان سليمان القانونى واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذى أنجدهم عندما كان بيلرباى الجزائر.

إن هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هذه المدينة مغزى كبيرًا ورمزًا للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها «سياجًا لأهل الإسلام وعذابا لأهل الكفر والطغيان. . . وأصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة أليفة. . .»[1].



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٣٤.



ثالثًا: تشتيت الموريسكيين وطردهم الجماعى من أسبانيا

توالت النقمات على مسلمى أسبانيا واشتدت وطأة القهر، ففى عام ١٥٧٠م قرر المجلس الملكى الأسبانى تشتيت الموريسكيين وتوزيعهم على قشتالة[١]، وصدر قرار بمصادرة جميع أملاك المهجرين الثابتة، وسمح لهم بنقل أملاكهم المنقولة، وقد صدر ذلك القرار إذ اعتقد النصارى الأسبان أن تشتيت الغرناطيين على أنحاء قشتالة هو الحل الأنجع لإدماجهم فى المجتمع النصرانى. وقد حدد القائمون على أمر تهجير المسلمين سبعة مراكز للتجمع هى: «غرناطة، وبسطة، ووادى آش، والمرية، وبيرة، ومالقة، ورنده» وفى كل نقطة تجمع يوجد بها نقاط أخرى ثانوية توزع عليها الأفراد، وقد استمرت المرحلة الأولى من التجمع أسبوعا كاملا ذاق فيها مسلمو الأندلس أشد صنوف العذاب فتجمع فى هذه المرحلة ما يقرب من ٤٦ ألف شخص بينما فر الآخرون إلى الجبال[٢] يعتصمون بها من أجل المقاومة.

ثم ابتدأت مرحلة التهجير الثانية بنقل المهجرين نحو الشمال والغرب فى قوافل تتكون كل واحدة منها من حوالى ١٥٠٠٠ أندلسى و٢٠٠ عسكرى نصرانى تتبعها عربات تحمل أمتعة المهجرين، وقد عانى هؤلاء المهجرون إذ خاضوا أراضى واسعة مشيا على الأقدام تحت المطر والثلج أسابيع متواصلة، وقد مات منهم فى الطريق عشرهم تقريبا ووصل منهم ٢١ ألفًا إلى بسطة و٦ آلاف إلى طليطلة و٢٢ ألفًا إلى قرطبة و٥٥٠٠ إلى أشبيلية، أما المرحلة الثالثة من التهجير فقد ابتدأت قاسية عنيفة لأن المقصود منها هو تشتيت المسلمين من مراكز الوصول الأساسية إلى مراكز ثانوية.. ثم تبعتها المرحلة الرابعة بتوزيع المهجرين على المدن والقرى الثانوية مراعين أن تكون نسبتهم من السكان أقل ما يمكن، وهكذا تم تشتيت مسلمى أسبانيا ولم يبق منهم سوى حوالى ٣٣ ألف شخص يعانون من وطأة الجوع والفقر

(١) محمد عبده حتاملة «التهجير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملك فيليب» عمان الأردن عام ١٩٨٢م.
(٢) الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم جذورها ومسارها. دكتور على المنتصر الكتانى ص٤٧.

والمرض والبؤس وقد مات منهم ١٧ ألف شخص تقريبا ثم قررت الحكومة تهجير الغرناطيين إلى قشتالة، ولم تنته عمليات تهجير مسلمي مملكة غرناطة إلا سنة ١٥٧٤م وقد تم تهجير حوالى ٨٠ ألف غرناطى[1].

وفى شهر فبراير سنة ١٥٧١م صدر مرسوم ملكى بمصادرة أملاك الغرناطيين سواء أكان منهم المجاهدون أو المسالمون، وقد شملت تلك الأموال المصادرة المنقول وغير المنقول، وصارت جميعها ملكًا للملك ثم استقطب ما يقرب من خمسين ألف نصرانى مستوطن من الشمال ووزعت عليهم أملاك الغرناطيين، وعلى ما يبدو أن حركة الاستيطان تلك قد فشلت فشلاً ذريعًا إذ إن هؤلاء المستوطنين الجدد لم تكن لهم دراية بأعمال الزراعة ومن ثم رجع أكثرهم إلى قراهم فى الشمال، كما رجع لغرناطة أيضا عدد من المهجرين المسلمين وبقى فى غرناطة معظم مسلميها إما متسترين كنصارى أو مختبئين فى الجبال، وقد كان لهؤلاء الآخرين قدرة رائعة على القيام بأعمال فدائية ألقوا بها الرعب فى قلوب رجالات الكنيسة والمستوطنين الجدد والدولة بوجه عام، وقد شملت تلك الأعمال كل مقاطعات أسبانيا ولم تستطع الدولة القضاء على الفدائيين، إذ كانت هناك أكثر من فرقة فدائية تعمل بأساليب مختلفة للدفاع عن الإسلام والمسلمين مثل فرق «الزريق» فى قشتالة التى نشرت الرعب فى المرية، وكذلك فرق «بن المليح» التى جاهدت فى رنده. وحاولت الحكومة عبثًا تهجير الغرناطيين من منطقة الأندلس ولكنها لم تستطع تنفيذ القرار بل رجع أعداد كبيرة من المهجرين إلى مملكة غرناطة.

وحاولت الحكومة طرد الغرناطيين وقد وجدت معارضة شديدة ولكنها هجرت بعضهم قسرا إلى مناجم المعدن الرهيبة حيث كان يتعرض فيها الغرناطيون للموت بسبب أوضاعها السيئة.

والحقيقة أن حركة الجهاد التى قام بها الغرناطيون أزعجت السلطات الأسبانية سواء الحكومة أو الكنيسة وصاروا يخافون من تجمع الأندلسيين وخاصة مسلمى

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٤٨.

غرناطة عبيدًا أم أحرارًا فهى تسعى جادة لعدم تجمعهم إذ كانت تخشى من الاتصال الذى كان يتم بين مسلمى أراجون وشمال أفريقيا، هذا من ناحية، كما كانت الحكومة الأسبانية تخشى اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية من ناحية أخرى، لذا كانت تسرع لتشتيتهم كلما اجتمعوا.

ولكن كما يقولون رب ضارة نافعة، وقد أدى نقل مسلمى غرناطة وتشتيتهم فى قشتالة إلى إحياء الروح الإسلامية فى الجاليات الإسلامية المدجنة فى تلك الإمارة، إذ تم الاتصال بين أغلب مسلمى أسبانيا، وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين حين أدركوا روح الفداء وأحسوا بالرباط الأخوى الذى يربطهم جميعا، بل امتد أملهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد تمنوا إحياء الدولة الإسلامية فى الأندلس كما أذيعت أخبار انتصارات العثمانيين على النصارى وانتشرت الإشاعات هنا وهناك، وفى خضم هذه الأخبار اكتشفت الحكومة الأسبانية مؤامرة تخطط لإنزال متطوعين مغاربة على مصب الوادى الكبير[1]. ويقول الدكتور على المنتصر: إن حركة الجهاد قد نشطت بين المنفيين فى مناطق كثيرة مثل بشترنه وبطليوس وآبدة وأشبيلية، وحاولت الدولة تقييد تلك الحركات والحد منها وفرضت قوانين تفرض على كل بلدة تسجيل أوصاف المسلمين المنفيين ثم أصدرت قوانين صارمة لعقوبة كل من يتساهل فى ذلك أو يظهر عليه ارتباطه بالإسلام، كما قررت الكنيسة من ناحية أخرى أخذ جميع أطفال المسلمين لتربيتهم على تعاليمها النصرانية كما لجأت إلى بيع أعداد منهم كعبيد للنصارى، ثم تابع ديوان التفتيش مطاردة المسلمين المنفيين دون هوادة[2].

وعلى الرغم من تهجير بعض من أهل غرناطة إلا أنه قد انتقلت القيادة الإسلامية إلى مسلمى مملكة أراجون وقد وجد مسلمو غرناطة من إخوانهم فى أراجون مساندة ومعاونة تدل على أن الإسلام ما زال حيًا أثره، وأن أثره فى نفوسهم صار قويًا حيث اغتنم بعض النصارى حرب غرناطة وهجموا على المسلمين

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

لسلب أموالهم وسبى أبنائهم ونسائهم وبيعهم كعبيد وخاصة لاجئى غرناطة فكانوا يساقون إلى سوق النخاسة فيجتهد إخوانهم فى أراجون فى شرائهم لتحريرهم[1].

وقد زاد رعب حكومة أسبانيا بعد أن حرر العثمانيون تونس وحلق الوادى من يد الأسبان ١٥٧٤م خوفًا من إنزال قوة عثمانية فى مملكة بلنسية بمساندة المسلمين وبناء على هذا قرر الملك منع المسلمين من سكنى الشواطئ بمملكة بلنسية فأجلوا عنها إلى المناطق الداخلية.

وظل مسلمو أسبانيا طوال هذه الفترة لهم صلات قوية مع جهات ثلاث معادية لأسبانيا: الدولة العثمانية وهى أكبر قوة إسلامية فى البحر المتوسط، المملكة المغربية وهى الدعم الطبيعى لمسلمى الأندلس عبر التاريخ، وهوكونوا فرنسا الذين يشاركونهم فى عداوتهم للكاثوليك.

وقد عرفنا سابقا علاقة مسلمى الأندلس بالدولة العثمانية منذ سقوط غرناطة وقد تزايد أملهم فى نصرتها. وبعد انهيار ثورة غرناطة عام ١٥٧٠م عملت السفن العثمانية على حمل اللاجئين، ومن ثم تحول مركز المقاومة الإسلامية إلى بلنسية وقد شهدت الشواطئ الأسبانية إبان تلك الفترة ما يقرب من ٣٣ حملة، وقد شاعت أخبار تنم عن أن المسلمين يستعدون لثورة شاملة يقوم بها الغرناطيون ويساندهم العثمانيون بإنزال بحرى ولكن على ما يبدو أن ذلك الأمل لم يتحقق ولم يصل الأسطول العثمانى.

وهكذا تعددت الهجمات الفدائية وتمت تحالفات أكبر ضد أسبانيا بتأييد من فرنسا والعثمانيين، ولم يدخل القرن السابع عشر الميلادى حتى وصلت الكنيسة والحكومة الأسبانية إلى يأس تام من تنصير المسلمين، فانهزمت الكنيسة أمام عناد وثبات المسلمين على دينهم وارتعبت الدولة من حركاتهم الفدائية على الرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم، ولما أدرك الملك وحكومته قلة حيلته إزاء هؤلاء المجاهدين أخذوا يفكرون فى حل يشفى غليلهم فاقترحوا ثلاثة حلول:

---

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٠.

١- جمع الموريسكيين كلهم فى أحياء خاصة بهم.

٢- إفناؤهم جميعًا.

٣- أو طردهم خارج أسبانيا.

وقد ارتاح الجميع للحل الثالث سواء رجال الدولة أو رجال الكنيسة وابتدأت الفكرة تتبلور فى أذهانهم، فأمر الملك بتشكيل لجنة لدراسة وضع الدولة الداخلى والخارجى الناتج عن خطر الموريسكيين وتوصلت هذه اللجنة إلى توصية للملك بطرد جميع الموريسكيين خارج أسبانيا، ولم يأت هذا القرار عشوائيا إذ تدارست اللجنة مساوئ القرار ومحاسنه، فمن مساوئه انخفاض دخل الملك والنبلاء فى حالة طرد المسلمين وذلك لأن هؤلاء المسلمين هم عمد الاقتصاد سواء فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة، كما وجدوا لها مساوئ سياسية ودينية ولكن تهون تلك المساوئ إزاء الطرد فأصدر الملك فى ١٨ من يناير ١٥٨٥م أمرًا بطرد جميع الموريسكيين فى ظرف شهرين والحكم بإعدام كل متخلف، واستثنى القرار الأطفال من الطرد وقرر تسليمهم للكنيسة حيث تتم تنشئتهم على الدين النصرانى ولكن على ما يبدو تعطل تنفيذ القرار أملا فى تنصير الموريسكيين. وفى ٣٠ من يناير ١٥٩٩م قرر مجلس الدولة طرد الرجال الذين تفوق أعمارهم على ستين سنة وكذلك النساء، أما الباقون فقد أرسلوا للأشغال الشاقة فوق السفن مدى الحياة، وفيما يخص الأطفال دون ١٥ سنة فيسلمون للكنيسة ثم تتم مصادرة جميع أموالهم، وقد اقترح وزير الملك إعدام الرجال بين ١٥ و٦٠ سنة عوضا عن طردهم وتقوية جيوش الأعداء بهم ولكن على ما يبدو لم يطبق شيء من هذا القرار(١).

وبعد سنة كاملة نفذ هذا القرار حيث استند الملك إلى ثلاثة أسباب شجعته على إصدار قرار الطرد فقد اتهم الموريسكيين بالخيانة لتآمرهم مع فرنسا، والمغرب، وكذلك الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر وهو رعب الدولة من تكاثر الموريسكيين بالنسبة للنصارى. فالمسلمون لا يشربون الخمر ويتزوجون وليس فيهم

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٤.

كهنة ولا رهبان ولا يلتحقـون بالجيش، ومن ثم فإنهم يتكاثرون بسرعة ولكن هذه الشائعات كـانت خاطئة لأن الثورات التى قام بها المسلمـون قد قضت على أغلب شبابهم وأتت على الأخضر واليابس ولم تترك شيئًا يشجع على النسل.

وقد أدرك الملك أن الأوضاع الدولية مناسبـة آنذاك لتطبيق قرار الطرد؛ فالمغرب مشغول فى حروبه الدولية والدولة العثمانيـة مشغولة مع الصفويين وانجلترا عقدت معاهدة مع أسبانيا، وفرنسا لن تهاجم أسبانيا بمفردها.

وقد وقع الملك قـرار تنفيذ الطرد يوم ٢٢سـبتمـبر ١٦٠٩م واستـقر الرأى على طردهم إلى بلاد شمال أفـريقيا وإخراجهم جـميعا من مملكة بلنسيـة رجالا ونساء وأطفالا خلال ثلاثة أيام يقبض بعـدها على كل من تخلف، ويقتل كل من قاوم، وعلى مـسلمى بلنسيـة المكوث فى بيـوتهم انتظار تنفـيذ الأمـر ولا يسمح القـرار للمطرودين بحمل شىء سـوى أموالهم المنقولة التى يستطيـعون حملها شخـصيا؛ ويعدم كل مـن يخبئ ماله أو يتـلفه، وتسلم باقى الأمـوال للنبلاء ويسـمح القرار بإبقاء الأطفال الذين يودون البـقاء بشرط موافقة أوليائهم ويبـقى أيضا الموريسكيون الذين برهنوا على إخلاصهم للنصرانية.

وكان تقبل الموريسـكيين لقرار الطرد مختلفًـا، فمنهم من اعتبـره فرجًا من الله بينما رفض آخرون الخـروج وحاولوا الاختفاء، وإذا كان بعض المسلمـين قد أعدوا أنفسـهم للطرد إنقاذًا لدينهم وفق الخـيار السابق إلا أنهم أوذوا كـثيرا إذ صـاحبت عمليات الطرد جرائم كثيرة فمنهم من مُـنع من بيع منتجاته الزراعية، فقد صادرها النصارى وأعطيت لـلنبلاء؛ ووقفت فى الطرقـات عصابات النصـارى تسطو على المسلمـين وتجردهم مما يحـملون من حلى ومـال، وللأسف الشديد قـد شاركـهم الجيش الأسبانى فى النهب والسلب والقتل، ومما ضـاعف من مأساة المسلمين قرار الدولة بأن يتحمل الموريسكيون مصاريف ترحيلهم، وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد بل أغرق أصـحاب السفن النصارى كـثيرا من الموريسكيين فى البـحر للسطو



على أموالهم، وتحكى المراجع أنه رحل خلال ثلاثة شهور ما يقرب من ١٢٠ ألف مسلم، قد رحلوا متحملين تجاوزات النصارى وسوء المعاملة فوق السفن(١).

وفى شهر مايو سنة ١٦١١م صدر قرار قاس ينم عن الحقد الدفين للمسلمين ويقضى هذا القرار بالقضاء على المتخلفين من المسلمين فى بلنسية، ولكى يضمنوا سرعة التنفيذ قدروا جائزة ٦٠ ليرة لكل من يأتى بمسلم حى، وقد قدر من طرد من بلنسية بحوالى ١٣٠ ألف شخص.

ثم بعد ذلك قررت الدولة طرد مسلمى غرناطة ومرسية وجيان وباقى مدن الأندلس وقشتالة ومنطقة بطليوس؛ أما منطقة أراغون فإن المسلمين فيها قد أهملوا مزارعهم وأعمالهم، وباعوا ممتلكاتهم ورحلوا بعدما تأكد لهم رحيل المسلمين فى المناطق الأخرى، ويقدر عدد المطرودين من أراغون القديمة ما يقرب من ٦١ ألفًا وحكم على كل من يخالف بالأشغال الشاقة فوق السفن لمدة ست سنوات(٢).

وهكذا تم تهجير سائر المسلمين فى شتى ممالك أسبانيا وقد أحصيت أعداد من طرد من المسلمين من أسبانيا فى الحقبة بين سنتى ١٦٠٩ : ١٦١٤م أى فى مدة خمس سنوات تقريبا ما يقدر بحوالى ٣٢٧ ألف شخص، وقد تحملوا عنت النصارى ومصادرة أموالهم وحليهم وقتل الكثيرين منهم، وقد استقر معظم المهاجرين بالمغرب والجزائر وتونس، وهناك من المهاجرين من انتقل إلى البلاد الإسلامية الأخرى عبر فرنسا. ويقدر عدد الأندلسيين الذين دخلوا المغرب فى هذه الفترة بحوالى ٦٠ ألف شخص معظمهم من غربى الأندلس، واستقر منهم ١٠ آلاف أندلسى فى مصب وادى أبى رقراق وفى المناطق الشمالية كمدينة تطوان وشفشاون والقصر الكبير، وقد عمل هؤلاء المهاجرون الذين نزلوا مدينة الرباط على تعميرها كما استقرت أعداد منهم فى فاس أيضا.

---

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٨.

(٢) المصدر السابق ص٥٨، ٥٩.

ويقدر عدد المهاجرين إلى الجزائر بحوالى ٦٥ ألف شخص معظمهم من مملكتى بلنسية وأراغون القديمة، وقد تم تهجيرهم من خلال فرنسا واستقبلتهم السلطات العثمانية أحسن استقبال، وكذلك أهالى الجزائر وتلمسان وبجاية، وقد استقر فى تونس ما يقرب من ٥٠ ألف شخص معظمهم جاءوا إليها عن طريق فرنسا، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون فى تعمير تونس وخاصة فى المناطق الخالية حيث نهضت الزراعة والمهن الأخرى.

وبصفة عامة فإن عدد المهاجرين إلى الشمال الأفريقى كان يقدر بـ ١٨٠ ألف شخص تقريبًا.

وانتقل عدد من الأندلسيين عبر فرنسا وإيطاليا إلى الأراضى العثمانية والمشرق، وقد تدخل السلطان العثمانى أحمد الأول مع حكام فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لتسهيل انتقالهم إلى الأراضى التركية فاستقر بعضهم فى البوسنة وبعضهم بسلانيك وآخرون بالقسطنطينية ومنهم من توجه إلى بلاد الشام واستقروا فى دمشق والساحل اللبنانى، ويقدر عدد المستقرين فى الأراضى العثمانية بصفة عامة ٤٠ ألف أندلسى وقد هاجر حوالى ١٠ آلاف أندلسى إلى البلدان الأوروبية فى أوروبا وعلى وجه الخصوص فرنسا وأمريكا.

ويمكننا أن ننهى حديثنا عن قضية طرد الموريسكيين بأنه قد هاجر منهم ما يقرب من ٢٣٠ ألف شخص واستقروا فى البلاد التى سبق ذكرها، بينما مات منهم ٦٥ ألفًا نتيجة ما تحملوه من غرق فى البحار أو قتل فى الطرقات أو أمراض فتاكة أو جوع وفاقة، وقد تمكن ٣٢ ألفًا من مسلمى الأندلس من العودة إليها بعد طردهم[1].

وهكذا أسدل الستار على صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى عاشها المسلمون فى جنوب غرب أوروبا رفعوا فيها راية الإسلام خفاقة بالعزة والكرامة طوال ثمانية قرون، ولكن سنة الله غالبة فى كونه وفى خلقه، وقد وقع مسلمو

(١) للاستزادة ينظر كتاب الصحوة الإسلامية للدكتور على الكتانى مصدر سابق ص٤٧: ٦٢.



الأندلس تحت طائلة هذا القـانون بعدما تراخـوا وتفرق شملهـم وتوزعت دولتهم واستـبد بهم العـدو الأسبـانى استبـدادًا لم نسمع به فـى التاريخ، وقهـرًا للنفس الإنسانية لا تود العين رؤيته ثم تشتيتًا وطردًا مهينًا حطم كرامة الإنسان تحطيمًا.

فهل لنا نحن المسلمين أن نأخـذ العبرة والعظة لنسترشد بذلـك التاريخ وخاصة أنه مازال فى بلاد أوروبا حتى اليوم أقليات إسـلامية تعيش مع الأوروبيين فى دولة واحدة ويحكمهم قانون واحد.

فهل يمكن لهذه الأقليات أن تعيش معززة الجـانب موفورة الكرامة معتزة بدينها وشريعتها بجانب هؤلاء الغربيين؟ ولم لا؟ وهم يشاركون فى صنع حضارة إنسانية واحدة وثقافة واحـدة ويساهمون فى بناء المجتمع ونهضتـه، وهم ليسوا عالة على المجتمعـات الغربية التى بدأت تتبرم بالمسلمـين فى هذه الأيام ويتناولون الحجة تلو الأخرى للاصطدام بهم فى ساحـات القضاء كقضية الحـجاب تارة ومنع النشيطين من أداء أدوارهم السيـاسية حـينًا آخر، بل ذهبوا أبعـد من ذلك إذ دأبوا على منع كبار علماء المسلمين من دخول بعض العواصم الأوروبية، فهل لنا أن نربط الحاضر بالماضى ونستعيد الذكرى لنفهم الدرس ونأخذ العظة؟!.



رابعًا: هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟

تعد مشكلة الموريسكيين من أخطر المشكلات التى هيمنت إبان القرن الثالث عشر على شبه جزيرة الأندلس، وقد تناول هذه القضية الكتاب العرب وغير العرب ولكن ما زال يلف بها الغموض فى بعض جوانبها التى تحتاج إلى مزيد من البحث لمعرفة الأبعاد الحقيقية لهذا الموضوع، ولعل دراسة تلك القضية إذا ما اقترنت بتاريخ الدولة العثمانية تتضح أبعادها وينجلى غموضها من خلال صلة الموريسكيين بالدولة العثمانية.

وإذ كانت تركيا الإسلامية فى القرن الثالث عشر هى القوى الإسلامية الوحيدة المهيمنة على العالم آنذاك، واتسعت أراضيها لتشمل بقاعًا كثيرة من العالم العربى والإسلامى الأوروبى، فلا عجب أن يتطلع مسلمو الأندلس إلى تلك القوة يلتمسون منها العون والغوث، فهل تم اتصال من هذا القبيل بينهم وبين القادة العثمانيين؟وماذا كان موقف العثمانيين تجاه المسألة الموريسكية آنذاك؟ ثم ماذا كان وزن هذا المشكل على سياستهم العامة بالبحر الأبيض المتوسط وفى أوروبا؟ لا شك أنه انطلاقًا من استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ومن الانتصارات العسكرية التى حققوها فى أوروبا الشرقية، أصبح الأتراك-العثمانيون يتمتعون بوزن دينى وعسكرى وسياسى ذى أهمية كبرى، تدرك أثره دول حوض البحر المتوسط وخاصة أثناء حكم محمد الفاتح وابنه بايزيد الثانى. وذلك بفضل جيوشهم البرية التى ملأت الأرض وأساطيلهم الضخمة المهيمنة على أعالى البحار.

من هذا المنطلق رأى الموريسكيون أنه لا سبيل لمنجاتهم إلا بطلب النجدة من سلاطين العثمانيين وبخاصة بعدما انقطع الرجاء من دول عدوة المغرب. وقبل سقوط الأندلس بخمس سنين أى عام ١٤٨٧م أرسلت سفارة إلى السلطان العثمانى بايزيد -كما قلنا سابقًا- هى إلى طابع الرثاء العربى أقرب منها إلى شىء



آخر، وفيها يشتكى الأندلسيون من المعاناة التى يتكبدها المسلمون وكيف أن سقوط الإسلام فى أسبانيا أصبح وشيك الوقوع، وقد طلبت الرسالة بعبارات مؤثرة جدا مساعدة الشعوب والملوك المسلمين[١].

إن السلطان بايزيد الذى عرف بالتقوى والتدين قد رد على هذا الاستنجاد بإرسال أسطول عثمانى تجول فى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذى أصبح بعدئذ مصدر الرعب الذى كانت تشعر به الأساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

لقد كان رد فعل السلطان بايزيد الثانى بقيامه بمساعدة هؤلاء المستضعفين من مسلمى غرناطة، إنما كان يترجم عن شعور صادق بالقيام بواجب دينى تفرضه رابطة الأخوة فى الدين والتضامن الإسلامى. وقد كانت أخبار هؤلاء الموريسكيين تتناقل عن طريق الحجاج الأندلسيين والمغاربة ورحلاتهم إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وقد كانت تلك الأماكن مناسبة للقاءات المسلمين العالمية، ولا شك أن المشكل الموريسيكى والأخبار الموريسكية كانت تتناقل وتناقش وتنتشر عبر العالم الإسلامى، وإننا لا نستغرب على ضوء ذلك أن تعظم سمعة الإمبراطورية العثمانية وشهرة أسطولها وقوة جيوشها البرية، ذلك أن الإسلام فى الإمبراطورية العثمانية يحتل المكانة الأولى، وقد دخل الأتراك منذ العصور الوسطى فى الأعمال الدينية والاقتصادية، ولا غرو فى ذلك فإن مفتى وهران صرح فى رسالة كان قد وجهها إلى مسلمى الأندلس سنة ١٥٠٣م قائلا: «إنى أدعو المولى سبحانه وتعالى أن يغير الأحداث لصالح دين الإسلام، وحتى تتمكنوا من عبادة الخالق دون لوم أو خوف، وهذا بفضل التحالف مع الأمراء الأتراك»[٢].

وبالفعل فقد أصبحت استانبول منذ بداية القرن السادس عشر «الأرض المفضلة» بالنسبة للمضطهدين سواء أكانوا مسلمين أو يهودا، وأن الأقلية الموريسكية أخذت

---

(١) انظر عبد الجليل التميمى. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩م. ص١١.

(٢) المصدر السابق ص١٦، ١٧.

فى الازدياد وأصبح بإمكانهم أن يلعبوا دوراً رئيساً لإحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بالموريسكيين.

كما أن قنصل البندقية ذكر أن عدداً كبيراً من اللاجئين الموريسكيين يمتهنون الترجمة أو الاستخبارات لفائدة الإمبراطورية العثمانية وأنهم يُؤمّنون كل المراسلات تقريبا والتى كانت تتم مع الولايات المغربية ومع المدافعين عنهم أينما كانوا، وحتى اليهود فقد اتهموا بالجاسوسية والاستخبارات لفائدة العثمانيين(١).

إن مختلف المعلومات التى كانت تصل إلى مركز الإمبراطورية العثمانية عن الموريسكيين ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر، تؤكد بصورة لا مجال للشك فيها أن رجال الدولة العثمانية كانوا يراقبون ويتابعون عن كثب معطيات المشكل الموريسكى، وقد ذكر أحد التجار الألمان المقيمين باستانبول حوالى سنة ١٥٦٠م أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود ٨٠ ألف موريسكى قد التجأوا إلى فاس وأنهم اعتنقوا البروتستانتية بغرض الانتقام من محاكم دواوين التفتيش الأسبانية، ويعتبر هؤلاء اللاجئون مرآة صادقة تدل على عمق المأساة التى يعيشها الموريسكيون على الأرض الأسبانية، وقد أعلن بعضهم أنهم سوف يلحقون الضرر بالمسيحيين مثلما فعل هؤلاء بالموريسكيين فى أسبانيا».

إن السلطان العثمانى قد استقبل عدداً من السفارات الجزائرية كان أهمها تلك التى ترأسها العالم أبو العباس بن أحمد بن قاضى والتى أحاط فيها السلطان علمًا بوضعية الولايات المغربية وصراعها مع أسبانيا الكاثوليكية والتى أنزلت بالمجموعة الإسلامية الأندلسية كثيراً من المحن لتجبرها بالقوة على اعتناق الدين المسيحى. بعد أن قامت بتحويل كل الجوامع إلى كنائس، وكان يساعدها فى ذلك محاكم دواوين التفتيش التى كانت تحرص بإصرار على أن تقضى على الوجود الأخلاقى والحضارى للموريسكيين واليهود والبروتستانت، فى حين كان للمسيحيين باستانبول -على العموم- كنائسهم المحمية من طرف الجيش التركى، وإن كان كل

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٧٩ وما بعدها.

فرد منهم حراً فى ممارسة دينه، وقد أثار هذا التسامح إعجاب مختلف الزائرين لاستانبول خلال القرن السادس عشر، وهى الظاهرة التى لا يمكن حدوثها فى هذا الظرف بأسبانيا(١).

وعلى ضوء ذلك، فإن نشاط الدولة العثمانية بالبحر الأبيض المتوسط وتجاه المشكل الموريسكى بدأ يأخذ بعدًا جديدًا وأهمية خاصة.

فإنه انطلاقًا من سنة ١٥١٩م بعدما ارتبطت ولاية الجزائر بالإمبراطورية العثمانية، يمكننا أن نتحسس، على ضوء الأحداث، خلفية الموقف العثمانى وأهدافه وغاياته بالنسبة لموقفه فى القضية الموريسكية.

إن التاريخ العثمانى إبان القرن السادس عشر فى علاقته مع الأوروبيين قد تميز بظهور شخصيات كبرى حققت الانتصارات العثمانية كما أنها ساهمت فى إبقاء التوازن بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الأوروبية، وزادت من قدرة العثمانيين على الدفاع والوقوف للمحافظة على التفوق العسكرى العثمانى، ومن أهم هذه الشخصيات القائد البحرى عروج وخير الدين بربارسا وغيرهما، وكان يعاونهما فى أعمال البحر ٥٠٠ شخص موريسكى وقد تضاعف عددهم وكانوا على علم بميدان العدو وتحركاته وكانوا يجيدون لغته(٢).

إن الدور الذى لعبته هذه الأقلية فى إدارة خير الدين ما زال مجهولا، وهو الدور الذى يترجم عمق قلقها وإصرارها لمساعدة إخوانهم بالأندلس، ويكاد يكون مسلما به اليوم، أن خير الدين كان يدرك جيدا الملف الأسبانى وحيث يعتبر المشكل الموريسيكى أهم قضية فيه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى هؤلاء اللاجئين الموريسكيين الذين أحاطوا بخير الدين وأخلصوا له تماما.

إن معرفة خير الدين بالملف الموريسكى بعد ذلك، قد دفعه إلى الاعتقاد بوجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب، وانطلاقا منها يكون باستطاعته استرجاع

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٤.

(٢) المصدر السابق ص١٥

الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من ربقة الأسبان ومحاكم دواوين التفتيش. ونتيجة لذلك فإن خير الدين بعد أن قضى على قلعة البينون الأسبانية فى عرض البحر أمام مدينة الجزائر سنة ١٥٢٩م، استجاب لاستغاثات موريسكيي الأندلس مرسلا إليهم فى نفس السنة: «ستًا وثلاثين باخرة استطاعت أن تنقذ عشرة آلاف منهم فى كل مرة بحيث إنه خلال سبع رحلات متوالية، أنقذ سبعين ألفًا من عرب الأندلس»[١].

إن النجاح الذى حققه خير الدين قد أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين الموريسكيين على حد سواء، أما السلطان سليمان القانونى الذى اتصل بلائحة من الموريسكيين فقد سارع بإرسال فرمان إلى خير الدين يأمره بالتحول إلى استانبول، للمشورة، وفى الحقيقة كان ثقل السياسة العثمانية فى الولايات المغربية، يرتكز على خير الدين فى هذه الفترة.

وعلى ضوء المقابلة التى تمت أدرك السلطان جيدا خلفية وأهداف السياسة الأسبانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ووضع الموريسكيين الدقيق ووجوب العمل على تقوية الوجود العثمانى فى هذا الجانب، وهذا وفقا للاستراتيجية العسكرية التى يسعى خير الدين شخصيا لإنجازها.

واستجابة لهذه الرؤية الجديدة، اتخذت عدة قرارات منها بناء ٦١ وحدة من وحدات الأسطول فى القرن الذهبى باستانبول، وإن مشاعر عطف السلطان سليمان «لشمال أفريقيا» قد قويت من جديد بفضل سياسته الوفاقية مع فرنسا، وعليه أصبحت سياسة سليمان القانونى ملتزمة حيال الولايات المغربية من أجل الموريسكيين. وقد وجه هؤلاء سنة ١٥٤١م رسالة سوف نعرضها فيما بعد.

ومن جهة أخرى فإن تقدم الدولة العثمانية فى أوروبا الغربية، فى هذا الظرف على وجه الخصوص، والتأثير الذى أحدثته على مصائر الأمراء الأوروبيين، قد أعطى أكثر من أى وقت مضى، إشعاعا وهيبة لهذه الدولة ومنحها وزنًا سياسيًا وعسكريًا كبيرين.

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٦

وقد انعكس هذا التأثير على دول الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط. فلا نستغرب بعد ذلك اهتمام المسئولين العثمانيين للمشكل الموريسكى، وهو الاهتمام الذى سيظهر على جميع المستويات: كالتدخل المباشر وتقوية الوجود العثمانى، أو ربط الصداقة والتعاون مع الملك ألفونسو الأول وفتح طرابلس الغرب والمهدية وجربة، والقيام باتصالات مع مسئولى المغرب الأقصى وتونس للتنسيق مع بعضهم بعضًا فى مواجهة عدو مشترك. وقد ساهم هذا النشاط فى تبادل عدد من السفراء فيما بينهم.

أما بلاط مدريد، فكان على علم تام بعلاقات الموريسكيين بالعالم الإسلامى، وأن أغلب المؤرخين ومدونى الوقائع أو القساوسة وحتى الشعراء، فقد اتهموا الموريسكيين بارتباطهم بالأتراك العثمانيين، وهذا ما زاد من تخوفات فيليب الثانى، خاصة بعد الشائعات التى كانت تروج بكثرة حول تهديد الأسطول العثمانى وتدخله فى الثورة الموريسكية بغرناطة.

أما الصدر الأعظم محمد صوفللى الذى عرف بورعه وتقواه، والذى أحيط علما بمحن الموريسكيين عن طريق العديد من الرسائل التى وجهت إلى الباب العالى فيبدو أنه كان يخطط للهجوم على أسبانيا لغرض مساعدة موريسكيى غرناطة الثائرين وأنه اقترح على السلطان القيام بحملة على أسبانيا بدل قبرص، وقد سبق للصدر الأعظم أن أصدر فرمانين مهمين لمشكل الموريسكيين وهذا يدل على تقدير العثمانيين لهذه القضية.

وقد شوهدت مشاهد كثيرة فى هذه الفترة تؤكد أن الثوار قد تلقوا مددًا وأسلحة وبضع مئات من المتطوعين من الجزائر، أما سفير فرنسا فوركوفوا فقد أكد فى رسالة إلى كاترين دوماديسيس بتاريخ ٦يناير ١٥٦٩م أنه: «يوجد ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ تركى صحبة «أمير غرناطة» وقد أرسلوا للجزائر، وحتى يوحى أمير غرناطة بأن عددهم أكثر بكثير من ذلك فقد عمل على ارتداء عدد من العرب البواسل، الزى التركى»، كما أن المدد قد وصلهم من ملك فاس حيث تمكن بفضل ثمانية عشر باخرة خفيفة نقل ٤٠٠ عربى أو تركى وكذلك الذخيرة. .»[1].

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٨ : ٢٠.

وموقف الدولة العثمانية سوف يترجم عنه هذا النشاط الحثيث لدى ملك المغرب الأقصى لتنسيق عملهما للدفاع عن السواحل ومساعدة اللاجئين الموريسكيين. وكذلك تبادل السفراء المتواصل بين البلدين والذى يترجم للسعى إلى تنسيق المجهودات، وهذا على الرغم من خوف واحتراز كل منهما للآخر، ومع ذلك فإن القضية الموريسكية تبقى المسألة التى اتفق عليها الطرفان، وذلك أن العثمانيين ما فتئوا يطالبون بمساعدة الموريسكيين، كما تؤكده تلك الرسالة التى وجهها السلطان العثمانى إلى ملك فاس بتاريخ شهر سبتمبر ١٥٧٣م.

على أن الاكتشاف بوجود مؤامرة موريسكية فى أشبيلية عام ١٥٨٠م تهدف إلى المساعدة على احتلال أسبانيا انطلاقا من السواحل المغربية، يؤكد ولا شك ظاهرة التنسيق المشترك لكل ما يتعلق بالمسألة الموريسكية والتى كان يتم بالتعاون مع الإمبراطورية العثمانية[١].

إن العوامل التى أثرت على مصير الموريسكيين كانت متعددة كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمى وأنه من المفيد ذكر عدد كبير من الوسطاء غير المسلمين فرنسيين أو غيرهم، كانوا على اتصال منذ أواخر القرن السادس عشر بالموريسكيين، وذلك أن التدخل الفرنسى لدى الموريسكيين كان حقيقة يعلمها الأسبان، وقد قام الجاسوس المزدوج باسكال دوسانت استاف بأمر من الملك هنرى الرابع ودوك دولافورس سنة ١٥٩٩م بالاتصال بالموريسكيين»[٢].

ومن خلال هذه الأستراتيجية السياسية والعسكرية، فإن الولايات المغربية قد خدمت بشكل جذرى الإمبراطورية العثمانية فى كل ما يتعلق بالموضوع الموريسكى خلال القرن السادس عشر، ذلك أنه قبيل الطرد النهائى للموريسكيين فإن الولايات المغربية أصبحت أقل خطرًا على أسبانيا نتيجة اختفاء الظاهرة الموريسكية.

أما موقف الدولة العثمانية من عملية الطرد النهائى للموريسكيين سنة ١٦٠٩م فسوف توضحه تلك الرسالة المهمة المرسلة من السلطان العثمانى أحمد الأول إلى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. ص٢١.

(٢) المرجع السابق ص٢١.



دوج البندقية سنة ١٦١٤م، وقد ظهرت من خلالها المساعى السياسية للإمبراطورية العثمانية لدى معظم الدول الأوروبية يومئذ، لمساعدة الموريسكيين وتقديم كل عون وتمكينهم من الالتحاق بأرض الدولة العثمانية فى أحسن ظروف الأمن والسلم والطمأنينة(*).



(*) لقد اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس للدكتور عبد الجليل التميمى «بتصرف». منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات زغوان ١٩٨٩م. ومن يرد الاستزادة فليرجع إليه.

خاتمة البحث

مأســاة الأندلس تعد سنة كــونية من سنن الله متى توافــرت أسبــابها ودواعيــها جاءت النتــائج كما أرادها الله، يقــول الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦].

ومأساة الأندلس ليسـت فريدة فهى تتكرر فى حياتنا وفى واقـعنا نحن المسلمين حينا بعد حـين، فقد مرت تلك المآسى فى فلسطين وأدركناها فى أفغـانستان وفى البوسـنة والهرسك وأرتيـريا والفلبين والعـراق، فهى سنة الله ولن تجـد لسنة الله تبديلا.

والواقع أن سقوط الأندلس كانت نذره وشيكـة وعلاماته واضحة منذ أن منيت الأندلس بسقــوطين هزا كيان المسلمين هزا عنيفـا: السقوط الأول، وهو سـقوط الخلافة الأموية فى الأندلس عام ٤٢١هـ تقريبا حيث أضحت البلاد نهبًا لدويلات مشرذمـة مستضـعفة متـعادية فيمـا بينها يضرب بعـضها البعض، ويلتـهم القوى الضعيف، وصـار بأسهم بينهم شديدًا بينمـا كان العدو الأسبانى أقـرب إليهم من إخوانهم المسلمين فوالوا النصارى وتقربوا إلى ملك قشتالة فقوى عليهم ذلك العدو واستكلبهم واستنفـد قواتهم وأصبحت الأندلس منذ ذلك الحين مطمعًا كـبيرًا أمام الأسبـان حيث حفـزهم ضعف ملوك المسلمين على حـركة الاسـترداد والتى كان نتيجتها تساقط أغلب مدن الأندلس الكبرى واحدة تلو الأخرى.

أما السقوط الثـانى فهو سقوط دولة الموحدين والذى بدأت طلائـعه بعد هزيمة العـقاب سنة ٦٠٩هـ ولـم تقم للأندلس بعـدها قائمـة تذكـر، إذ نشط الأسبـان النصارى فى توحيد كلمتهم وتجمعوا فى حركة صليبية لاسترداد الأندلس من أيدى

المسلمين كما أن سقوط تلك الدولة أدى إلى اضطراب أمور الأندلس وقيام حركات فى عدد من الأقاليم الأندلسية مثل حركات بن هود وابن مردنيش وابن الأحمر التى أسلمت فى النهاية إلى حصر المسلمين فى مدينة غرناطة.

ومما يجدر الإشارة إليه هو أن نشاط النصارى الأسبان لاسترداد أرض الأندلس لم يتوقف مطلقا بعد الفتح، فإذا كانوا قد هربوا إلى الشمال معتصمين بالجبال إبان سنوات الفتح الأولى إلا إنهم عاشوا متربصين بالمسلمين ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض على مسلمى الأندلس، وقد واتتهم الفرصة سانحة بعد تفرق المسلمين وتمزق وحدتهم إبان عصر الطوائف، إذ سقطت طليطلة أولى المدن الكبرى التى استرجعها الأسبان والصليبيون سنة ١٠٥٨م، وعلى الرغم من أن هؤلاء النصارى قد هزموا هزيمة منكرة فى معركة الزلاقة على أيدى المرابطين الذين أطالوا عمر دولة الإسلام فى الأندلس ما يقرب من قرنين فإن هؤلاء النصارى استطاعوا أخيرا أن يوحدوا صفوفهم ويعبئوا جميع طاقاتهم فى حروب شرسة مع المسلمين أدت إلى أن تتساقط مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى، فقد سقطت قرطبة سنة ١٢٣٦م ثم أشبيلية ١٢٤٨م، ثم مرسية ١٢٦٦م ثم سقطت مالقة ثم بعدها بخمس سنوات سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس، فهل قراءتنا لتاريخ المسلمين فى الأندلس والذى قارب الثمانية قرون يمكن أن نستفيد منه اليوم؟

إننى أعتقد أننا يمكننا الاستفادة من تاريخ الأندلس لو اتبعنا منهجًا صحيحًا لاستيعاب حركة التاريخ الإسلامى ونظرنا إليه نظرة فاحصة إيجابية تختلف عن نظرتنا لسائر التواريخ على النحو التالى:

١- لابد أن ترتبط حركة التاريخ فى الأندلس بحركة التاريخ فى المشرق الإسلامى وينظر إليهما على أنهما حركة لتاريخ واحد لأمة واحدة هى الأمة الإسلامية، فإن ما يؤثر فى مشرق الأمة يؤثر فى مغربها، والعكس صحيح، فالحركة الصليبية الأوروبية التى استهدفت الشام وبيت المقدس ما هى إلا صدى للحركة الصليبية التى شنها الغرب المسيحى على أرض المسلمين بالأندلس، من هنا

ينبغى أن تختفى الفجوة الفاصلة بين جناحى الأمة الإسلامية لتلتئم حركة التاريخ وتجلو التجربة واضحة فى سياقها التاريخى، أما إذا قرأنا حركة التاريخ فى كل بلد مسلم على حدة فإننا نكون قد أعقنا حركة التاريخ أن تمتد وساهمنا فى تقوقع حركة الإنسان وانحصارها داخل حدود وهمية من صنع الاستعمار، فمثلا فتح القسطنطينية على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م كان له الوقع الكبير فى أوروبا مما جعل السلطة الدينية البابوية تستنفر الهمم لفك ذلك الحصار الإسلامى الذى أحاط بأوروبا وسبب لها خزيًا وعارًا، ومن ثم تجمعت قوى الغرب فى حركة صليبية لتواجه الإسلام والمسلمين، فكلما كان العثمانيون يتوغلون فى شرق أوروبا فى بلاد البلقان بما فيها البوسنة والهرسك وكوسوفو كان القشتاليون الأسبان وقوى الغرب فى حركته الصليبية يتقدمون من غرب أوروبا نحو الجنوب فيصل بهم الحال إلى احتلال مدن شمال أفريقيا بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ويتخذون من مدن المغرب مراكز متقدمة لهم مثل مدينة مليلة ووهران وبجاية وسبتة إلى غير ذلك. وخلاصة هذا أن أحداث التاريخ فى الغرب الإسلامى لا يمكن فهمها فهمًا جيدًا إلا إذا قورنت بأحداث الشرق الإسلامى.

إذا كانت دولة الإسلام قد انتهت وطويت فى أرض أسبانيا، فإن الإسلام باق إلى أن تقوم الساعة، فهو الرسالة الخاتمة والمنزلة إلى الناس جميعا، وهناك فرق بين الإسلام حينما يغزو الشعوب ويعيد حركة بناء الإنسان لتحمل مسئوليته فى خلافة الله فى الأرض وفق منهج ربانى يغمر نوره وهديه الإنسان والكون والحياة. وهذا الغزو يختلف بطبيعة الحال عن الغزو الاستعمارى البغيض الذى يلهب ظهور الناس ويمتص طاقاتهم ويستأثر بكل خير لنفسه ويحرم الخير على أهله وأصحابه. من هنا فإن الإسلام ليس مذهبًا وضعيًا سوف يختفى أو يقضى عليه وإنما هو رسالة الله الأخيرة إلى الناس، ولابد أن تعود وسوف تعود؛ ليأخذ الدين الإسلامى مكانه فى أسبانيا كما كان، لأن الإسلام ما زال يعيش فى وجدان تلك

الأمة وذاكرتها وتقاليدها وتراثها على الرغم من الممارسات القمعية التى كانت ضد المسلمين.

من أبرز مظاهر السقوط الحضارى -وهذه مشكلتنا اليوم- ليس فقط فى عجز الأمة عن تمثل تاريخها لبناء حاضرها وتخطيط مستقبلها، وإنما فى عجزها أيضا عن حماية تاريخها من النهب الفكرى والاستلاب الحضارى، كما لاحظناه فى كتابات كثير من المستشرقين المتعصبين، وفى التواريخ التى كتبها اليهود على وجه الخصوص فمثلا:

أ- لقد قام بعض المفكرين باعتناء شديد بتاريخنا دراسة وتحليلا ولكن كان وفق أغراضهم فسلبوا منه قيمه ومثله العليا ونظرة الإسلام ومنهجيته فى هذا التاريخ.

ب- التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فى الأندلس يهوّدان اليوم بطريقة مستفزة بهدف الإساءة إلى الإسلام والزعم بأنه السبب فى تخلف المسلمين وضعفهم فى الأندلس، فيركز هؤلاء الكتاب على مظاهر الضعف والتفكك والانحدار تاركين نصف الكوب المملوء والذى يتمثل فى حضارة إنسانية وثقافة إسلامية لا مثيل لها إبان مراحل القوة فى الأندلس، وذلك ليثيروا حقد الغرب على الإسلام والمسلمين، كما أن اليهود حاولوا أن يثبتوا أنهم وراء كل علم أو تقدم حضارى فى الأندلس بما قدموه من علماء وكتاب وأطباء من أصل يهودى كابن ميمون وابن جبير وغيرهما ليؤكدوا أن الحضارة الأندلسية إنما هى من صنع اليهود.

فلا نستغرب أن يُهوِّد تاريخ الأندلس أو تعاد قراءته من منظور يهودى مستحلين لأنفسهم سرقة التاريخ الإسلامى باعتباره جزءًا من تاريخ اليهود فى الشتات.

ج- ومما يؤسف له ونحن نعيش فى غفلة عما يدبر حولنا أن أسبانيا تحاول إعادة كتابة تاريخها القومى آخذة فى الاعتبار أسبنة الحقبة التاريخية الإسلامية وجعلها جزءا من التاريخ القومى الأسبانى، فهى حقبة غنية برجالها وعلمائها وحكامها الذين أثروا الحضارة الإسلامية آنذاك كابن رشد، وابن حزم، والقرطبى والشاطبى وغيرهم كثيرون، ولعل هذا الاعتبار من دولة أسبانيا قد يعنى:

- أن الحقبة الأسبانية هى أخصب فترات التاريخ الأسبانى وأنها المرحلة المضيئة بعطائها الحضارى والثقافى.

- عدم اعتبار حقبة التاريخ الإسلامى فى الأندلس والتى قاربت الثمانية قرون حقبة احتلال عسكرى، بل هى حقبة أصيلة من التاريخ القومى الأسبانى بتنوعها الحضارى والثقافى وليس التاريخ السياسى العسكرى فهو تاريخ بائد، أما الباقى فهو حركة الإنسان المسلم بما خلف من تراث ثقافى وحضارى كان أساسا لنهضة أسبانيا الحديثة فى مرحلة من أهم مراحلها وهى مرحلة التطوير.

د- ومن خلال قراءة حركات المسلمين فى الأندلس كما هى حركتنا اليوم نجد أنها كانت مبنية على رد الأفعال والابتزاز السياسى وعدم التخطيط لحركة واقعية تمتد فيها النظرة إلى أفق المستقبل، وهذا واضح من معاملات حكام المسلمين مع ملوك قشتالة وليون وغيرهم إذ انعدم التخطيط والتفكير الاستراتيجى المنظم فى عسكريات المسلمين بينما ظهر ذلك واضحا فى برنامج منظم لدى ملوك قشتالة ونصارى الأسبان، وكم كانت عبارات الصداقة والود تفوح من أفواه ملوك النصارى أعداء المسلمين فيستنيم لها المسلمون وينخدعون بتلك الأقوال وسرعان ما يؤخذون على غرة، وهذا يذكرنا بقضية فلسطين اليوم؛ تخطيط محكم من الدولة اليهودية مع أكبر قوة تساندها لتعمل جاهدة على تركيع الفلسطينيين وعلى إبادتهم شيئًا فشيئًا مع ما نسمعه من وعود معسولة وبراقة بقيام الدولة الفلسطينية، وكم سمعنا من خرائط للطريق تتعلق بها الآمال ولكن سرعان ما تغيب حتى تاه الطريق.

إن المشكلة التى يعانيها العقل المسلم اليوم هى افتقاده إلى منهج الثقافة التاريخية وإلى إدراك السنن الكونية التى تخضع لها الحركة الكونية حتى يتكون لديه وعى بأحداث التاريخ فلا ينزلق فى مواضع الزلل وفى مهاوى الظلم والرفاهية التى يأخذ الله بها الشعوب أخذ عزيز مقتدر.

كما أنه ينبغى عند الحديث عن الوعى التاريخى أن نأخذ بتجربة القرآن فى هذا الصدد، فينبغى علينا وعلى كتاب التاريخ عدم الاقتصار على التجربة الذاتية أو

التاريخ الإقليمى لكل دولة مسلمة على حدة -كما وضحنا سابقا- بل ينبغى إدراك التاريخ العام للأمة الإسلامية -كما قلنا- ومما يستوجب تلك النظرة أن أمتنا الإسلامية هى أمة الرسالة الخاتمة وهى الوريث الفكرى والحضارى للأمم السابقة، لذا نرى أن القرآن الكريم قد جنبنا الوقوع فى تجربة فرعون وعاد وثمود وأصحاب الأيكة إلى غير ذلك لأنها الأمة الخاتمة صاحبة الرسالة العالمية التى لا تفنى ولا تتبدل إلى أن تقوم الساعة، ومن هنا فإن الاهتمام بكتابة التاريخ الإسلامى فى اعتقادى يعد فرض كفاية لما له من أهمية بالغة الأثر فى تنشيط تجربة وحركة الإنسان المسلم فى الزمان والمكان.

وإن كان علم التاريخ عند الكثيرين منا قد اقتصر على حفظ حوادث وسرد سياسات الملوك والحكام وضبط شديد لمنهج النقل أقول: إن كان هذا هو اهتمامنا بالتاريخ فإن الأهم من هذا أنه ينبغى علينا استقراء حركة التاريخ والحوادث واكتشاف القوانين فى البحث عن المقاصد والبواعث والكيفيات التى تحكم حركة الحياة والتى تؤدى إلى السقوط والنهوض والتدافع البشرى وفق سنن الله.

ولا نلتفت إلى تلك النظرة الضيقة التى يأمر أصحابها بعدم الاتجاه إلى التحليل والتفسير التاريخى، وكم برروا تلك النظرة الضيقة بأوهام لا قيمة لها وكان هدفهم من ذلك واضحًا غير خفى، فهم لا يحللون أحداث التاريخ ولا يميلون إلى فلسفته خوفًا من ظهور الوعى الثقافى والحضارى الذى لا يروق لأصحاب النفوذ المتسلطين على عقلية المسلمين والموجهين لها حسب مصالحهم الخاصة. إن أصحاب تلك النظرة التاريخية المنهجية القائمة على التفسير والتحليل واستنباط العبرة. هم هداة التنمية وهم وقود الثورات وهم المشاعل التى تضئ النفوس وتحرك المشاعر لإزاحة التخلف والتطلع إلى المستقبل الواعد، فلا غرو إذن أن نرى أصحاب النظرة الضيقة للتاريخ من العلمانيين والذين هيمنوا على أنظمة التعليم فى بلادنا يحاولون الحد من منهج التاريخ فى المدارس الإعدادية والثانوية إلى عدد محدود من القضايا التاريخية التى تنعدم من ورائها الفائدة المرجوة.

أما عن سقوط الأندلس الأخير والذى انتهت معه دولة الإسلام فينبغى أن نقف معه وقفة نستخلص من خلالها أسباب السقوط وذلك التردى ومنها:

١- ضعف العقيدة الإسلامية وانحراف مسلمى الأندلس عن المنهج، وهذا واضح لمن يتصفح التاريخ الأندلسى فإن حكام الأندلس الذين اعتصموا بالدين وتمسكوا بالعقيدة وساروا على النهج الإسلامى نراهم يمثلون مرحلة القوة التى مرت بها الأندلس فكان همهم الأكبر هو الدفاع عن الدعوة الإسلامية واتساع رقعة الدولة فى بلاد الأسبان، ونرى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مقدمة المجاهدين فى سبيل الله يطارد الخارجين عن الدين ويقف فى وجه دعاة الشيعة المتطرفين، ومن ثم ازدهرت فترة الخلافة التى عاشها عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وتقدمت العلوم والمعارف بشتى أنواعها مما أدى إلى ظهور حضارة إسلامية وتقدم علمى رائع انتشر فى الأندلس وانتقل ليضئ حياة الأوروبيين التى كانت غارقة فى ظلمات الجهل آنذاك. ولما قل الوازع الدينى وانصرف الملوك والأمراء إلى شهواتهم وحادوا عن نهج الله ضعفت الدولة وانقسمت إلى دويلات كما لاحظنا فى دول الطوائف وذهبت ريح الدولة بعد ذاك.

٢- التحالف مع الأجنبى وموالاته والخضوع له وفى هذا مخالفة صريحة لتعاليم الإسلام التى تأمر الجماعة المسلمة بعدم موالاة الأجنبى إنما الموالاة تكون للمسلمين ولله ولرسوله، ولكن الدارس للتاريخ الأندلسى يجد التحالف المشين بين مسلمى الأندلس وبين النصارى ولاسيما فى فترات الضعف والتخاذل، فابن هود مثلا قد صانع النصارى وساومهم على حساب المصالح الإسلامية، وابن الأحمر عقد معاهدة مع ملك قشتالة النصرانى وهى معاهدة تنم عن الضعف والخذلان الذى أصاب حكام المسلمين آنذاك، وقد نصت المعاهدة التى أبرمت بينهما على أن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة باسم ملك قشتالة وأن يؤدى له الجزية سنويا، وأن يكون هناك بينهما تحالف عسكرى، فنراه يقف مع ملك قشتالة وقفات عسكرية ضد إخوانه حكام المسلمين ويتعهد أن يقدم لنصرة النصارى عددا من الجنود بعددهم وسلاحهم ليحاربوا بجانبهم

ضد المسلمين، وأن يشهد اجتماع المجلس النيابى كواحد من أتباع ملك قشتالة. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أجبر ابن الأحمر على أن يسلم ملك قشتالة أهم القلاع التى تحيط بغرناطة والتى كانت مراكز أمامية متقدمة للدفاع عنها، فتنازل ابن الأحمر عن جيان وأراجونه وباركونة وقلعة جابر وأجزاء أخرى من بلاد المسلمين، وقد بلغ السفه قمته عندما وفى ابن الأحمر بتعهده، فعند حصار النصارى لأشبيلية قدم ابن الأحمر قوة من فرسان المسلمين لمعاونة النصارى فى حصارهم ضد المسلمين، وهكذا كان الخضوع للنصارى ومجاملتهم على حساب المسلمين سببًا رئيسا فى سقوط الأندلس وكأن هؤلاء الحكام لم يقرأوا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وكذلك لم يسمعوا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]، ويقول أيضا جل وعلا: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

إن قضية الولاء والبراء قضية خطيرة ينبغى على المسلمين تفهمها جيدا لأنها كانت وما تزال سببًا رئيسًا فى مشاكلنا اليوم عندما أعرضنا عن موالاة المسلمين واتجهنا لموالاة الغرب للدفاع عن أراضينا وإقراضنا الديون الباهظة وبيعنا السلاح اللازم لمخازننا والغذاء اللازم لقوتنا، وأصبح الأجنبى كل شىء فى حياتنا حتى أذلنا ذل العبيد وسارعنا لتقبيل عتبات قصوره لتلقى الأمر وتنفيذ القرار.

٣- اتساع الهوة بين الحكام وأهل العلم والفكر مما اضطر العلماء إلى الهجرة أو الانصراف عن مجالس الملوك والأمراء، كان ذلك فى فترات الضعف والفرقة وتمزق البلاد. وأحاط بالحكام بطانة سوء يزينون لهم المنكر ويحضونهم على

أفعال الشر وارتكاب القبائح، ومن ثم أصبح الحكام يحكمون باتباع الهوى وتحكم النوازع وسيطرة العصبيات فاختلت معادلة الحكم واضطربت أمور العباد وحدث الشرخ الحضارى بانفصال السلطان عن القرآن وتغلبت المصالح القريبة العاجلة على المبادئ والقيم الإسلامية. ولكى يتفادى حكام الأندلس هذا الانفصال فقد ظهر فى تاريخ الأندلس ما يعرف بولاية الفقيه حيث كان يحضر مجالس الحكام عند النظر فى أمور الناس ومشاكلهم بعض الفقهاء من أصحاب الفكر والعلم ليرشدوا الحاكم إلى الأصوب والأنفع للمسلمين(١)، وسوف نضرب مثالا من واقع الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر الذى حول إمارة الأندلس إلى خلافة وازدهرت الدولة فى عهده ازدهارًا رائعًا فى جميع النواحى، فقد كان هذا الرجل مغرمًا بالبناء والتشييد والتعمير ومدينة قرطبة وأرباضها خير شاهد على ذلك.

وعلى الرغم من تلك النهضة العمرانية الرائعة فقد تعرض الخليفة الناصر إلى نقد شديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين، نعرف هذا من خلال المحاورات التى دارت بين الناصر وابنه الحكم من جهة وبينه وبين الفقيه منذر بن سعيد من جهة أخرى -والتى ذكرها المقرى فى نفح الطيب ج١ ص١٧٥، ١٧٦، ٢٦٦، ٣٦٧- وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييد الزهراء حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات، وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩] فغضب الناصر وأقسم ألا يصلى الجمعة وراء منذر وكان قاضى مسجد الزهراء، وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة، وقد قال الناصر لابنه فى ذلك: «والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، وأسرف علىَّ وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ولم يحسن السياسة بوعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى». فقال الحكم: «فما

(١) ولاية الفقيه وحضور الفقهاء مجالس القضاء مع الحكام كان فى فترات القوة التى عرفتها الأندلس ولا سيما فى عصور بنى أمية. وهذا المثال يثبت جدوى وجود العلماء والفقهاء بجانب الحكام.

الذى يمنعك من عـزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كـرهته؟ فزجره الناصر وقال: «أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير قصد؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيعًا مثل منذر فى ورعه وصدقه، ولكنه أحرجنى فأقسمت ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعاض منه أبدا».

ومن المحاورات الطريفة تلك المحاورة التى دارت بين الناصر ومنذر نفسه، فكان الناصر قد أبدع فى تزيين قبة من الذهب والفضة حتى جعلها تخطف الأبصار، وسأل ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشية عنها، فأكبروا صنعه وأثنوا عليه، ثم دخل عليهم منذر بن سعيد فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره فقال له: «يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان -لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من نفسك هذا التمكين مع ما أتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين- حتى ينزلك منازل الكافرين» فانفعل الناصر وقال له: «انظر ما تقول وكيف أنزلتنى منزلته؟»، فقال له منذر: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣] فوجم الخليفة وأطرق ثم قال: «جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرًا وعن الدين والمسلمين لأجل ذلك، وكثر من أمثالك، فالذى قلت هو الحق». وهكذا كان خلفاء بنى أمية رقاق القلوب يدنون للحق دومًا، ويستمعون إلى العلماء ويستحيون منهم ويهتدون بأفكارهم فى أغلب مجالات الحكم. وهكذا يتضح أن للعلماء دورًا عظيمًا فى رفع شأن الأمة حتى فى أحلك الحالات.

إن علماء الأندلس فى أغلب فترات الضعف والتأخر. قد تخلى بعضهم عن واجبه وظهر أغلبهم بمظهر المنافق والمرائى للحكام، وهذه ظاهرة أثبتها ابن حزم يقول رحمه الله: «ولا يغرنكم الفُساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود

الضـأن على قلوب السبـاع، المزينون لأهل الشـر شرهـم الناصـرون لهم على فسقهم» وهذا لا يمنع وجود علماء كـان لهم فضل عظيم فى استقرار الأندلس كأبى الوليد الباجى ومـحمد ابن حزم وابن عبد البر والقاضى عـياض وغيرهـم كثيرون قاموا بواجبهم المنوط بهم من نصح للحكام وللمسلمين.

٤- مؤامرات النصارى ومخططاتهم التى لا تنتـهى، لقد تربص النصارى بالمسلمين وظلوا بأماكنهم فى الشمال ينتظرون أن تلوح الفرصة للانقضاض على المسلمين واسترداد أرض الأندلس من أيديهم، والحقيقة أنهم وجدوا الفرصة قد سنحت حـينما انشـغل ملوك الأندلس بأغـراضـهم الخاصـة واسـتبـدت بهم الأهواء والشـهـوات وغـرقـوا فى ملذات الدنيـا، من هنـا أحكم الأسـبـان خططهم ومؤامـراتهم واتحـدت كلمتـهم وتقاربوا وتصـالحوا بعـدما كـانوا متنازعـين، فالمسلـمون تتفـرق كلمتـهم وتدب بينهم المنازعات والحـروب فى الوقت الذى تتحد فيه كلمة الأسبان النصـارى للقضاء على المسلمين؛ كما يقول ابن عذارى الذى وصف استعداد النصـارى لموقعة العقاب التى هزم فيـها الموحدون هزيمة منكرة وقتل فيها عدة آلاف من المسلمـين، فيروى ذلك المؤرخ أن ملك قشتالة سرح القسـيسين والرهبان من الـبرتغال إلى القسطنطينيـة ينادون فى البلاد من البحـر الرومى إلى البحر الأخـضر: غوثًا غـوثًا ورحمة رحـمة، فجاء عـباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق وأقبلوا إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبـال وأسياف البحـار ويذكر ابن عذارى فى مـوضع آخر أن البابا فريسـتان الثـانى توسط بين أمـراء الأسبـان المتنازعـين فوفق بينهـم وسرعـان ما نسـوا خصومـاتهم وتماسكوا وهم يعتقدون أنهم جاءوا من كل فج وناحـية لتخليص بلادهم ونصرة الديـن المسيحى، فـلا غرو أن نجد اتحـادًا يتم بين ملك قشـتالة وأراجون بزعامة فرناندو الخامس وإيزابيلا وهما ملكان عنيدان ومتعصبان للدين المسيـحى ويمقتـان الإسلام وأهله، وقد سـقطت دولة الإسلام على أيديهـما وأُجبر ابن الأحمر «أبو عبد الله الصـغير» أن يسلم مفاتيح غرناطة ويرحل إلى الأبد.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام ونحن نتكلم عن النصارى أن نشير إلى غدرهم ونقضهم للعهود، وهذه سمة واضحة جلية فى أغلب معاهداتهم مع المسلمين، وهذا واقع فى تاريخ الأندلس لمن أراد أن يتصفحه عندما دخلوا مدينة آبدة ونقضوا العهد المبرم مع المسلمين فاقتحم النصارى المدينة وقتلوا من أهلها ستين ألفا غدرًا وخيانة، وكذلك عندما احتل الملك الأراغونى بلنسية ووقع المعاهدة رحل عنها عشرات الألوف من المسلمين وحولت المساجد إلى كنائس، ونال المسلمون كل الاضطهاد ولم يكتفوا بتعذيب الأحياء بل نبشت القبور كما ذكر ابن الآبار فى التكملة وتحقق قوله تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠] وقد ذكرنا عند تسليم غرناطة أنه كتبت معاهدة من ٢٧ بندا نقضت جميعها بعد سبع سنوات حيث تنكر ملك قشتالة لعهوده وفرض التنصير قسرًا ورفض إخراج المسلمين من غرناطة وامتنع عن نقلهم فى مراكبه، كما تعهد، واشتد الخسف والأذى والظلم بالمسلمين المدجنين تحت حكم النصارى وهذه صورة من أبشع الصور تدل على أن النصارى لا عهد لهم ولا ذمة، ومن سمات النصارى أيضا وهذا هو ديدنهم التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى النصرة، والأغرب أن المسلمين تخاذلوا عن نصرة بعضهم بعضا ونجم عن ذلك الرضا بالخنوع والذل تحت حكم النصارى فى فترة من فترات السواد الحالك الذى لم تره البشرية قط فى حياتها، وهى الفترة التى عاشها المدجنون تحت حكم النصارى ووقعوا تحت اضطهاد محاكم التفتيش والتعذيب والتنكيل إلا أن بعضهم قد صبر وتحمل وقاموا بالثورات تلو الثورات لأنهم استوعبوا قول الرسول ﷺ: «**أنا برئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**» رواه الترمذى وأبو داوود بسنده وهو حديث حسن.

وكان من جراء التعسف المسيحى الأسبانى للمسلمين ومؤامراتهم التى لا نهاية لها أن أصيب المسلمون فى الأندلس بعدم الاستقرار السياسى وانتشرت الفتن والمؤامرات والشائعات، ولنتأمل أيها القارئ عدد حكام غرناطة فى آخر عهدها وقد حكمها أكثر من ثلاثين حاكمًا فى فترة محدودة، بعضهم لم يحكم إلا

عدة أشهر وبعضهم الآخر لم يتجاوز السنتين أو الثلاث، وهكذا فإن الاضطراب السياسى أدى فى نهاية الأمر إلى تمزق الجبهة الداخلية وقد انعكس هذا أيضا على قوة المسلمين العسكرية التى وهنت أمام العدو ولم تقم لها قائمة.

٥- إلغاء الخلافة الأموية التى كانت مظهرا من مظاهر القوة والعزة والاستقلال، ثم بدأ بعد ذلك عهد الطوائف الذى ينم عن تفسخ الدولة وانحدارها، ويعد هذا سببا من الأسباب الرئيسية فقد أعلنت الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وصارت قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية تباهى خلافة العباسيين فى بغداد وتنافس خلافة الفاطميين فى الشمال الأفريقى، وكانت الأندلس إبان تلك الفترة فى أوج قمتها وعظمتها وقد هابتها الدول الإفرنجية وسرعان ما كانوا يتقربون للخليفة الناصر وابنه الحكم، وقارئ التاريخ الأندلسى يتبين له هذا واضحًا فى السفارات التى كانت تأتى من ملك الروم والملوك الآخرين إلى بلاط الخليفة الناصر فى قرطبة، ثم تولى الخلافة بعد ذلك ابنه الحكم الذى نهض بالبلاد نهضة علمية وثقافية وحضارية وأنشأ المكتبات وأقام دور العلم فى أنحاء الأندلس، ولما توفى ذلك الخليفة تولى الأمر من بعده خلفاء ضعاف استبد بهم المنصور بن أبى عامر وبعد موت المنصور اضطربت أمور الخلافة وترنحت أركانها إذ طمعت فيها عناصر عربية وغير عربية بجانب الأمويين أصحاب الأمر وكثرت الدسائس فى قصر الخلافة، وظل الأمر هكذا إلى أن أعلن ابن جهور إلغاءها فى قرطبة وابتدأ بعد ذلك عصر الطوائف حيث انقسمت الأندلس الموحدة إلى دويلات متمزقة متشرذمة يحارب حكامها بعضهم بعضا ويستعينون بالنصارى فى مقاتلة البعض، مما أدى إلى ضعف شأنهم وعدم القدرة على حماية أنفسهم وبدأت تتساقط مدن الأندلس فى أيدى ألفونسو الذى استبد بهم ليسترد الأرض، وقد بلغ خطر الاسترداد فى جزيرة الأندلس مداه بعد أن وقعت موسطة الأندلس فى أيديهم «قرطبة» والثغر الأعلى «سرقسطة» وغيرهما من البلدان والحصون، وجاء الدور على أشبيلية التى عجز عن حمايتها ابن عباد الذى أدرك الأمر وفداحته فاجتمع مع العلماء

والفقهاء يتشاورون فى طلب النجدة والغوث فاستقر رأيه على أن يطلب النجدة من المرابطين فى المغرب الأقصى وهى دولة ناشئة آنذاك قائمة على فكرة الجهاد فى سبيل الله وحاول بعض أصحاب ابن عباد أن يثنيه عن عزمه خوفا من طمع المرابطين فى حكم الأندلس والاستبداد بالأمر بعدما تتم النصرة، ولكن ابن عباد رفض وصمم على رأيه وقال قولته المشهورة: «أن أعمل راعيا للجمال عند ابن تاشفين المسلم خير من أن أعمل راعيا للخنازير عند ألفونسو النصراني». وهكذا كان عصر الطوائف هو العصر الذى مزق وحدة الأندلس وسارع بها إلى بداية النهاية.

٦- من الدروس المستفادة والعبر التى ينبغى أن نتعظ بها فى حياتنا أيضا هو مواصلة الجهاد فى سبيل الله، فالأمة بدون الجهاد لا قيمة لها فهى أمة ضعيفة لا تقوى على منازلة الخصوم أو صد الهجوم أو الدفاع عن الأوطان والأعراض يقول الله تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، ويقول فى موضع آخر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، ويقول الرسول: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد» صحيح بمجموع طرقه. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى المجلد الثالث ص١٤.

إن الأندلس ما استقر بها المسلمون ثمانية قرون وصارت جنة الله فى أرضه إلا بالجهاد فى سبيل الله الذى ظلت رايته مرفوعة منذ جاهد فى سبيل فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير ومن بعدهم عبد الرحمن الفاتح والسمح بن مالك الخولانى وعبد الرحمن الغافقى بطل معركة الشهداء ويوسف الفهرى وغيرهم كثيرون جاءوا للجهاد فى الأندلس، وكان من ثمرة الجهاد أن ظلت الأندلس قوية مرهوبة الجانب يسودها الأمن والطمأنينة والقوة والمنعة، كما كان

فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، وحينما مالت راية الجهاد وانتكست إلى الأرض تمزقت الأندلس إلى دويلات صغيرة متباينة ومتنازع ملوكها حتى استبد بهم النصارى فى معارك جانبية كثيرة أذاقت ملوكها الذل والهوان، وإن كان الأمر كذلك؛ فإن تاريخ الأندلس لا يخلو من فترات مضيئة كانت فيها الشجاعة والإقدام والجهاد فى سبيل الله وأعنى بذلك الفترة التى حكم فيها المرابطون ثم الموحدون بلاد الأندلس، وإذا كان هؤلاء الملوك من المغرب العربى إلا أنهم جاءوا إلى الأندلس واتخذوا منها مسرحًا لرفع راية الجهاد وحماية المسلمين من بطش النصارى وإيقاف زحفهم لاسترداد البلاد إلى حين.

٧- ولا ننسى دور المرأة فى الأندلس وقد كانت المرأة على مستوى عال من الرقى والنظافة والجمال والاعتناء بملابسها وزيها وكان منهن الطبيبات والمعلمات والمحفظات للقرآن الكريم، وكانت منهن نساخات تميزن بحسن الخط، وقد حوت مكتبة الحكم المستنصر العديد من هؤلاء الفتيات يكتبن المخطوطات بخط منمق جميل، والتاريخ الأندلسى ملئ بشخصيات فتيات أديبات كولادة بنت المستكفى تلك الأديبة الفذة التى كانت تجالس الشعراء والكتاب والأدباء إلى غير ذلك من شخصيات نسائية. ولكن يهمنى هنا أن أبرز مثالين للمرأة الأندلسية المسلمة المثال الأول وهو لأم أبى عبد الله الصغير الذى سلم الأندلس للنصارى، كانت تلك الأم حكيمة عاقلة وشجاعة وإن كان بعض المؤرخين يلقى عليها تبعة مسئولية ابنها أبى عبد الله حيث يقولون أنها كانت تحنو عليه وتدلله كثيرًا وعلى ما يبدو أن الأمر كان خلاف ذلك، فقد تميزت تلك المرأة بالصرامة والشدة وتفضيل الواجب على العاطفة فقد رأت ابنها أبا عبد الله ينزوى وراء أكمة أو تل ويبكى مستخفيًا عنها ظانًا أنها لم تلاحظه ولكنها كانت تراقبه ثم قالت له قولتها المشهورة: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال».

وعاشت الأم ملتاعة ما بين ضياع الأندلس وبين ابنها الصغير وكان صغيراً حقًا: قدرًا وعقلاً وكانت مأساتها الحقيقية أنه ابنها.

والمثال الثانى: هو المرأة الموريسكية المسلمة المستضعفة تحت حكم النصارى حيث قدمت نموذجًا فريدًا ومشرقًا لملحمة بطولية عرفها المجتمع الموريسكى خلال القرن السادس عشر، فقد دأبت حكومة الملك القشتالى على سياسة المسخ والذوبان التى طبقت على المجتمع الإسلامى بالأندلس، وقد قدم الفقهاء إبان تلك الفترة دورًا رائدًا ومثاليًا أعان المرأة المسلمة على أداء دورها فقد كان هؤلاء الفقهاء يلقنون المسلمين ويذكرونهم بقواعد دينهم وتعاليمه ونظموا لذلك الاجتماعات السرية، ومن ثم استجابت المرأة لهذه التعليمات وكان عليها عبء المقاومة اليومية لمحاكم التفتيش إذ كان يتوقف عليها وحدها تحضير نوعية المآكل غير المحرمة وتلقين أبنائها تعاليم الدين الإسلامى والمحافظة على أسرار العائلة. ومن أمثلة النساء اللائى برزن فى هذا المجال «إيذابال كالفارا» وكان سنها آنذاك ٢٠ سنة حين أحرقت لأنها لم تخبر عن والدتها ولا أختها، وعندما شتم أحد المسيحيين آنادوفيفورا بقوله: «إنها كلبة عربية» ردت عليه: «نعم أنا عربية وأبى وأمى كانا وماتا عربيين وأنا عربية وسأموت عربية» وقد اضطر العديد من هؤلاء النساء المسلمات إلى شنق أنفسهن حيث إنه من خلال عمليات الحرق فى السنوات التالية ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦ شنقت ٢٤ امرأة أنفسهن ليلة قرار حرقهن أو رمين أنفسهن فى البئر أو قطعن ألسنتهن حتى لا يكشفن عن أسرار عائلتهن، كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمى فى بحثه القيم عن الموريسكيين الأندلسيين. ومع ذلك فإن محاكم التفتيش حكمت عليهن بالحرق وقد تم ذلك فعلا.

بل نرى من النساء الموريسكيات من اجتزن الحدود الأندلسية فى زى الرجال. أما «كاتلينا منداره» فقد تحولت إلى بابوية روما سعيًا منها لإلغاء حكم دواوين التفتيش ضدها حيث استولت على كل أموالها إلا أنها أحرقت سنة ١٥٨٥م لدى رجوعها من روما.

وقد بينت الدراسات التاريخية الإحصائية أنه تم ببلنسية حرق ١٢٩ سيدة موريسكية و٧٣ رجلا، بل إن ٧٠ فى المائة ممن أحرقوا بمنطقة «الوقرلو» فى الربع الأخير من القرن السادس عشر كان من النساء، وعلى العموم كان العنصر النسائى

يمثل ثلث من أحـرق، ومعنى هذا أنه قبـل سنة ١٥٧١م، كانت المرأة تمثل ٣٤ ٪ من ملفات المتهمين، وبعـد هذا التاريخ ارتفعت إلى ٤٠,٥٪ ومن هنا فإن العنصر النسائى كان معرضا لكل أنواع التنكيل والتعذيب بل وصل العداء أوجه بإدانة أناس على جرائم لم يرتكبوها وبدون حـجج وبدون أدلة على ذلك، وكان سن المحكوم عليهم أو عليهن يقـارب الأربعين سنة فالشاب «خوان كوبانييـرو» من سرقسطة قد قطع أربا إربا أثناء حـرب١٥٨٢م وهذا بسبب شديد إيمـانه بدينه، وعندما رجـمه جلادوه صاح أحد الموريسـكيون إنى فعلا عربى حتى نخاع الـعظام وقد صور أحد الموريسكيين هاته العـزلة الأخلاقية والخوف بهـذا النداء فى أحد المخطوطات «إلهى أسألك باسم القدرة والعلم والرحمـة التى تخلق بها الجنين فى بطن أمه أن تخفف أحزانى فى الماضى والمستقبل وخوفى وقلقى مهما كان مصدرهما.

أرأيت قـدرة المرأة الموريسكية وحـرصهـا الشديد على صـيانة أسـرتها وحـفظ أسرارها فتحملت العذاب والحرق، وفضلت أن تقطع لسانها أو تلقى نفسها فى بئر بدلا من أن تشيع أخبـارا عن أسرتها المسلمة، فيكون فـيها قتل لأبيهـا أو أمها أو أخيـها أو أبنائها الذين اعتـصموا بالدين الإسـلامى وعضوا عليه بالنواجـذ، فهل للمرأة المسـلمة اليوم أن تقـتدى بهذا الـنموذج وتحافظ على أسـرتها وتتـحمل فى سبيلهـا الأذى وتمنع أن تخترقها عادات الغـرب الذميمة والصور القبـيحة والأفلام الجنسية الرذيلة من أن تغـزو بيتها وتهدم كيان أسرتـها؟! نحن فى حاجة إلى تلك المرأة الصبور القادرة المتحملة للأذى فى سبيل دينها ووطنها وأمتها.

والتاريخ - تاريخ أى أمـة- ما هو إلا سجـل أحداث منه تتـبين الأمـة عوامل النجاح، وفيـها تلتمس أسبـاب الهزائم وكما يقولون: أمـة بلا تاريخ هى أمة بلا مستقبل، ومن لم يتـعظ بالتاريخ عاش عاريًا من الحقيقة بعـيدًا عن الصواب قريبًا من الزلل، فإن حـال المسلمين اليوم لا يسر فـقد ضاع ملكهم ونهبت مـقدساتهم وخضعوا لأعدائهم ولا يزالون يتعثرون فى خطاهم لا يقدرون على استبانة الطريق فينبـغى الرجوع إلى تاريخ أمـتنا وأن نتتـبع ما فيـه من هنات وهزائم ونقف على

أسبابها وعللها فنتجنبها ولا نعود إليها مرة أخرى، وبجانب الهنات ومواضع الانكسار توجد فى التاريخ حركات مضيئة حافلة بالخير عامرة بأبنائها المؤمنين الذين عمروا المكان واستغلوا الزمان.

٨- الترف والإسراف المؤدى إلى الفساد وهذا الترف من أكبر العوامل التى تؤدى إلى فساد الأخلاق، إذ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء: ١٦]. وهذا الترف يورث الغفلة عن اتباع الدين وصيانة الدولة ويشغل الناس عن المصالح العليا للدين والوطن بشهواتهم ولذاتهم، ولقد كانت بلاد الأندلس العامرة بخيراتها، الفاتنة بطبيعتها قد تغرى المترفين فيبلغ معهم الترف حد السفه، فالمعتمد بن عباد حاكم أشبيلية وهو أحد ملوك الطوائف قد اشتهت زوجته أن تخوض فى الطين فقالت له فى دلال: أريد أن أحمل قربة على كتفى وأخوض فى الطين فكيف تخوض فى الطين. وهى زوجة الملك فلما كان ذلك الملك يحبها حبا شديدا أراد أن يلبى مطلبها بطريقة غير مسبوقة، فأمر أن يؤتى بالمسك والكافور ويخلط بماء الورد ويوضع على الأرض كأنه طين على مسافات بعيدة ويرش عليه ماء الورد ثم صنعت لها قربة فاخرة من خيوط الحرير فحملتها على كتفها ومن خلفها بناتها ووصيفاتها، وصارت الزوجة تمشى فى هذا الطين وحقق لها بذلك رغبتها. هذا الترف الزائد الذى أنفق فيه مال المسلمين كان سببا من الأسباب التى عجلت بنهاية حزينة لذلك الملك، حيث قبض عليه المرابطون وأودعوه السجن فى مدينة إغمات، وظل ابن عباد بالسجن هو وبعض ملوك الطوائف فى إطار الحملة التى قام بها يوسف بن تاشفين فى معاقبة ملوك الطوائف بعدما ثبت له اتصالهم بألفونسو السادس ودفع الجزية له، فخاف على الأندلس من الضياع وقبض على أولئك الملوك وأودعهم السجون. وقد مات ابن عباد مغمومًا حينما رأى بناته قد بلت ملابسهن وساءت أحوالهن حتى لم يجدن ما يستر سوءاتهن فقال أبياتا من الشعر:

كنت فـــى الأعـيـــاد مــــســرورا	فساءك الـعيد فى أغمـات مأسورا
ترى بناتك فــى الأطمـار جـائعـة	يغـزلن للناس ما يملكن قطمـيـرا
بـرزن نحـوك للـتسلـيم خاشـعـة	أبصـارهن حـسـيـرات مكاسـيـرا
يطأن فى الطين والأقـدام حـافيـة	كـأنهـا لـم تـطأ مـسكا وكـافـورا

وصدق الله عـز وجل القائل: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فبعدما كان يطأن أقدامـهن فى المسك والكافور أصبحن تغوص أقدامهن فى الطين حافيات فقيرات.

٩- **عاقبة الظلم**: وهى عاقبة وخـيمة فيأخذ الله على يد الظالم المتـجبر، وكم رأينا من ظلم تفشى كـان سببًا فى سـقوط الدول، فالظلم هو وضع الأمر فـى غير موضعه، وهذا يعنى اغتصاب حقوق العباد وتفشى الكذب وأقوال الزور، فإذا عم الظلم كـان من أعظم أسبـاب زوال الدول، فقـد ينصر الله تعـالى الدولة العادلة ولو كـانت كافرة، ويخـذل الدولة الظالمة وإن كانت مسلمـة لذا يقال: «العدل أساس الملك» فـهل ترى الأمن والطمأنينة تسود البـلاد إذا نهبت أموال الرعية أو أخذت أراضيهم بالقوة أو تفشت الرشوة والمحسوبية أو نهبت الأموال من البنوك وهربت خارج البـلاد؟ ومن الظلم البين عدم إقامة العـدل فى إقامة الحدود أو تطبيق القانون على الضعفاء دون الأغنياء وأصحاب المكانة، كل هذه الأمور وغيرها قد تؤدى إلى زوال الدول. وتاريخ الأندلس يفيض بظلم الحكام بعضـهم لبعض؛ فكم سمـعنا عن ملوك الطوائف إذ كان القوى يعـتدى على الضعيف ويعمل على التهام دولتـه لاتساع ملكه دون وازع من ضمير أو خوف من الرب.

ومن أمثلة ظلم الملوك لبعـضهم بعضًا هو ذلك الملك المترف «المعتـمد بن عباد» فهـو يحكم أشبيليـة أكبر دويلة فى الأنـدلس آنذاك وقد استـعان به رجل من بنى جهور فى قرطبة حيث هاجـمه ملك مجاور فاستعان بالمعتمد بن عـباد ليحميه من

ذلك الجار المهاجم وهو «ابن ذى النون» فقد كان طامعا فى مملكة قرطبة ليضمها إلى أملاكه، فجاء المعتمد بن عباد ليساعد بن جهور ملك قرطبة ويحميه من وطأة ابن ذى النون، فلما جاء بجيشه وعدده وآلاته واقترب من المدينة إذا بابن بنى ذى النون يهرب خوفا، حينئذ خرج بن جهور ليودع جيش المعتمد بن عباد ويشكره على نجدته وشهامته؛ فإذا به يفاجأ بالمعتمد بن عباد قد بث جنوده فى المدينة وحاصر قصر ابن جهور واحتل المدينة بعد اجتياحها، فأصيب بن جهور بصدمة عنيفة وقبض عليه ابن عباد وعلى والده الذى أصيب بالشلل النصفى وأخذ أموالهم وأودع أولادهم في السجن وسبى زوجاته وأمواله وأولاده وأخرج الملك ووالده من المدينة إلى منفاهما فى مدينة أخرى.

ومن العجيب أن نسمع والد ابن جهور يقول: «والله إن هذا لأثر دعوة مظلوم ظلمناه بالأمس» ثم رفع الأب المشلول بصره إلى السماء وقال «اللهم كما انتقمت للمظلومين منا، فانتقم لنا من الظالمين» وشاء الله أن يستجيب لدعوته فأخذ ابن عباد أخذ عزيز مقتدر إذ سلط عليه وعلى دولته جيوش المرابطين فأخذوه وأخذوا أمواله وأولاده، وقضى حياته فى سجن فى مدينة إغمات إلى أن مات. فهل لنا أن نعتبر فقد انتقم الله من المعتمد ابن عباد كما انتقم من قبل من بنى جهور إذ كان كل منهما ظالما.

وأقول لأخى المسلم قارئ التاريخ أنه لا يكفى أن نعقد النية على قراءة التاريخ فقط بل لابد من التجربة العملية على هدى من تراثنا القديم، تراثنا الصالح، ولا أعنى ذلك التراث المرصوص فى المتاحف وفوق الرفوف وإنما أعنى التراث النافع والذى يواكب حياتنا وروح العصر، وديننا الحنيف يأمرنا دائما باتخاذ العظة من التاريخ والعبرة ممن سبقونا، ويقول تعالى مخففًا عن المسلمين وقع مرارة القتل والأذى بعد معركة أحد ولكنه يدفعهم بأن يجدُّوا فى طلب الأعداء ولا يضعفوا فيقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ

﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]
والمطلوب من خلال هاتين الآيتين أن تتعلم الأمة المسلمة من التاريخ تلك السنن:

أ- قوة الله التى تتجلى بمظاهر طبيعية أهلك بها من عصوا الرسل من الأقوام البائدة، وقد أهلك البعض بالريح الصرصر أو بالغرق أو الصيحة أو المطر وتلك من سنة الله الماضية.

ب- ومن سنن الله أيضا قوته الغيبية التى ينصر بها أهل الحق وإن كانوا قلة ضعافًا، ويخذل بها أهل الباطل وإن كثر عددهم وثقلت عدتهم، وأن الله دائما مع المؤمنين فهو ناصرهم ومؤيدهم ضد الشر والأشرار، وذلك إذا لجأ المؤمن إلى ربه وتمسك بدينه يقول تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

ج- هذا وبتسطيرنا هذه النازلة الكبرى التى نزلت بدولة الإسلام بالأندلس فإننا نرجو أن نوقظ الهمم ونستثير العواطف ونبعث الإباء والعزة ونرفض الضيم فى النفوس وأن نعيد للنفوس الضعيفة الملتاعة شعور الآباء والأجداد المفعم بالحب والصدق والعمل الجاد والعدل المطلق المنزه عن العصبيات والشهوات والهوى، وبذلك بنوا الممالك وأقاموا الحضارات وكانوا خير أمة أخرجت للناس. وإن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محتويات الكتاب

الصفحة | الموضوع

الفصل الأول

موجز لتاريخ الأندلس من القوة حتى الضعف

الفصل الثانى

عهد الفوضى والكفاح

الفصل الثالث

الضعف والانحلال وسقوط الأندلس

الفصل الرابع

من قضايا الموريسكيين بعد تسليم غرناطة

